

مريد البرغوثي

رأيت رام الله



تقديم: إدوار سعيد

المركز الثقافي العربي



مريد البرغوثي

رَأَيْتُ رَامَ اللَّهِ



الكتاب

رأيت رام الله

تأليف

مريد البرغوثي

الطبعة

الرابعة ، 2011

عدد الصفحات: 224

القياس: 21.5 x 14.5

الترقيم الدولي :

ISBN: 978-9953-68-341-7

جميع الحقوق محفوظة

© المركز الثقافي العربي

الناشر

المركز الثقافي العربي

الدار البيضاء - المغرب

ص.ب : 4006 (سيدنا)

42 الشارع الملكي (الأحباس)

هاتف : 0522 303339 - 0522 307651

فاكس : 212 522 305726 +

Email: markaz@wanadoo.net.ma

بيروت - لبنان

ص.ب : 5158 - 113 الحمراء

شارع جاندارك - بناية المقدسي

هاتف : 01 750507 - 01 352826

فاكس : 961 1 343701 +

Email: cca_casa_bey@yahoo.com

مقدمة

بقلم: إدوارد سعيد(*)

هذا النص المحكم، المشحون بغنائية مكثفة، الذي يروي قصة العودة بعد سنوات النفي الطويلة إلى رام الله في الضفة الغربية في سبتمبر 1996 هو واحد من أرفع أشكال كتابة التجربة الوجودية للشئات الفلسطينية التي نمتلكها الآن. إنه كتاب مريد البرغوثي الشاعر الفلسطيني المرموق، والمتزوج كما يخبرنا في مواضع شتى من الكتاب، من رضوى عاشور الروائية والأكاديمية المصرية الممتازة، إذ كانا طالبين يدرسان اللغة الإنجليزية وآدابها في جامعة القاهرة في الستينيات، وخلال زواجهما اضطررا للافتراق طوال سبعة عشر عاماً، هو مستشاراً في مكتب منظمة التحرير الفلسطينية في بودابست وهي مع ابنهما تميم في القاهرة حيث تعمل أستاذة في قسم اللغة الإنجليزية في جامعة عين شمس. والأسباب السياسية لهذا الافتراق يشير إليها كتاب «رأيت

(*) كتب إدوارد سعيد هذه المقدمة للطبعة الإنكليزية من «رأيت رام الله» وقد أصبحت هذه المقدمة جزءاً من هذا الكتاب في طبعاته المختلفة بعدة لغات.

رام الله»، كما يشير أيضاً إلى ظروف نفي الشاعر من الضفة الغربية عام 1966 وظروف عودته إليها بعد ثلاثين سنة.

عند صدور رأيت رام الله عام 1997 واستقباله بحفاوة عظيمة وواسعة شملت العالم العربي كله، نال الكتاب جائزة نجيب محفوظ للإبداع الأدبي التي تمنحها الجامعة الأمريكية بالقاهرة. وأجمل ما تشتمل عليه الجائزة حقاً هذه الترجمة الأنيقة المثيرة للإعجاب إلى اللغة الإنجليزية التي قامت بها أهداف سويف، وهي ذاتها روائية وناقدة مصرية هامة تكتب رواياتها بالإنجليزية (في عين الشمس وخارطة الحب). لهذا فهو حدث أدبي هام أن تجتمع هاتان الموهبتان داخل غلاف واحد، وإنه ليسعدني أن يتاح لي أن أقول بعض الكلمات كمقدمة لهذا العمل. أما وقد قمت بنفسني برحلة مشابهة إلى القدس (بعد غياب 45 سنة) فإنني أعرف تماماً هذا المزيج من المشاعر حيث تختلط السعادة، بالأسف، والحزن والدهشة والسخط والأحاسيس الأخرى التي تصاحب مثل هذه العودة.

إن عظمة وقوة وطزاجة كتاب مريد البرغوثي تكمن في أنه يسجل بشكل دقيق موجع هذا المزيج العاطفي كاملاً، وفي قدرته علي أن يمنح وضوحاً وشفاءً لدوامه من الأحاسيس والأفكار التي تسيطر على المرء في مثل هذه الحالات. إن فلسطين، على كل حال، ليست مكاناً عادياً، إنها متوغلة بعمق في كل التواريخ المعروفة وفي تراث الديانات التوحيدية، شهدت غزاة وحضارات من كل صنف ولون تأتي وتزول، وتعرضت في القرن العشرين

لصراع ممضٍ بين سكانها الأصليين العرب الذين اقتلِعوا وتشتَّتْ معظمهم عام 1948 وحركةٍ سياسية وافدة لليهود الصهاينة (ذوي الأصول الأوروبية في الغالب) الذين أقاموا دولة يهودية في فلسطين، وفي عام 1967 احتلّوا الضفة الغربية وقطاع غزة وما زالوا عملياً يسيطرون عليها إلى يومنا هذا. إن كل فلسطيني يجد نفسه اليوم أمام موقف شديد الغرابة، فهو يدرك أن فلسطين كانت موجودة ذات يوم لكنه يراها وقد اتخذت اسماً جديداً وشعباً جديداً وهوية جديدة تُنكر فلسطين جملةً وتفصيلاً. بالتالي فإن العودة إلى الوطن، في ظل هذا الوضع، أمر غير عادي إن لم نقل إنه مفعم بالأسى والوطأة.

إن رواية مريد البرغوثي كانت ممكنة بسبب ما يُطلق عليه بشكل مضللّ عملية السلام (هذه التسمية الخاطئة بشكل مخيف) بين منظمة التحرير الفلسطينية بقيادة ياسر عرفات ودولة إسرائيل. فهذه الترتيبات التي بدأت في سبتمبر 1993 ولا تزال مستمرة بدون حل حتى لحظة كتابة هذه السطور (أوائل أغسطس 2000) والتي تمّت بواسطة أمريكية، لم تؤدّ إلى سيادة فلسطينية حقيقية على غزة والضفة الغربية ولا إلى سلام ومصالحة بين اليهود والعرب. لكنها سمحت بعودة بعض الفلسطينيين من أهالي المناطق المحتلة عام 1967 إلى منازلهم. وهذه هي الحقيقة السارة التي انبثق منها مشهد الوقوف على الحدود الذي يفتتح به مريد البرغوثي كتابه «رأيت رام الله».

وكما يكتشف البرغوثي بسرعة، تكمن المفارقة في أنه

بالرغم من وجود ضباط فلسطينيين على جسر نهر الأردن الفاصل بين المملكة الهاشمية وفلسطين فإن الجنود والمجنندات الإسرائيليين ما زالوا هم الذين يمسكون بزمام الأمور. وكما يلاحظ بقوة: «الآخرون هم أسياد المكان». وإن كان هو من أهالي الضفة وبوسعه أن يقوم بهذه الزيارة فهو يروي ببلاغة كيف أن بقية الفلسطينيين (حوالي 3,5 مليون نسمة) هم لاجئون من مناطق 1948 وبالتالي لا يمكنهم العودة في ظل الوضع الراهن.

إنه لأمر حتمي أن يكون في كتاب البرغوثي قدرٌ من السياسة، لكنه لا يقدّمها لنا في أية لحظة من قبيل التجريد أو الدوافع الأيديولوجية. كل ما هو سياسي في الكتاب ناجم عن الأوضاع المعيشية الحقيقية في حياة الفلسطينيين المحاطة بقيود تتعلق بالإقامة والرحيل. فبالنسبة لمعظم شعوب الأرض الذين هم مواطنون لديهم جوازات سفر وبوسعهم السفر بحرية دون تفكير في هويتهم طوال الوقت، فإن مسألة السفر والإقامة تعدّ أمراً مفروغاً منه. بينما هي أمر مشحون بتوتر عظيم لدى الفلسطينيين الذين لا دولة لهم، والذين، وإن امتلك كثير منهم جوازات سفر كملايين اللاجئين المنتشرين في كافة أرجاء العالم العربي وأوروبا وأستراليا والأمريكتين الشمالية والجنوبية، فإنهم يحملون وزر كونهم مقتّلين وبالتالي غرباء.

إن هذا الواقع جعل نص البرغوثي حافلاً بالهموم، من نوع أين يمكنه أو لا يمكنه أن يقيم؟ وكم يمكنه البقاء؟ ومتى عليه أن يغادر؟ والأقسى من ذلك كله ماذا يمكن أن يحدث في غيابه؟

:يموت شقيقه «منيف» موتاً قاسياً وغير ضروري في فرنسا لأن أحدا لا يستطيع أو لا يرغب في تقديم المساعدة. وتحوم في أجواء الكتاب طوال الوقت شخصيات ثقافية مرموقة كالروائي غسان كنفاني ورسام الكاريكاتير ناجي العلي اللذين ماتا اغتيالاً، مما يذكرنا بأن الفلسطيني مهما كان موهوباً أو مرموقاً يظل عرضة للموت المفاجئ والاختفاء الذي لا يمكن تفسيره. من هنا هذه النعمة الموجهة الحزينة في هذا الكتاب لكنها في الوقت نفسه نعمة عفية وإيجابية. حقاً إن ما يعطي هذا الكتاب تفرده وأصالته المفعمة بالصدق والتي لا تخطئها العين هو نسيجه الشعري الذي يؤكد قوة الحياة.

إن كتابة البرغوثي، وبشكل مدهش حقاً، كتابة تخلو من المرارة فهو لا يُلقى خُطباً تحريضية رنانة ضد الإسرائيليين لما فعلوه، ولا يحطّ من شأن القيادة الفلسطينية جراء الترتيبات الفاضحة التي وافقت عليها وقبلتها على الأرض. إنه على حق طبعاً عندما يلاحظ أكثر من مرة أن المستوطنات تُلطّخ وتشوّه المشهد الطبيعي الفلسطيني ذا الانسياب اللطيف والجبلي في الغالب. لكن هذا هو كل ما يفعله بالإضافة إلى ملاحظته لحقائق يزعم صانعي السلام المفترضين أن يتعاملوا معها.

إنها ليست قليلة أبداً هذه المفارقة عندما ينقّب البرغوثي عن جذور اشتقاق اسم عائلته (رغم أنني لا أملك معلومات ثابتة حول هذا الأمر فإنني أعتقد أن عائلة البرغوثي هي أكبر عائلة في فلسطين على الإطلاق، ويصل عدد أفرادها إلى 25 ألف نسمة).

إنه لا يتهرب من حقيقة أن اسمهم يبدو مشتقاً من «البرغوٲ» وهذه التفصيلة الناجمة عن التواضع تمنح السرد بعداً أكثر إنسانية وشجناً وعذوبة.

إن التميز الأساسي لكتاب «رأيت رام الله» هو في كونه سجلاً للخسارة في ذروة العودة ولم الشمل، ومقاومة البرغوٲ المستمرة لأسباب خساراته وتفنيدها هي التي تضفي على شعره معناه العميق وماديته الملموسة وعلى روايته كثافتها وتماسكها.

«الاحتلال»، يقول البرغوٲ، «خلق أجيالاً عليها أن تحب حبباً مجهولاً، نائياً، عسيراً، محاطاً بالحراس وبالأسوار وبالرؤوس النووية وبالرعب الأملس»! لهذا فهو في قصائده كما في نثره يسعى إلى تحطيم الحوائط، إلى تجنب الحراس، من أجل الوصول إلى فلسطين التي تخصه والتي يجدها في رام الله، رام الله التي كانت يوماً ضاحية خضراء هادئة لمدينة القدس وأصبحت في السنوات الأخيرة مركزاً للحياة المدنية الفلسطينية تتمتع باستقلالية نسبية ومقدار معقول من النشاط الثقافي وعدد من السكان مطّرد النمو. في هذه المدينة التي يعيد اكتشافها وتصويرها بحيوية يلتقي البرغوٲ الشاعر المشرد بذاته مجدداً، فقط ليرمي نفسه مرة أخرى في أشكال جديدة من الغربة:

«يكفي أن يواجه المرء تجربة الاقتلاع الأولى حتى يصبح مقتلأً من هنا إلى الأبدية»!

وهكذا، فبالرغم من الفرح ولحظات النشوة التي يحملها

هذا النص ، فإنه في جوهره يستحضر المنفى لا العودة . وهذه
النغمة الشخصية هي بالضبط ما حافظت عليه الترجمة الممتازة
التي تقدمها أهداف سويف لقراء اللغة الإنجليزية .
هذا كتاب يجسد لنا التجربة الفلسطينية بشكل يؤنسها
ويعطيها ، بأسلوبه الجديد ، معنىً جديداً .

إدوارد سعيد

نيويورك ، آب / أغسطس 2000

الجسر

الطقسُ شديداً الحرارة على الجسر. قَطَرَةُ العَرَقِ تَنَحْدِرُ مِن
جَبِينِي إِلَى إِطَارِ نَظَّارَتِي، ثُمَّ تَنَحْدِرُ عَلَى العَدَسَةِ. غَبْشُ شَامِلٍ
يَغْلُلُ مَا أَرَاهُ، وَمَا أَتَوَقَّعُهُ، وَمَا أَتَذَكَّرُهُ. مَشْهَدِي هُنَا تَتَرَجَّرُ فِيهِ
مَشَاهِدُ عُنُرٍ، انْقَضَى أَكْثَرُهُ فِي مُحَاوَلَةِ الْوُصُولِ إِلَى هُنَا. هَا أَنَا
أَقْطَعُ نَهْرَ الْأُرْدُنِ. أَسْمَعُ طَفْطَقَةَ الْخَشَبِ تَحْتَ قَدَمَيَّ. عَلَى كَتِفِي
الْأَيْسَرِ حَقِيبةٌ صَغِيرَةٌ. أَمْشِي بِاتِّجَاهِ الْعُزْبِ مَشْيَةً عَادِيَةً. مَشْيَةً تَبْدُو
عَادِيَةً. وَرَائِي الْعَالَمُ، وَأَمَامِي عَالَمِي.

* * *

أَجْزُ مَا أَتَذَكَّرُهُ مِنْ هَذَا الْجَسْرِ أَنَّنِي عَبْرْتُهُ فِي طَرِيقِي مِنْ رَام
اللَّهِ إِلَى عَمَّانَ قَبْلَ ثَلَاثِينَ سَنَةً، وَمِنْهَا إِلَى مِصْرَ، لِاسْتِنَافِ دِرَاسَتِي
فِي جَامِعَةِ الْقَاهِرَةِ. إِنَّهُ الْعَامُ الدِّرَاسِي الرَّابِعَ وَالْأَخِيرَ 1966/67 عَامَ
تَخْرُجِي الْمُنْتَظَرِ.

صَبَاحَ الْإِثْنَيْنِ 5 حَزِيرَانَ 1967، امْتِحَانُ اللُّغَةِ اللَّاتِينِيَّةِ. لَمْ يَبَقْ
إِلَّا هَذَا الْإِمْتِحَانُ، بَعْدَهُ بَيَوْمِينَ اثْنَيْنِ، مَادَّةُ الرِّوَايَةِ، وَبَعْدَهُ مَادَّةُ
الْمَسْرُوحِ. ثُمَّ أَكُونُ وَفِيَتْ بَعْدِي لِمَنِيْفَ بِأَنَّ أَنْجَحَ، وَحَقَّقْتُ رَغْبَةً
أُمِّي فِي أَنْ تَرَى أَوَّلَ وَلَدٍ جَامِعِي مِنْ أَوْلَادِهَا. مَرَّتِ الْامْتِحَانَاتُ

السابقة في تاريخ الحضارة الأوروبية والشعر الانجليزي والنقد الأدبي واللغويات والترجمة بدون مفاجآت. هائث. بعد ظهور النتيجة سأعود الى عمان ومنها عبر نفس الجسر، إلى رام الله، حيث علمتُ من رسائل الوالدين أنهما شرعا في طلاء بيتنا في عمارة الفتاوي استعداداً لعودتي بـ «الشهادة».

الطقس شديد الحرارة في قاعة الإمتحان، قطرة العرق تنحدرُ من جبیني الى إطارِ نظارتي. تتوقف هناك، ثم تنزلُ على العدسة، ومنها إلى الكلمات اللاتينية على ورقة الإمتحان: أكتوس/ أكتا / ألتوم. لكن ما هذه الأصواتُ في الخارج؟ انفجارات؟ هل هي مناورات الجيش المصري؟ أحاديثُ الأيام السابقة كلها أحاديثُ حرب. هل نشبت؟ أمسح نظارتي بمنديل ورقي، أراجع إجاباتي وأغادر مقعدي. أسلم ورقة الإجابة لمراقب القاعة. قشرة صفراء من طلاء السقف، تسقط بجواري، وتفتتُ على الطاولة المغطاة بأوراق الطلاب بيني وبين المراقب. ينظر إلى أعلى ممتعضاً، أتركه إلى الخارج.

أهبطُ درجَ كُليّة الآداب. مدام عيشة، زميلتنا المتوسطة العمر التي التحقت بالجامعة بعد وفاة زوجها، جالسة في سيارتها تحت نخلات الحرم الجامعي، تنادينني بلكنة فرنسية وباضطراب:

- مُغيدا مغيدا! الخغب قامت. سأطنا ثلاثة وعشغين طياعة!

وقفتُ مائل الجذع ممسكاً بباب سيارتها الأيمن. كان أحمد سعيد سعيداً في مذياع السيارة. والأناشيد عالية. اجتمع حولنا عددٌ من الطلبة. دارت التعليقات الواثقة منها والمتوجسة. شددت قبضة يدي اليمنى على زجاجة الجبر البيليكان التي لا تفارقني في الإمتحانات. لا أعرف حتى يومنا هذا لماذا رسمتُ بذراعي قوساً واسعاً في الهواء، وقذفتُ المحبرة بكل قوة، مصوباً على جذع تلك النخلة، لتتناثر مع ارتطامها الكحلي شظايا الزجاج التي

استقرت على العشب.

من هنا، من إذاعة صوت العرب، قال لي أحمد سعيد إن «رام الله» لم تغد لي وإنما لن أعود إليها. المدينة سقطت.

توقفت الإمتحانات لأسابيع. استؤنفت الإمتحانات. نجحت وتخرجت. حصلت على ليسانس من قسم اللغة الإنجليزية وآدابها. وفشلت في العثور على جدارٍ أعلق عليه شهادتي.

من تصادف وجودهم خارج الوطن عندما قامت الحرب، يحاولون الحصول على تصريح «لَمَ الشمل» بكل الوسائل، عن طريق أقربائهم من الدرجة الأولى في فلسطين أو عن طريق الصليب الأحمر. والبعض غامر بالعودة تسلاً كما فعل أخي مجيد.

إسرائيل تسمح لمئات من كبار السن وتمنع مئات الآلاف من الشبان من العودة. وصار العالم يسمينا «نازحين»!

الغربة كالموت، المرء يشعر أن الموت هو الشيء الذي يحدث للآخرين. منذ ذلك الصيف أصبحت ذلك الغريب الذي كنت أظنه دائماً سيواي.

الغريب هو الشخص الذي يجتدُ تصريح إقامته. هو الذي يملأ النماذج ويشترى الدمغات والطوابع. هو الذي عليه أن يقدم البراهين والإثباتات. هو الذي يسألونه دائماً: «من وين الأخ؟» أو يسألونه «وهل الصيف عندكم حار؟ لا تعنيه التفاصيل الصغيرة في شؤون القوم أو سياساتهم» الداخلية لكنه أول من تقع عليه عواقبها. قد لا يقرحُ ما يقرحهم لكنه دائماً يخاف عندما يخافون. هو دائماً «العنصر المندس» في المظاهرة إذا تظاهروا، حتى لو لم يغادر بيته في ذلك اليوم. هو الذي تنعطب علاقته بالأمكنة. يتعلق بها وينفر منها في الوقت نفسه. هو الذي لا يستطيع أن يروي روايته بشكلٍ متصل ويعيش في اللحظة الواحدة أضغاثاً من

اللحظات. لكل لحظة عنده خلودها المؤقت، خلودها العابر. ذاكرته تستعصي على التنسيق. يعيش أساساً في تلك البقعة الخفية الصامتة فيه. يحرص على أن يصون غموضه، ولا يحب من ينتهك هذا الغموض. له تفاصيل حياة ثانية لا تهم المحيطين به، وكلامه يحجبها بدلاً من أن يعلنها. يعشق رنين الهاتف، لكنه يخشاه ويفزع منه. الغريب هو الذي يقول له اللطفاء من القوم «أنت هنا في وطنك الثاني وبين أهلك». هو الذي يحتقرونه لأنه غريب. أو يتعاطفون معه لأنه غريب. والثانية أفسى من الأولى. في ظهيرة ذلك الإثنين، الخامس من حزيران 1967 أصابني الغربة.



هل كنت بالنضوج الكافي لإدراك أنّ لي أشباهاً من المواطنين الغرباء في عواصمهم ذاتها؟ ودون أن تتعرض بلدانهم للإحتلال الأجنبي؟ هل نَظَر أبو حيان التوحيدي عبر عصور المستقبل، فكتب في ماضيه السحيق، غُرْبَتَنَا الرَّاهنة في النصف الثاني من القرن العشرين؟ هذا النصف الأطول من نصفه الأسبق؟ لا أعرف.

لكنني أعرف أن الغريب لا يعود أبداً الى حالاته الأولى. حتى لو عاد. خَلَص. يصاب المرء بالغربة كما يصاب بالزُّبُو. ولا علاج للإثنين. والشاعر أسوأ حالاً. لأنَّ الشَّعر بحد ذاته غربة. ما الذي أتى بالربو هنا؟ هل هي نوبة السعال التي فاجأتني أثناء انتظاري في الجانب الأردني لساعات طويلة، قبل أن يَسمح لي «الجانب الآخر» كما يسميه رجالُ الشرطة الفلسطينية، بأن تلامس قدماي هذا الحَدَّ الفاصلَ بين رَمَتَيْن؟

كنت وصلت من عمان إلى هذا الجانب الأردني من الجسر. أوصلني أخي علاء بسيارته ومعنا زوجته إلهام وأمي. انطلقنا من

بيتنا في الشميساني في التاسعة والرّبع صباحاً ووصلنا الى هنا قبل العاشرة. هذه آخر نقطة يمكن أن يُسمح لهم بالوصول اليها. ودّعْهُمْ وعادوا الى عمان.

جلستُ في غرفة انتظار مُقامة عند حافة الجسر تماماً. سألت الضابط الأردني عن الخطوة التالية.

- تنتظر هنا حتى تأتينا إشارة «منهم» وبعدين تقطع الجسر.
انتظرت بعض الوقت في الغرفة قبل أن أتبين أن انتظاري سيطول. اتجهت الى الباب. وقفت أتأمل النهر.

لم يفاجئني ضيق مجراه. نهر الأردن كان دائماً نهراً نحيلاً جداً. هكذا عرفناه في الطفولة. المفاجأة أنه أصبح بعد هذه السنين الطوال نهراً بلا ماء. تقريباً بلا ماء. الطبيعة اشتركت مع إسرائيل في نهب مياهه. كان لمجراه صوت. هو الآن نهرٌ ساكت. كأنه سيارة واقفة في مرآب.

الضفة المقابلة تعرض نفسها بوضوح كامل أمام العين. والعين ترى ما ترى. قال لي أصدقاء عبروا النهر بعد غيبة طويلة إنهم بكوا هنا.

لم أبك.

لم يصعد ذلك الحَدْرُ الخفيف من صدري إلى عيني. لم يكن معي أحد ليقول لي كيف كانت ملامحُ وجهي في ساعات الإنتظار تلك.

أتأمل جسم الجسر. هل سأجتازه بالفعل؟ تنشأ مشكلة طارئة في اللحظة الأخيرة؟ يعيدونني من هنا؟ يخترعون لي خطأ في الإجراءات المطلوبة؟ هل سأمشي بقدمي على الضفة الأخرى، على هذه التلال المعلنة أمامي؟

لا فارق في التضاريس بين الأرض الأردنية التي أقف عليها الآن والأرض الفلسطينية على الجانب الآخر من الجسر.

هذه إذّا هي «الأرض المحتلة»!

في أواخر عام 1979 كنت أشارك في أحد مؤتمرات اتحاد الأدباء والكتاب العرب في دمشق. أخذنا المضيفون لزيارة مدينة القنيطرة. ذهبنا في موكب سيارات الى المدينة ووصلناها بعد وقت قصير. شاهدنا التدمير الفظيع الذي تعرّضت له القنيطرة على أيدي الإسرائيليين. وقفنا بجوار الأسلاك الشائكة التي يرتفع وراءها العلم الإسرائيلي. مددت يدي من فوق السلك، وأمسكت بالأفرع العلوية من إحدى الشجيرات البرية في الجانب المحتل من الجولان. أخذت أهرّ الشجيرة المضمومة في يدي وقلت للدكتور حسين مروّة، وكان يقف بجواري مباشرة:

- هذه هي «الأرض المحتلة» يا «أبو نزار». إنني أستطيع أن أمسكها باليد!

عندما تسمع في الإذاعات وتقرأ في الجرائد والمجلات والكتب والخُطَب كلمة «الأرض المحتلة» سنةً بعد سنة، ومهرجاناً بعد مهرجان، ومؤتمر قمةً بعد مؤتمر قمة، تحسبها وهمّاً في آخر الدنيا! تظن أن لا سبيل للوصول إليها بأي شكل من الأشكال.

هل ترى كم هي قريبة، ملموسة، موجودة بحق! إنني أستطيع إمساكها بيدي. كالمنديل.

وفي عيني حسين مروّة تكوّن الجواب كلّهُ. وكان الجواب صامتاً ومبلولاً.

الآن ها أنا أنظر إليها، إلى الضفة الغربية من نهر الأردن. هذه هي «الأرض المحتلة» إذّا؟ لم يكن معي أحد لأكرّر له ما قلته منذ سنوات لحسين مروّة من أنها ليست مجرد عبارة في نشرات الأنباء. إنها، إذ تراها العين، تتمتع بكل وضوح التربة والحصى والتلال والصخور. لها ألوانها ودرجة حرارتها ولها أعشابها البرية أيضاً.

من يجزؤ على تجريدها الآن وقد تجلّت جسداً أمام الحواس؟
هي الآن ليست تلك الحبيبة في شعر المقاومة، ولا ذلك البند
في برامج الأحزاب. ليست جدالاً ولا مجازاً لغوياً. ها هي تمتد
أمامي، ملموسة كمقرب، كعصفور، كبشر، ومرثية كحقل من
الطباشير، كأثار الأحذية.

قلت لنفسي ما هي استثنائيتها لو لم تكن فقدناها؟
هي أرض كالأرض.

نحن لا نرفع لها الأغنيات إلا لكي نتذكر الإهانة المتجسدة في
انتزاعها منا. الإهانة تنقص حياة المهانين. نشيدنا ليس للقداسة
السالفة، بل لجدارتنا الراهنة. فاستمرار الإحتلال يشكل تكذيباً
يوميّاً لهذه الجدارة.

ها هي أمامي. في موضعها ذاته منذ نشأة الخليفة.
قلت لنفسي «الأرض لا ترحل».

لم أصل إليها بعد. انني فقط أراها بشكل مباشر. كنت كمن
أبلغوه بالفوز بجائزة كبرى، لكنه لم يستلمها بعد.
ما زلت على الجانب الأردني. الساعات تمر.

أعود لقاعة الإنتظار. من الواضح أنّ لا جديد بالنسبة لي.
أجلس على الكرسي. أخرج أوراقني. أتسلى بتقليبها.
أملوحات وتوقيعات ومشاهد شعرية أعدها للنشر باسم «منطق
الكائنات». إنه ديواني الشعري التاسع. ألقى نظرة مستعجلة لا
معنى لها على الأسطر وأعيد الأوراق للحقيبة. تشتت ذهني في
هذه اللحظات يمنعني من التركيز في أمر واحد، في أي أمر. قلق
الإنتظار ينعكس قلقاً على النصوص. قبل النشر مباشرة أفقد
الحماس وأتشكك في قيمة النص الذي يوشك على الإفلات من
سيطرتي.

أحب القصيدة وهي تتخلّق بين أصابعي وتتشكل صورة بعد صورة، حرفاً بعد حرف. بعد ذلك يبدأ الخوف ويهرب اليقين. تنتهي عندي تلك اللحظة الراضية التي يسمونها «فتنة الخالق بال مخلوق».

يحدث ذلك وحدث منذ أول قصيدة نشرتها في حياتي. أتذكرها جيداً. كانت لها دلالة لا أستطيع أن أحدها، لكنها ارتبطت بتاريخ لا يُنسى.

كنت في السنة الرابعة في الجامعة. عرف الزملاء وبعض الأساتذة أنني اكتب الشعر. السنة الدراسية تقترب من نهايتها ومغادرتي لمصر باتت وشيكة. لديّ قصائد كثيرة كنت أقرأ بعضها لرضوى على درج المكتبة، هي تؤكد لي أنها قصائد جيدة، وأني بالتأكيد سأصبح شاعراً ذات يوم.

و ذات يوم، قدّمت للأستاذ فاروق عبد الوهاب واحدة من تلك القصائد لنشرها في مجلة «المسرح» التي كان يرأس تحريرها رئيس القسم الدكتور رشاد رشدي.

بعد ذلك مباشرة قضيت أياماً من الرعب.

كنت أفكر يومياً في أن أستعيدها منه لكنني خجلت من أن يعدّني متردداً ضعيف الشخصية. أراه في الكلية وأكاد أسأله عن رأيه فيها وأعدّل عن ذلك في اللحظة الأخيرة. بمجرد أن خرجت تلك القصيدة من يدي شعرت أنها رديئة ولا تصلح للنشر. وأجزم الآن أنها كانت رديئة بالفعل.

مرّت الأيام الى أن جاء ذلك اليوم الرهيب، الإثنين 5 حزيران

1967 .

ذهبت الى أحد الأفران لأنزود بما يتيسّر من أرغفة الخبز استعداداً لمواجهة احتمال اختفائه في ظروف الحرب (كنا نظنّها حرباً طويلة بالضرورة!) وقفّت في الطابور الطويل المتلاطم انتظاراً

لدّوري. كان على الأرض بجوار المكان الذي وقفت فيه، بسطة
جرائد ومجلات وكتب، هي امتدادٌ لمكتبةٍ صغيرة ما تزال مفتوحة.
رأيت بين عشرات المجلات مجلة «المسرح». دفعت ثمنها للبائع
وبسرعة أخذت ألقبها بحثاً عن القصيدة. و... وجدتُها!... مريد
البرغوثي: قصيدة «إعتذار الى جنديّ بعيد».

أية صدفة هذه!

أول قصيدة لي تظهر في هذا الصباح الغريب!
على غلاف المجلة كان تاريخ الصدور واضحاً: الإثنين 5 يونية
1967.

سألني صحفيّ ذات يوم عن هذا الأمر. رويت له ما أسلفت ثم
أضفت مُداعباً:

- تُرى هل انهزم العرب وضاعت فلسطين لأنني كتبت الشعر؟
ضحكنا، ولم نضحك.

أغادر الغرفة ثانية.

أخرجُ لأتمشّي في المساحة القليلة بينها وبين النهر. أتأمل
المشهد. لم يكن لديّ ما أفعله سوى التأمل.

أرضٌ صحراويةٌ ملاصقةٌ للماء! والشمسُ عَقْرَبُ.

«قولوا لعين الشمس»، تلك الأغنية الحزينة التي أصبحت مرثية
الهائمين في صحراء أخرى لا تبعد كثيراً عن هذا المكان تعزّ على
البال. في 19 حزيران 1967 يطرق باب شقتي في الزمالك شخص
حرّقت الشمسُ وجهه ويبدو غريب الهيئة والملابس. عانقته كأنه
هبط من غيمة مباشرة الى ذراعَي.

- كيف وصلت الى هنا يا خالي عطا؟

بعد أن ارتاح قليلاً أصبح الحديث فيما جرى ممكناً.

ظل يمشي أربعة عشر يوماً في صحراء سيناء. من ر حزيران
وهو يمشي.

- لم نحارب. دمروا أسلحتنا ولاحقونا بالطائرات من أول ساعة... الخ

كان خالي ضابطاً في الجيش الأردني ثم ذهب للعمل مدرّباً في الجيش الكويتي في أوائل الستينات. في حرب الـ 67 أرسلوه مع الكتيبة الكويتية للإشتراك في الحرب إلى جانب مصر. قال إنهم الآن في معسكر قرب دهشور وبإمرة الجيش المصري. وانهم لا يعرفون الخطوة القادمة:

لم أعرف شخصاً عنيداً ومتشّداً كخالي. معنى الحياة بالنسبة له أن يأمر فيطاع. شؤون بيته يجب أن تدار على طريقته وحده. احترام زوجته وبناته وأولاده له، يختلط بالخوف منه والخشية من عقابه. عصبيّ سريع الإنفعال، رغم أنه في أعماقه مخلوق عاطفيّ وحنون. عندما رأيته في ذلك اليوم العجيب، اختفت كل جوانب القسوة في شخصيته، لم يبق منه سوى الهشاشة، الإنكسار، الذهول، والرغبة في الصراخ.

لم أر من الجنود العائدين من المعركة غيره، وكان هذا كافياً ليحزن القلب. رؤية شخص واحدٍ تكفي لكي تتشخصن الفكرة كلها. فكرة الهزيمة.

انتصف النهار. توثري يتصاعد مع كل دقيقةٍ انتظارٍ أخرى. هل سيسمحون لي باجتياز الماء؟ لماذا تأخروا إلى هذا الحد؟

وعند هذا الحد، سمعتُ من ينادي على اسمي!

- خذ شنطتك واقطع المي.

أخيراً! ها أنا أمشي بحقيبتَي الصغيرة على الجسر، الذي لا يزيد طوله عن بضعة أمتارٍ من الخشب، وثلاثين عاماً من العُزبة. كيف استطاعت هذه القطعة الخشبية الداكنة أن تُقصي أمةً

بأكملها عن أحلامها؟ أن تمنع أجيالاً بأكملها من تناول قهوتها في
بيوت كانت لها؟

كيف رمثنا الى كل هذا الصبر وكل ذلك الموت؟ كيف
استطاعت أن توزعنا على المنابذ والخيام وأحزاب الوشوشة
الخائفة؟

إنني لا أشكرك أيها الجسر القليل الشأن والأمتار. لست بحراً
ولست محيطاً حتى نلتصق في أهوالك أعذاراً. لست سلسلة جبال
تسكنها ضواري البرّ وغيلانُ الخرافة حتى نستدعي الغرائز والوقاية
دونك. كنت سأشكرك، أيها الجسر، لو كنت على كوكب غير
هذا، وعلى بقعة لا تصل اليها المرسيدس القديمة في ثلاثين
دقيقة. كنت سأشكرك، لو كنت من صنّع البراكين، وزُعبها
البرتقاليّ السميك. لكنك من صنّع نجارين تعساء، يضعون
المسامير في زوايا الشفاه، والسيجارة على الأذن. لا أقول لك
شكراً أيها الجسر الصغير. هل أخجل منك؟ أم تخجل مني؟ أيها
القريب كنجوم الشاعر الساذج. أيها البعيد كخطوة المشلول. أي
خَرَجَ هذا؟ انني لا أسامحك. وأنت لا تسامحني.
صوت الأخشاب تحت قدمي.

فيروز تسميه جسر العودة. الأردنيون يسمونه جسر الملك
حسين. السلطة الفلسطينية تسميه معبر الكرامة. عامة الناس
وسائقو الباصات والتكسي يسمونه جسر اللّنبّي. أمي وقبلها جدني
وأبي وامرأة عمي ام طلال يسمونه ببساطة: الجسر.
الآن اجتازه للمرة الأولى منذ ثلاثين صيفاً، صيف 1966 وبعده
مباشرةً ودون إبطاء صيف 1996 .

هنا، على هذه العوارض الخشبية المحرّمة، أخطو وأثرثر
عُمري كله لنفسي. أثرثر عُمري. بلا صوت. وبلا توقّف.
أوقات من الصّور المتحركة تظهر وتختفي بلا نسق مفهوم.

لنلثات لحياة شعناء . ذاكرة ترتطم بجهاتها كالمكوك . صُورَ تتكوّن
وأخرى تُستعاد . تستعصي على المونتاج الذي يمنحها شكلها
النهائي . شكلها هو فوضاها .

طفولة غابرة . وجوه أجاب وأعداء . ها أنا الشخص التادم من
قازات الآخرين ولغاتهم وحدودهم ، الشخص ذو النظارة الطبية
على عينيه والحقيبة الصغيرة على كتفه ، وهذه هي عوارض
الجسر . هذه هي خطواتي عليها . ها أنا أسير نحو أرض القصيدة .
زائر؟ عائداً؟ لاجئاً؟ مواطناً؟ ضيفاً؟ لا أدري !

أهي لحظة سياسية؟ أم عاطفية؟ أم اجتماعية؟ لحظة واقعية؟
سيرالية؟ لحظة جسدية؟ أم ذهنية؟
الخشب يقطع .

ما مضى من العمر يغلله الغبش الذي يكشف ولا يكشف .
يُبدى ولا يُبدي . لماذا أتمنى لو تخلّصتُ من هذه الحقيبة !
ماء النهر تحت الجسر قليل . ماء بلا ماء . كأنه يعتذر عن
وجوده في هذا الحد الفاصل بين تاريخين وعقيدتين ومأسأتين .
المشهد صخري . جيري . عسكري . صحراوي . مؤلم كوجع
الأسنان .

العَلَمُ الأردني هنا بالوان الثورة العربية . بعد أمتار قليلة ، هناك
العَلَمُ الإسرائيلي باللون الأزرق للنيل والفرات وبينهما نجمة داود .
هبة هواء واحدة تحركُهما . بيض صنائِعنا . سودّ وقائِعنا . خُضر
مَربِئنا . . . الشعرُ في البال . لكنّ المشهد نثري كفاتورة الحساب .
عوارض الخشب تطلق تحت قدمي .

هواء حزيران اليوم ، يغلي ويفور كهواء حزيران الأمس . يا
جسراً خشبياً . فجأة تحضر فيروز . على غير المألوف في كثير من
أغانيها ، كلام الأغنية أكثر مباشرة مما يفضل المرء . كيف استقرت
في وجدان المثقفين والحزّائين والطلاب والجنود والصبايا والعمّات

والخالات والثوار؟

هل هو احتياج الناس لإسماعِ صوتهم عبر سماعهم له من أفواه الآخرين؟ هل هو تعلقهم بصوتٍ من خارجهم يقول ما في داخلهم؟ الصامتون يعينون المتكلمين ثواباً عنهم في برلمان خيالي مُحَرَّم عليهم. الناس يتعلقون بالشعر المباشر في أزمنة البطش فقط، أزمنة الخرس الجماعي. أزمنة الحرمان من الفعل والقول. الشعر الذي يهمس ويومئ ويوحى، لا يستطيع أن يتذوقه إلا مواطنٌ حرّ. مواطنٌ بوسعه أن يجهر بما يشاء ولا يُحمّل المهمة لسواه. قلت لنفسي إن مُنظري النقد الأدبيّ عندنا ينسخون النظريات الغربية بأعين نصف مغمضة ويرتدون قبعات الكابوي فوق قمباز العروبة، (إستعارة القبة هذه ممجوجة ومكررة، كيف تُردّ على خاطري الآن؟) هذا أول جندي اسرائيلي يطل بقبعة المتدينين. هذه قبعة واقعية وليست استعارةً بلاغية. بندقية تبدو لي أطول من قامته.

ها هو يتكئ على باب غرفته المنعزلة، المقامة على الجانب الغربي من النهر، حيث تبدأ سلطة دولة إسرائيل. لم أستطع التأكد من مشاعره. وجهه لا ينبئ بما يفكر فيه. نظرت إليه كالناظر الى باب مغلق.

قدماي الآن على الضفة الغربية للنهر. أصبح الجسر ورائي. أقف، للحظة، على التراب. على «اليابسة» (1)

لستُ من بخارة كولومبوس الذين صاح أحدهم وهم على شفا الهلاك: «أرض! أرض! إنها الأرض!». لستُ أرخميدس الذي صاح مذهولاً: «وجدتها! وجدتها!». لستُ جندياً منتصراً يقبل التراب.

لم أقبل التراب.

لم أكن حزينا. وأيضاً لم أبك.

لكن صورته تظهر وتختفي في هذا الخلاء الشاحب. صورة
ابتسامته القادمة من هناك، من قبره الذي وسدته فيه يدي وعانقته
العناق الأخير في عتمته، قبل أن يتزعني المشيعون وأتركه وحيداً
تحت شاهدة كتبنا عليها:

* منيف عبد الرازق البرغوثي 1941 - 1993 *

* * *

سيرت خطوات.

نظرت إلى وجه الجندي:

للحظة، بدا لي أنه يقف وقفة موظف ضجر وملول. لا. إنه
متوتر متحفز. (أم هذه حالتي أنا أسقطها عليه؟) لا. إنها وقفة
روتينية يقفها يومياً وهو يرى آلافاً من الفلسطينيين أمثالي يمرون
بحقائب زياراتهم الصيفية أو يغادرون إلى عمان لقضاء شؤون
حياتهم. لكن وضعي يختلف عن أوضاعهم.

قلت لنفسي: لماذا يظن كل شخص في هذا العالم أن وضعه
بالذات هو وضع «مختلف»؟ هل يريد ابن آدم أن يتميز عن سواه
من بني آدم حتى في الخسران؟

هل هي أنانية الأنا التي لا نستطيع التخلص منها؟ هل يبرر
ذلك أنني أمر من هنا للمرة الأولى منذ ثلاثين سنة؟ المرور على
هذا الجسر ظل متاحاً دائماً للمقيمين تحت الاحتلال، وللمغتربين
الذين يحملون تصاريح الزيارة أو لم الشمل. طوال السنوات
الثلاثين، فشلت في الحصول على أي من التصاريح.

من أين له أن يعرف ذلك؟ ولماذا أريده أن يعرف؟

المرّة السابقة مباشرة، كانت نظارتي الطبية أقل سُمكاً؛ وشعر
رأسي كان أسود تماماً. ذكرياتي كانت أكثر خفة؛ وذاكرتي أكثر
ثقلًا.

المرّة السابقة مباشرة كنتُ وَلَدًا. هذه المرة أنا والد. والدٌ وَلَدٌ هو الآن في مثل عمري عندما مررتُ من هنا لآخر مرّة!

المرّة السابقة مررتُ من هنا مغادراً وطني لأتعلّم في الجامعة البعيدة. الآن تركت ابني ورائي في نفس الجامعة ليتعلّم.

المرّة السابقة لم يكن أحدٌ يجادلني في حقي في رام الله، الآن أتساءل عن دوري في حفظ حقه في رؤيتها. وهل سأخرجه من سجلات اللاجئين والنازحين وهو لم يلجأ ولم ينزح وكل ما فعله أنه وَلَدٌ في الغربة؟

الآن أمّر من غربيّتي إلى.. وطنهم؟ وطني؟ الضفة وغزة؟ الأراضي المحتلة؟ المناطق؟ يهودا والسامرة؟ الحكم الذاتي؟ اسرائيل؟ فلسطين؟

هل في هذا العالم كله بلدٌ واحدٌ يحار الناس في تسميته هكذا؟ في المرّة السابقة كنت واضحاً والأمور كانت واضحة. الآن أنا غامضٌ ملتبسٌ والأمور كلها غامضةٌ ملتبسةٌ.

هذا الجندي ذو القبّة ليس غامضاً على الإطلاق. على الأقلّ بنديته شديدة اللّمعان. بنديته هي تاريخي الشخصي. هي تاريخ غربيّتي. بنديته هي التي أخذت منا أرض القصيدة وتركت لنا قصيدة الأرض. في قبضته تراب. وفي قبضتنا سراب.

لكنه ملتبسٌ من ناحية أخرى،

هل جاء أبواه من ساخسين هاويزن أم من داخاو؟ أم أنه مستوطن جاء حديثاً من بروكلين؟ وسط أوروبا شمال إفريقيا؟ أمريكا اللاتينية؟ هل هو مُنشَقٌ روسيٌّ مهاجر؟ هل ولد هنا ووجد نفسه هنا دون أن يتأمل لماذا هو هنا؟

هل قَتَلَ منا أحداً في حروب دولته أو في انتفاضاتنا المتصلة ضد دولته؟

هل هو مستعد للقتل بتلذذ؟ أم أنه يقوم بواجب العسكري الذي لا مفر منه؟

هل هناك من امتحن إنسانيته الفردية؟ إنسانيته هو بالذات؟ أعلم كل شيء عن لا إنسانية وظيفته. إنه جندي احتلال. وهو في كل الأحوال في وضع مختلف عن وضعي، خصوصاً في هذه اللحظة. هل هو مؤهل للانتباه إلى إنسانيتي؟ إنسانية الفلسطينيين الذين يمرّون تحت ظلّ بندقيته اللامعة كل يوم؟

نحن هنا في بقعة الأرض نفسها، في المكان نفسه، ولكن، لا حقيقة في يده؛ ويقف بين عَلمَينِ إسرائيليين يحركهما الهواء والشرعية الدولية.

- إنتظرُ هنا حتى تحضر السيارة.

قالها باللغة العربية.

- أين تأخذني السيارة؟

- إلى مركز الحدود. الإجراءات كلها هناك.

انتظرت.

في غرفته الضيقة، التي توقعها أكثر نظافة وترتيباً، ملصقات سياحية عن معالم (إسرائيل!) توقفت عيناى طويلاً عند ملصق عن المسادة. تقول أسطورتهم إنهم صمدوا في قلعة «مسادة» حتى أبيدوا جميعاً لكنهم لم يستسلموا. هل هذه هي رسالتهم لنا يعلّقونها على البوابة حتى يذكّرونا بأنهم باقون هنا الى الأبد؟ هل تعمّدوا هذا الاختيار بإيحاءاته أم أنه مجرد ملصقٍ سياحيّ؟
أتأمل الغرفة:

كرسيان قديمان. طاولة مستطيلة. مِرآة زاويتها اليسرى مكسورة. جرائد باللغة العبريّة. مطبخ صغير، وموقد كهربائي مختصر لإعداد الشاي والقهوة. غرفة حراسة عادية. الحارس فيها يحرسُ وطننا... ميّنا

ظَنَنْتُهُ سَيَحَقُّ مَعِي . لَمْ يَتَبَادَلْ مَعِي أَيَّ حَدِيث .

حتى لو حَدَّثَنِي ، أو سألَنِي ، هل كنت سأسمعُه؟ أم كنت سأعير له «أذنا غَيْرَ صاغِيَةٍ» وكيف أسمعُه وأصواتهم تحيط بصمتي منذ جلستُ على هذا الكرسي؟ أولئك الذين رأيتُهم يَدْخُلون من الباب تباعاً ، ليَقِفُوا حولي في هذه الغرفة التي هي جسرُ بين عالمين ، العالم الذي كانت لهم فيه وقفاتٌ ومباهجٌ ومواجه ، والعالم الذي سأراه عمّا قليل .

هل كنت سأصغي له وأصواتُ سكوتهم الأبديّ تنشر رِعَشَتَهَا هنا؟ بالضبط هنا؟ في المكان الذي ماتوا بعيداً عنه أو استشهدوا دونه؟

الموتى لا يطرقون الباب .

تَدْخُلُ جَدَّتِي ، الشاعرة التي أفقدتها الأيام بصرها ، والتي ارتَجَلْتُ أشعارها غناءً أو نحيباً في أعراس البلَد وفي جنازاتها . أسمع تمتمات دعائها في صلاة الفجر ، دعاء لم يرد في شعر الناس ولا في نثرهم . هو صياغتها الخاصة بها وحدها . كنت أرفع طرف اللحاف وأصغي لموسيقى كلامها فأترك سريري وأندس بجوارها عندما تعود للنوم . أطلب منها أن تعيد دعاءها السحريّ . آخذ موسيقاه معي إلى النوم الساخن ، وتلازمني الموسيقى في الصف . ترنّ على صفحات الدفاتر المدرسية وتجعل من بِلادة «جدول الضرب» أول عدوّ عرفته في الطفولة .

يأتي أبي ، من شاهدة خَلَفْتُها ورائي في «بيادر وادي السير» . يأتي بحنانه الصامت ، بعينه الضيقتين ، وهدوئه الموجوع من الدنيا والراضي بها في الوقت نفسه .

يدخل منيف الذي بَدَّدَهُ الموت ، كسروا جَمالَ قلبه وجَمال نواياه ، ضربوا إلى الأبد أحلامه في رؤية رام الله ولو لأيام .

يدخل غسان كنفاني بصوته الذي كان لا بدّ لدويّ يهز الحازمية

كلّها أن يواريه . هل كنت سأصغي لهذا الحارس النّيتّ العُمر،
وغسّان يغرس حقنةً الأنسولين في ذراعه، ويدبّر ابتسامة ترحيب
أخرى برضوى وبّي في مكتبه؟ وحدها الملصقات التي تغطّي
الجدار خلف كتفيه كانت تبرق وترعد، وتؤدّبُ السكون بالضجّة .

ملصقات ذلك الزمان الذي لم يعد يشبه هذا الزمان: النجمة
على قبعة جيفارا، «من أجلها» . الأسئلة على جبين لينين، «من
أجلها» . تطريزٌ بقلمه وريشته «لاسمها» السليب . حصانٌ بلا إطارٍ
لكنه في إطار . صُورٌ لقادة التحرّر في آسيا وإفريقيا وأمريكا
اللاتينية، شعاراتٌ وصورٌ وكتابات، ظنّناها ستقوده إليها .

أنساءلُ، هل ازداد غسان الآن قريباً إلى عكا أم ازداد ابتعاداً؟

أقارن بين الملصقات في غرفة هذا الجندي المراهق، وتلك
الملصقات في مكتب غسان في بيروت . عالمان متناقضان: في
عالم غسان متّسعٌ لأشعار نيرودا، ومقتطفات أميلكار كابخال،
وبيرييه لينين وبصيرة فرانز فانون والألوان الشخصية التي يحاول بها
الروائي أن يرسم الحلم، بالكحليّ والمشمسيّ والبرتقالي وبما
يقترحه قوس قزح واسع على سماء ضيقة كابية تنذر بالخسران
والويل . أمّا هنا؟ أنظُرُ إلى الجدران وإلى الصور . إنها مناظر من
بلادي . لكن سياقها ومعنى وجودها في هذا المكان على بوابة
الحدود المحرّمة كان عدوائياً . أتذكر الصورة الكبيرة الحجم التي
أهداها لي ناجي العلي .

دعاني ورضوى الى العشاء في مطعم ميامي على شاطئ البحر
في بيروت . في نهاية السهرة اتجه الى سيارته وأخرجها:

- هاي اللي نزلت مع قصيدتك في «السفير» . رسمتها مرّة ثانية
بحجم كبير . لك ولرضوى ولتميم .

ثم انطلق بسيارته الى بيته في صيدا . وعدنا رضوى وأنا إلى
فندق البوريفاج .

وجهُ تلك الطفلة يملأ مركز اللوحة، بينما تمتد جديلتها في
خطّين مستقيمين إلى اليمين واليسار. وحول ناجي الجديلتين إلى
أسلاك شائكة، تلامس طَرَفَي اللوحة، ذات الخلفية السوداء،
جداً.

يدخل ناجي العلي قادماً من موته القديم، من موته الطازج.
هذه ضحكة عينيه وهذا قوامه النحيل. أصغي الى صرختي
التي، فجأة، انفلتت من صدري وأنا أقف أمام قبره في ضاحية من
ضواحي لندن. همستُ وأنا أنظر إلى قوس التراب بكلمة واحدة
هي:

- لا!

قلتها متممةً.

قلتها إلى الداخل. لنفسي. لم يكبد يسمعها أحد، حتى أسامة،
ذو السنوات التسع الذي كنت أقف خلفه وأحيط كتفيه بذراعيّ،
ونحذق معاً في قبر أبيه. لكنني لم أستطع أن أسترّد السكوت بعد
ذلك.

تلك الـ (لا) رفضت أن تنتهي.

كبرّت.

ارتفعت.

إنني أصرخ صرخةً متصلة. ممتدة.

أعجز عن استردادها من الهواء، كأنها عُلِقَتْ هناك، في ذلك
الرداذ الذي كان يبللنا معاً، أنا وأسامة وجودي وليالٍ وخالد
ووداد. كأنها تنوي أن تظل معلقةً بالسمااء الى يوم القيامة. تلك
السمااء البعيدة، تلك السمااء التي لم تكن بيضاء ولم تكن زرقاء
ولم تكن تخضناً ولم تكن تعرفنا ولم... تكن...!

سمعت شقيق وداد يقول لي محاولاً تهدئتي وهو يحتضن
كتفي:

- من شان الله يا مريد . إهدأ يا خوي . إهدأ . من شان نقدر
نظل واقفين على رجلينا .

وجدتني أسترده نفسي من الصرخة التي تحولت الى ما يشبه
الإغماء . أغلقت فمي بيدي وبعد قليل وجدتني أقول له بصوت
متهدج وضعيف :

- هوّ اللي واقف . مش إحنا !

عدنا من قبره الى بيته في ويمبلدون .

أصرت عائلته على أن تقدّم لي غرفته لأقيم فيها ! كنت أنام بين
لوحاته المتروكة ومسوداته الناقصة . أرى في كل لحظة كرسيه
ومكتبه المرفوعين على منصة خشبية مستطيلة هيأها بنفسه ليرفع
حافة المكتب بحيث تلامس حافة النافذة المطلة على السماء
والعشب . النافذة بلا ستائر . الزجاج في مواجهة العالم مباشرة .
قالت وداد إنها وضعت لها ستارة في البداية لكن ناجي انتزعها لأنه
«بيحب الفضاء» وبيحب ان «البرداية خنقة» . ففرت عتمة قبره إلى
أذني وأنا أسمعها تصف شغفه بالفضاء .

في غرفته تلك ، قضيت مع العائلة أسبوعاً . على مكتبه
الصغير ، على أوراقه البيضاء ، وبأحد أقلامه كتبت شيئاً عنه ، عن
حياته ورسومه وموته . قصيدة أسميتها «أكَلُ الذئب» وهو اسم
واحدة من لوحاته الشهيرة جداً . ألقيتها بعد ذلك في حفل افتتاح
معرض لرسوماته ، نظّمه أصدقاؤه في إحدى قاعات لندن ، بإشراف
مباشر من الفنان العراقي ضياء العزاوي .

وعلى باب القاعة فوجئت بالمشهد الذي لا يُنسى :

اصطف ثلاثة شبّان لاستقبال الجمهور القادم للمشاركة في
حفل التأبين ومشاهدة المعرض :

«خالد» ابن الشهيد ناجي العلي ،

و«فايز». ابن الشهيد غسان كنفاني.

و«هاني». ابن الشهيد وديع حدّاد.

شباب زي الورد! كان حلقي جافاً وأنا أعانقهم على مدخل القاعة. أية جنازات أنجبت هذه الأكتاف العالية والعيون الشديدة الانتباه؟ أية أنفاسٍ خرجت منها طفولتهم إلى رجولتها بلا إذن من القَتْلَة؟

قدّم لي خالد رفيقه. سألتهما عن أحوالهما.

أردتُ أن أسمع الصوت أيضاً والنبرة واللهجة.

بدا لي مشهدهم في تلك الليلة وكأنه مشهدٌ في خيالٍ روائي لا في الحياة اليومية المعتادة. قلت لنفسي وأنا أتوقف أمام اجتماعهم صفّاً مستعدّاً لاستقبال الناس عند الباب: في تقاليدنا المتوارثة، كان الذين يقفون هذه الوقفة لاستقبال المعزّين أو المهنئين هم وجهاء العائلات ووجهاء الفصائل (للفصائل وجهاءها أيضاً). هؤلاء الشباب يقدّمون اليوم معناهم الجديد، الرائع والطازج، «للوجهة». تلك المفردة التي، قبلهم، لم أكن أطيعها.

عدت بعدها إلى بودابست وأنا أرتجف من «شكل إيماننا القادمة»، تاركاً تحت التراب البريطانيّ البعيد واحداً من أشجع الفنانين الذين أنجبتهم فلسطين في تاريخها كله.



طافت وجوههم حولي، كأنها أيقونات «أندريه روبلييف» تومض في عتمة المعابد النائية في القرن الثالث عشر. ولم تكن غرفة الحارس المُسلّح معتمة، ولا كان العراء خارج غرفته معتماً. لم أرَ ظهيرةً قاتئةً كهذه! أم هي بداياتُ حُمى تصيبني خلسةً وتسلباً؟ جاء أبو سلمى وجاء مُعين وجاء كمال، وجاء شُعر قلوبهم التي كانت أكبر من أوراقهم. جاء منيف وناجي ثانية وثالثة وعاد التوجس يملأ الغرفة. الوجوه والخيالات والأصوات تبين ولا

تبين. أنظرُ الى النظرة. أنادي على الصوت. معكم تماماً. وحدي تماماً. لتغفر لي عمتكُم هذا النهارَ الخصوصيَ أيها الأصدقاء!

* * *

أكلَ هذا التشوُّش لي؟ أكلَ هذا الحضور والغياب للغائب؟ أكلَ هذا الضجر المحاط بأملاح البحر الميت؟
أنا متعوّد على الانتظار. لم أدخل بسهولة إلى أي بلد عربي.
وفي هذه الظهيرة لن أدخل بسهولة أيضاً.
جاءت السيارة.
اتجهتُ نحوها ببطء.

سائق طويل القامة، أبيض الوجه، يرتدي قميصاً مفتوح العُرى، بدا لي أنه قال شيئاً ما باللغة العربية. لم يتحدث كثيراً.
ولاً لتأكدتُ إن كان عربياً أو يهودياً. ابتدأت الأمور تختلط. كنا نقرأ عن العمال العرب في إسرائيل. هل هو «عامل عربي في إسرائيل؟» هل هو يهودي يعرف العربية؟ ملامح الوجه وحدها لا تكفي للتمييز بيننا وبينهم.

لم تدم تساؤلاتي طويلاً. وصلنا الى مركز الحدود.
أخذ أجرته بالدينار الأردني.
دخلت الى صالة واسعة، تُذكر بصالات المطارات. هنا رأيت الشرطة الفلسطينية والشرطة الإسرائيلية.
صفٌّ من الشبابيك الخاصة بمعاملات الذاهبين إلى الضفة، وإلى غزة.
خَلَقَ كثير.

دخلتُ الى الصالة التي تفضي الى باب إلكتروني ضيق. أفراد الشرطة الإسرائيلية طلبوا مني أن أضع كل ما هو معدني، كالساعة والمفاتيح وبعض القطع النقدية، في طبق من البلاستيك.

عبرت البوابة، وجَدْتُني مباشرةً أمام ضابطٍ إسرائيليٍّ مُسلَّحٍ.
استوقفني، طلب أوراقِي. أخذ يَقلِّبُها ثم أعادها لي.
في محاولةٍ مِنِّي لمعالجةِ توترِي، قررت أن أكون البادئ
بالسؤال:

- أين أذهب الآن؟

- إلى الضابط الفلسطيني طبعاً.

وأشار إلى غرفةٍ قريبة.

الضابط الفلسطيني يأخذ أوراقِي يَقلِّبُها بين يديه ثم يعطيها
لنفس الضابط الإسرائيلي الذي يتعمَّد الإبتسام. ويطلب مِنِّي
الإنظار.

سألته أين؟

- عند الضابط الفلسطيني طبعاً.

جلستُ في غرفةِ الإرتباط. الضابط الفلسطيني يظهر قليلاً
ويختفي قليلاً وفي الحالين لم يشغل بوجدِي.
كنت شارد الذهن. الضابطُ جلس وراء طاولته صامتاً تماماً.
كنا اثنين في الغرفة. وكان كلُّ منَّا وحيداً.

في هذه الغرفة وجدتني أنسحب إلى هناك، إلى تلك البقعة
المتوارية في كل شخص، بقعة الصمت والانطواء. فراغ غامق
اللون يخصُّ المرء ولا يعني أحداً غيره، ألُوذ به عندما يصبح
الخارج عبثاً أو غير مفهوم. كأنَّ هناك ستارةً سَريَّةً تحت تصرُّفي،
أشدُّها عند الحاجة، فأحجب العالم الخارجي عن عالمي، أشدُّها
بسرعة وبشكل تلقائي عندما تستعصي ملاحظاتي وأفكاري على
الإنكشاف بكامل وضوحها، عندما يكون حَجبُها هو الطريقة
الوحيدة لصيانتها.

لم أنشغل بشيء هنا ولم أنشغل بأحد.

دخلت تلك المساحة الفارغة التي لا يكون الكلام مع الآخرين جزءاً منها. لم أشغل نفسي طويلاً بالوضع المحير للرجل. من الواضح أن الإتفاقيات وضعته في موقف لا يستطيع معه أن يقرر شيئاً هنا. كل الإجراءات الأمنية والجمركية والإدارية من اختصاصهم هم، من اختصاص «الجانب الآخر».

بعد ساعة تقريباً، ظهر منهم ضابط غير الضابط الأول. اصطحبني إلى غرفة فيها رجلٌ بملابس مدنية، أمامه نموذج مطبوع وأسئلته ذات طابع إحصائي. لم يسأل أي سؤال سياسي. إنه يفتح لي ملفاً.

- إذهب الآن للتعرف على حقيقتك.

انتظار آخر لوصول الحقيقة على الحزام المتحرك.

قاعة مزدحمة بمباري الجسر الذين ينتظرون حقائبهم مثلي، وعلى يمين القاعة غرفة خاصة بتفتيش ما يقررون تفتيشه منها. صناديق كرتونية، أجهزة منزلية، تلفزيونات وثلاجات، مراوح، أغطية صوفية، لفائف وحشيات وحقائب من كل الأشكال والأحجام. عندما أسافر الى أي مكان أحمل معي أخف وأصغر حقيبة ممكنة. لا أحب ما تفعله الحقائب بالمسافر. وأكره اضطراري لفتحها وعرض محتوياتها على موظف يبحث عما لا أعرف!

إسرائيليون وإسرائيليات يرتدون قفازات النايلون ويتفحصون محتويات ما تكتظ به الغرفة؛ أصحاب الحاجيات ينتظرون الإفراج عنها.

مجندة إسرائيلية شقراء تضاهي بكسل روتيني أرقام الحقائب على الكمبيوتر بالرقم الملصق على جواز السفر. قدمت لها جواز سفر، لافتاً نظرها الى أن ما لدي هو حقيبة يد واحدة فقط، واني أراها بالفعل بين الحقائب الجاهزة في وسط القاعة. رغم ذلك

طلبتُ مني الانتظار .

بعد وقت قصير أشارت لي بالدخول إلى قاعة الحقائق .
ألتقطُ حقيبتَي الصغيرة . أعبر البوابة الضخمة .
أغادرُ المبنى كله إلى الشارع . . .

بوابة الأبواب

لا مفتاح في يدنا . ولكننا دَخَلنا
لاجئينَ إلى ولاديتنا من الموتِ الغريبِ
ولاجئينَ إلى منازلنا التي كانت منازلنا وجِئنا
في مباحِجنا خُدوشُ
لا يراها الدمعُ إلا وهو يوشِكُ أن يهyla .

مشيت خطوتين ثم توقفت .

ها أنا أقف بقدميَ على التراب . منيف لم يصل الى هذه
النقطة . برودة تسري في عمودي الفقري . الشعور بالراحة ليس
كاملاً . الشعور بالأسى ليس كاملاً .

فَتِيحت لنا بوابة المنفى من الجهة العجيبة ! من الجهة التي
تفضي الى «البلد» وليس إلى «البلاد» . . . بلاد الآخرين .
أقف بقدميَ على تراب الأرض . على «أرض» الأرض .
بلادِي تحملي .

فلسطين في هذه اللحظة ليست الخريطة الذهبية المعلقة
بسلسال ذهبي يزين أعناق النساء في المنافي . كنت أتساءل كلما
رأيت الخريطة تحيط بأعناقهن عما إذا كانت المواطنة الكندية أو
النرويجية أو الصينية تعلق خريطة بلدها على نحرها كما تفعل
نساؤنا !

قلت مرةً لصديق :

- عندما تختفي فلسطين كسلسال على ثوب السهرة، كحليّة،
أو كذكرى أو كمصحف ذهبي، أي عندما نمشي بأحذيتنا على
ترابها، ونسمح غبارها عن ياقات قمصاننا وعن خُطانا المستعجلة
الى قضاء شؤوننا اليومية العابرة، العادية، المضجرة، عندما نتذمر
من حرّها ومن برّدها ومن رتابة البقاء فيها طويلاً، عندئذ نكون قد
اقتربنا منها حقّاً.

ها هي الآن أمامك أيها المسافر اليها. أنظر جيّداً.

* * *

على الرصيف المقابل للمبنى، ألتقي بأول فلسطيني يمارس
صلاحيات واضحة ومفهومة: رجلٌ نحيلٌ متقدم في السن يجلس
وراء طاولة صغيرة، نصّبها في ظل الحائط ليتقي قيط حزينان،
ينادي عليّ بصوت مرتفع:

- تعال هون يا أخ. خذ تذكرة للباص.

ليس هناك ما هو موحش للمرء أكثر من أن ينادى عليه بهذا
النداء، «يا أخ».

(يا أخ) هي، بالتحديد، العبارة التي تُلفي الأخوة!
تأملته لحظة.

دفعْتُ له ثمنَ التذكرة بالعملة الأردنية. ابتعدتُ خطوتين أو
ثلاث ثم توقفتُ. التفتُ اليه مرة أخرى. ركضتُ الى الباص. لا.
لم أركض بالضبط. كنت أمشي مشيةً عاديةً جداً. شيءٌ بداخلي كان
يَزْكُض.

جلستُ في الباص إلى أن امتلأ بأمثالي من عابري الجسر.
سألتُ السائق الى أين نذهب الآن؟

- الى استراحة أريحا.

ها أنا أدخل الى فلسطين أخيراً. لكنّ، ما هذه الأعلام
الإسرائيلية؟

أَنْظُرُ من نافذة الباص فأرى أعلامهم تبدو وتختفي على نقاط
الحراسة المتكررة. بعد كل بضعة أمتار، تظهر أعلامهم!
شعور بالإنقباض لا أريد أن أعترف به. شعور بالأمان يرفض
أن يكتمل.

عيناي لا تفارقان النافذة. وصورُ لأزمنةٍ مَضَتْ وانقضت لا
تفارق عيني.

في هذا الباص البطيء، أستعيدها كاملة كأنني كنت فيها أمس،
صالاة الإفطار في فندق الكارافان، الذي التّم فيه شملنا كأسرة لأول
مرة بعد الـ 67 .

كان ذلك في صيف العام التالي للحرب، صيف 1968 . كنت
أعمل في الكويت. والدة والصغير علاء في رام الله. الوالد في
عمّان ومجيد في الجامعة الأردنية، ومنيف يعمل في قطر.

عبر كافة وسائل الإتصال المتاحة في تلك الأيام، اتفقنا أن
نلتقي جميعا في عمّان. وصلنا تباعا الى فندق «الكارافان» في جبل
اللوييدة وهو فندق صغير وأنيق من ثلاثة أو أربعة طوابق.

كان ذلك أول لقاء بأمي وأبي واخوتي منذ فترتنا الحرب. نزلنا
في ثلاث غرف متجاورة. الفنادق ترتبط بالنوم. لم ننم. كان
الصباح يفاجئنا كأنه ليس متفقاً عليه في النظام الشمسي. كأنه يظهر
ويختفي بلا منطق وعلى غير توقّع من أحد.

لم أذق إفطاراً كإفطارات ذلك الصيف.

مثيرٌ أن تبدأ نهارك مع العائلة كلها بعد مضي كل تلك الشهور
الغريبة. كنا ننظر الى بعضنا كأن الواحد منا يكتشف وجود الآخر
لأول مرة في نفس المكان. كأننا نستعيد في كل يوم أمومة أُمنا
وأبوة أبينا، وأخوة الأخوة وبنوة الأبناء. الغريب أن أحداً منا لم
يفصح عن تلك المشاعر باللغة المنطوقة. كان قَرَحُنَا بوجودنا معاً
في هذا الفندق معلقاً في الهواء المحيط بنا. نشعر به ولا نريد أن

نفضحه. كأنه سر من الأسرار. وكان المطلوب منا جميعاً أن نكتمه.

الفندق بحذ ذاته، فكرة الفندق بحذ ذاتها، كانت تحمل معها اليقين بأن اللقاء عابر، مؤقت، ويوشك على الإنتهاء. منذ الليلة الأولى تحوّل اللقاء الى ذعر من الانفصال الأكيد. بدأ التوتر يختلط بالبهجة. لم نكن نتفق هل نطلب السلّطة بزيت الزيتون أم بدونه، بالليمون أم بدونه، هذا يريدونها ناعمة، وذاك يريدونها خشنة. الخ. وفي برامج الخروج تجلّى التوتر الأكبر؛ هذا يقترح زيارة لأحد الأقرباء المقيمين في عمّان وذاك لا يريد الخروج أصلاً، وذاك يقترح مكاناً آخر. ولكن الأمر لم يخلُ من فكاهات وقفشات وطرائف يومية أتذكر أجواءها ولا أتذكرها الآن.

في الكارافان جددت التعرف على اخوتي وعلى أمي وأبي. لقد جذّت على الجميع ظروف استثنائية لا أعرفها. وجذّت علي ظروف غيرها. اضطرني خالي عطا بالحاحه الذي لا يُردّ أن أسافر الى الكويت وهناك وجدت عملاً في الكلية الصناعية فلا يعقل ان يواصل منيف الإنفاق عليّ بعد تخرّجي أيضاً. لم أحب مهنة التدريس أبداً. قبلتها كحل مؤقت الى أن تتضح الأمور.

منذ الـ 67 وكل ما نفعله مؤقت و«إلى أن تتضح الأمور». والأمور لم تتضح حتى الآن بعد ثلاثين سنة (!) حتى ما أفعله الآن ليس واضحاً لي. أنا مندفع باتجاهه ولا أحاكم اندفاعي. وهل يكون الإندفاع اندفاعاً إذا حاكمناه!

في نكبة 1948 لجأ اللاجئون الى البلدان المجاورة كترتيب «مؤقت». تركوا طبيخهم على النار آملين العودة بعد ساعات! انتشروا في الخيام ومخيمات الزنك والصفيح والقش «مؤقتاً». حمل الفدائيون السلاح وحاربوا من عمّان «مؤقتاً» ثم من بيروت «مؤقتاً» ثم أقاموا في تونس والشام «مؤقتاً». وضعنا برامج مرحلية

للتحرير «موقتاً» وقالوا لنا إنهم قبلوا اتفاقية أوصلو «موقتاً» الخ الخ .
قال كل من نفسه ولغيره «الى أن تتضح الأمور» .

علاء الصغير يلح على اللحاق بأبيه واخوته . الوالد لا يتيح له
عمله كمسكري في الجيش الأردني أن يذهب الى الضفة بعد
احتلالها الخ .

رغبة الوالدة في التخطيط لحياة الأسرة في ظروف تجعل فكرة
التخطيط فكرة أقرب الى القَبْث . منهمكة في قلب البدائل .

وجهها المرهق اكتسب حيوية مُضافة بفعل الرغبة في تحدي
الصعوبة والتبعثر . عيناها الخضراوان بشكلهما الأقرب الى شكل
المثلث ، تلمعان يقظتهما الدائمة حتى في ذروة النعاس آخر الليل .
الوالد بهدوئه الذي يشعر أن الأمور ستسير في النهاية حتى لو
لم يفعل المرء شيئاً لتسييرها . شيء من صبر حكماء الهند يزيد من
هدوئه الذي يستفز أمني المتسائلة دائماً والباحثة بالأظافر عن
حلول .

عيناه الضيقتان بسوادهما العميق لا تُفصحان عن أحوال قلبه إلا
عندما يضحك . أنا الوحيد الذي ورثت عنه سواد العينين
وضيقهما . منيف ومجيد وعلاء لهم عيون خضراء كعيني أُمي .
منيف الشاب الشديد الوسامة الذي يقوم بدور تربوي لأشقائه
الأصغر وهو لم يتجاوز السابعة والعشرين من عمره . كل عقبة
يتبرع بحلها وكل تضحية يسارع لتقديمها باستعجال ودون تردد .

مجيد الفارع الطول ازداد طولاً . له طريقة في اشتقاق المرح
والفكاهة حتى من المأساة . يرسم وينحت ويكتب الشعر دون رغبة
في نشره (حتى الآن يرفض أن يسعى للنشر مع أن ما يكتبه شديد
التميز) وله قلب شديد الإلتباء .

علاء الصغير الذي يعشق الفلسفة ، يريد تعلم الهندسة ، يكتب
الأغاني باللهجة المحكية ، ويريد أن يتعلم العزف على العود .

وجهه المائل للشقوة وشعره الإفريقي الأكرت، منحاه وسامة خاصة به. حافظ علاء على طفولة ينذر أن يحافظ الرجال على مثلها وبياض شعرهم يخالط سواده.

تبعثر الأسرة علمها الترابط. وفي لحظة اللقاء نصبح نحن الرجال الأربعة أطفالاً أمام الوالدين، حتى بعد أن أصبحنا آباء لأحفادهما.

بعد أسبوعين عاد كل منا الى مكانه.

اتفقنا أن تقيم الوالدة مع أبي ومجيد وعلاء في عمان بعض الوقت، ثم تعود الى رام الله لتجديد تصريحها وهويتها، حتى لا تفقد حقها في الإقامة في فلسطين التي أصبحت بأكملها محتلة.

كان الإحتفاظ بحق المواطنة ولو تحت الإحتلال مكسباً لا ينبغي التفريط به مهما كانت الظروف. وما زالت الوالدة تحمل هويتها وما تزال مواطنة. لكنهم لم يسمحوا لها أبداً أن تحصل لمئيف ولي على «لَم الشمل».

لم نلتق كآسرة كاملة بعد ذلك إلا بعد عشر سنوات في مدينة الدوحة في زيارة لمئيف قبل تركه قَطْر إلى فرنسا.

فوجئتُ بتوقّف الباص كأنه وصل قبل أوانه. الحمّالون يتصايحون تحت نوافذه. تذكرت قِصَر المسافات عموماً بين كل الأماكن في فلسطين.

حملت حقيتي ونزلت.

هذه هي استراحة أريحا.

من هنا يتوزّع القادمون الى مختلف مدن البلاد.

هنا ترتفع الأعلام الفلسطينية وخذّها.

سيارات التاكسي تصطفّ تحت الياфطات التي تحمل أسماء

المدن، رام الله، نابلس، جنين، طولكرم، الخليل، غزة
والقدس.

كما في كل المحطات يستقبلك شجارُ السائقين للإستحواذ على
راكب. صراخ. تهديدات. شدّ وجذب. يظهر شرطي فلسطيني
شاب يفضّ النزاع بِحِكْمَةٍ.
تنطلق بي السيارة الى رام الله.

أجلسُ بجوار السائق في سيارة مرسيدس قديمة تحمل سبعة
من الركّاب.

في السيارة، أبدو كشخصٍ أصابه الخرس. أم أنني بالفعل
أهذي عمري وأثرثره دفعة واحدة على مسامع نفسي فأكون منها
كما يكون المصاب بالحُمى، تظنه نائماً أو صامتاً بينما كلّ جَسَدِهِ
جِكايات؟

هؤلاء أهلي لماذا لا أتبادل معهم الحديث؟

كنت أقول لزملائي وزميلاتي المصريين في الجامعة إن فلسطين
خضراء مغطاة بالأشجار والأعشاب والزهور البرية، ما هذه التلال؟
جيرية كالحة وجرداء! هل كنت أكذب على الناس آنذاك؟ أم أن
إسرائيل غيّرت الطريق الذي تسلكه سيارات الجسر وحوّلتُه الى هذا
الطريق الكالح الذي لا أذكر أنني سلكته في سنوات الصبا؟

هل قدّمتُ للغرباء صورة مثالية عن فلسطين بسبب ضياعها؟
قلت لنفسي عندما يأتي تميم الى هنا سيظن أنني وصفتُ له بلاداً
أخرى!

أردت أن أستفسر من السائق عما إذا كان الطريق هكذا على
امتداد السنين، لكنني لم أفعل. شعرت بغصّة غامضة وبنوعٍ من
الخدلان.

هل كنت أصف للناس دير غسانة بتلال الزيتون المحيطة بها

واقنع نفسي أنني أصف كل تضاريس البلاد؟ أم أنني كنت أصف لهم رام الله، المصيف البديع الأخضر متوهماً أن كل بقعة في فلسطين تشبه رام الله تماماً؟

وهل كنت حقاً أعرف الكثير من ملامح الأرض الفلسطينية؟ السيارة تواصل طريقها وأنا أواصل النظر من نافذتها على يميني وعلى يسار السائق. ما هذا العَلَمُ الإسرائيلي؟ ألم ندخل «مناطقنا» منذ فترة؟ هذه هي المستوطنات إذاً!

أن يتحدث المتحدثون عن المستوطنات شيء، وأن تراها بعينيك شيء آخر.

كل الإحصائيات سخيصة بلا معنى. الندوات والخُطَب والإقتراحات والإستنكارات والذرائع وخرائط التفاوض وحجج المفاوضين، وكل ما سمعناه وقرأناه عن المستوطنات، لا يساوي شيئاً أمام مشاهدتها بعينيك.

أبنية متدرّجة من الحجر الأبيض متلاصقة ومتكاثفة. تصطف خلف بعضها في سطور منسّقة، راسخة في أماكنها. بعضها عمائر وبعضها بيوت يغطي سقفها القرميد. هذا هو البادي للعين الناضرة من بعيد.

ما هو شكل حياتهم من الداخل يا ترى؟

من يكون سكان هذه المستوطنة؟ من أين أتوا قبل أن يؤنى بهم الى هنا؟ هل يلعب أطفالهم الكرة وراء هذه الأسوار؟ وهل رجالهم ونساؤهم يمارسون الحب خلف هذه النوافذ؟ هل يفعلون ذلك والمسدسات على جنوبهم؟ والرشاشات هل يعلقونها معبأة وجاهزة على جدار غرفة النوم؟

على التلفزيون لا نشاهدهم إلا مسلحين.

هل يخافون منا حقاً أم نحن الذين نخاف؟

إذا سمعتَ من خطيبٍ على منبر كلمة «تفكيك المستوطنات» فاضحك وضحكك كما تشتهي. إنها ليست قِلاعاً من الليجو أو الميكانو التي يلهو بها الأطفال. إنها إسرائيل ذاتها. إنها إسرائيل الفكرة والأيدولوجيا والجغرافيا والحيلة والذريعة. إنها المكان الذي لنا وقد جعلوه لهُم. المستوطنات هي كِتَابُهُم. شَكْلُهُم الأول. هي الميعاد اليهودي على هذه الأرض. هي غيابنا. المستوطنات هي التيه الفلسطيني ذاته.

قلت لنفسي إنَّ مُفَاوِضي أو سَلَو كانوا يجهلون المعنى الحقيقي لهذه المستوطنات وإلا لما وقَّعوا الإتفاقية!

تنظرُ من نافذة السيارة يمينا فتفاجأ بأنَّ الشارعَ النحيل المتآكل الذي يحملك، يصبح أكثر اتساعاً ونعومةً وأناقة. اسفلتُهُ يزداد بريقاً، وسرعان ما ينفصل عن الطريق، صاعداً الى تلَّةٍ فاخرة المباني، فتدرك أنه يُقْضِي إلى مستوطنة.

تنظر إلى يسارك بعد قليل، فترى مستوطنة ثانيةً وشارعاً أنيقاً عريضاً آخر يؤدِّي إليها. ثم ترى الثالثة والرابعة والعاشره وهكذا. الأعلام الإسرائيلية ترتفع على مداخلها. وتلاحظ أن الكتابة على إشارات المرور باللغة العبرية فقط.

مَنْ أقامَ كُلَّ هذا الهول؟ مَن بناه؟

عندما اجتزَّت الجسر كان زعيمُ «الليكود» بنيامين نتنياهو بانتظار النتائج النهائية لتأكيد فوزه في الإنتخابات. إنه «حزب العمل» اذاً. انه شمعون بيريز الذي صَوَّرَهُ الإعلام العربي لرجالنا وكأنه صلاح الدين الأيوبي، ولنسائنا كأنه عُمَر الشريف ولجامعة الدول العربية كأنه مِن بَنِي قُحْطَان!

منذ بن جوريون وحزب العمل يبني على أرضنا هذه المستوطنات. بُلْهَاءُ الليكود يثيرون لغطاً وضجيجاً عالياً حول سياستهم في الإستيطان، وحول كل مستوطنةٍ جديدةٍ يبنونها. لكنَّ

دُهاة حزب العمل يذكرونني بتلك الحيلة الخبيثة التي قرأتها في أيام الطفولة، عن اللص الذي سرق سيارة.

في اليوم التالي أعادها لأصحابها وترك لهم بداخلها رسالة اعتذار رقيقة، يقول فيها إنه لم يقصد سرقة السيارة، بل كل ما حدث، أنه احتاجها لليلة واحدة فقط، للخروج مع حبيبته؛ إنه يعيد السيارة الآن، ويدخلها بطاقتان للدخول الى المسرح، يقدمهما هدية لصاحب السيارة وزوجته، تأكيداً لاعتذاره وحسن نواياه.

ابتسم الزوجان وأعجبا برقة اللص العاشق وظرفه.

في المساء ذهبوا بالفعل الى المسرح.

عادا في وقت متأخر من الليل طبعاً ليكتشفا أن اللص الرائع قد سرق أثناء غيابهما كل ما هو ثمين في منزلهما وهَرَبَ! قد يخنقك مجرم بشال من التحرير وقد يهشم رأسك بفأس من الحديد. وسيضمن مصرعك في الحاليتين.

التطابق ليس تاماً بالطبع بين حكاية حزب العمل وحكاية ذلك اللص. لكن ثنائية الدهاة والغباء، تمتزج في المشروع الصهيوني منذ بداياته. وهناك باستمرار، في اسرائيل، رموزٌ تُمثل طرفي المعادلة الواحدة.

ومهما حدث هم يستفيدون في الحاليتين. يستفيدون من التدبر الناعم، ويستفيدون من البلطجة أيضاً.

المعتدلون يتعلمون لغة الحديد من المتطرفين في فترة من الفترات. والمتطرفون سيتعلمون لغة التحرير من المعتدلين إذا اقتضى الأمر. ونحن، أصحاب المنزل، نخسر في كل الأحوال، ونخسر على كل الوجوه.

كيف تركناهم يقيمون كل هذه المدن؟ القلاع؟ الثكنات؟ سنة بعد سنة؟

قال لي بشير البرغوثي قبل عدة سنوات إنه من شرفة بيته في دير غسانة كان يرى أضواء المستوطنات تتزايد سنة بعد سنة حتى باتت تحيط بدير غسانة على شكل دائرة؛ وانهم بالتدريج وفي ظل صمتنا الطويل انتشروا في كل مكان.

نسيج السجادة هو المستوطنات. عليها بعض النقوش متناثرة هنا وهناك هي كل «ما تبقى لنا» من فلسطين. وفي الترتيبات التفاوضية الأخيرة خرجوا من منازلنا لكنهم يواصلون احتلال الطرقات المؤدية إليها. ولهم الحق في إيقافك على الحواجز الأمنية الكثيرة وعلبك الإنصباع.

أما القدس فلم يُسَمَّح لي أن أراها بالعين أو أن أدخلها. لا ماشياً ولا راكباً ولا طائراً بجناحين. حتى الطريق إلى رام الله الذي كان يمر من القدس غيروه غَيَّرَ شوارع التفافية معقدة حتى لا نراها من زجاج السيارة!

فقط برفقة قيادي فلسطيني من الذين يحملون بطاقة «شخص مهم جداً» يمكنك الذهاب إلى القدس. (والشخص المهم جداً بالنسبة للإسرائيليين لن يأخذك لرؤية القدس إلا إذا كنت أنت شخصاً مهماً بالنسبة له هو!). لم أجد من يصطحبني إلى القدس.

عندما وصلنا «دوار الشُرْفَة» سألت السائق إن كان يعرف بيت الدكتور حلمي المهتدي. فقال على الفور:

- ولكنه مات منذ سنين!

- أعرف.

(لم أكن أعرف. لكن «أبو حازم» وصف لي بيته بأنه مقابل بيت الدكتور حلمي المهتدي)

ثم أضفت موضحاً:

- أنا رابع لبيت قريب منه.

كان أبو حازم يسكن في عمارة اللفتاوي التي سكناها أيضاً
ولكنه انتقل الى بيت جديد بعد ذلك ورغم الوصف المعتنى به
الذي كان شرحه لي ولمنيف من قبلي لعنوان البيت الا أنني بسبب
تشتت الذهن والتوتر لم أستطع استعادة الوصف، وزاد من صعوبة
الأمر أنني دخلت رام الله بعد حلول الظلام.

قال السائق:

- والله أنا باعرف عيادته على المنارة بس باعرفش البيت.
سألتنني السيدة الجالسة في المقعد الخلفي عن البيت الذي
أقصده بالضبط.

قلت لها:

- بيت مغيرة البرغوثي، أبو حازم.

سألّت عن اسم زوجته.

قلت لها:

- فدوى البرغوثي. تشتغل في «جمعية إنعاش الأسرة».

قالت إنها تعرفها وإنهما عملا معا في الجمعية. لكنها لا تعرف
موقع البيت.

تدخل شخص آخر من المقعد الخلفي وقال للسائق:

- جَرِّبْ ادخل من الشارع القادم الى اليسار وبعدين اسأل في
المنطقة هناك. أعتقد بيت الدكتور قريب من هنا.

انعطف السائق يساراً وقطعنا مسافة قصيرة ثم توقفنا لعل أحد
المارة يدلّنا. كانت الساعة تشير الى الثامنة والنصف ليلاً. ما ان
توقفت السيارة حتى سمعتُ أصواتاً تنادي:

- عمّو مريد عمّو مريد. اطلع احنا هونا

في لمح البصر كانوا حولي.

- وين الوالد؟

قالت فدوى إنه بمجرد رؤيته لسيارة من سيارات الجسر تتوقف

(حقائب الركاب مرصوفة فوقها) ركض الى الهاتف ليطمئن ام
منيف في عمان.

كنت متأكداً أن امي ستقضي اليوم بطوله بجوار الهاتف حتى
تتأكد من وصولي سالماً. ما زالت تجربة إعادتهم لمنيف من
الجسر ما ثلة أمام عينيها. حين ودعتني عند الجسر كان على
وجهها مزيجٌ من ملامح الرجاء واليأس.

وكنت واثقاً أيضاً أن رضوى وتميم في القاهرة ينتظران اتصالي
بهما من رام الله منذ الظهر.

- كلنا على البرندات من الظهر.

وقالت ابنتها عير:

- أبراج مراقبة. بابا وماما في برنדה الطابق الأول وأنا وسام في

الطابق الثاني. الحمد لله على السلامة.

هَجَمَ أبو حازم فاتحاً ذراعيه.

هجم عليّ بشعره الأبيض وذراعيه الأفقيتين. صليّب يركض.

صليّب مبتهجٌ يركض نحوي. التقت أكتافنا في ثلث الشارع تقريباً
باتجاه بيته.

اتصلتُ بامي وعلاء وإلهام في عمان، وبرضوى وتميم في

القاهرة:

- أنا في رام الله.

وفي «برنדה» «أبو حازم» كانت هناك، داخل إطارها الأسود،

معلقة على الجدار، وهي أول ما وقَّعت عليه عيناى: صورة
«منيف».



2

هنا رام الله

الصباح الأول في رام الله. أَسْتَيْقِظُ وأَسَارِعُ بفتح النافذة.
- شو هاليبوت الأنيقة يا «أبو حازم»؟
سألت وأنا أشير بيدي الى «جبل الطويل» المطل على رام الله
والبيرة.

- مستوطنة.

ثم أضاف،

- شاي؟ قهوة؟ الإفطار جاهز.

يا لها من بداية لاستئناف العلاقة بالوطن! ولماذا تداهمني
السياسة هكذا؟ إنَّ في رام الله والبيرة أشياء أخرى غير
المستوطنات!

أنت العائد الى مدينة صباك وشبابك بعد ثلاثين سنة تحاول
على الفور استدراجِ الفَرَحِ الى قلبك كما تُسْتَدْرَجُ الدجاجاتُ الى
صحن الشعير.

ما الذي يجعل فرحك يعتمد على المحاولة لا على التجلّي؟
ألأنك تعرف أنّ هناك شيئاً غير مكتمل في المشهد كله؟ شيئاً

ناقصاً في الوعد، وفي المتحقق من الوعد؟

الأنك مثقل؟

الأنك لم تألف الألفة بعد؟

هل أنت في الرقصة أم في الاعتذار عنها؟

أتعترض على المعزوفة أم على العازفين؟

الفرح تدريب وخبرة. لا بد أن تتخذ الخطوة الأولى. رام الله لن تتخذها. رام الله مكتفية بما هي. مكتفية بما عاشته. القريب منها قريب، والبعيد عنها بعيد. دَقَبَتْ في طُرُقها كما قَدَّر لها أهلها حيناً و كما قَدَّر لها أعداؤها أحياناً. تَعَبَتْ و تحمَلَتْ. هل هي التي تنتظر أن تُلقِي برأسها على كتفك أم أنك تلجأ الآن الى كتفها؟

لقاءً ملتبس. لا نعرف فيه مَنْ مِنَّا يعطي ومن منا يأخذ. كنت تقول ذلك للمرأة. الحب هو ارتباطك الأدوار بين الآخذ والمُعطي. هذا حديث عن الحب. حسنا. ها هي دجاجات الفرح تستجيب للاستدراج التلقائي (هل هناك استدراج تلقائي؟) ها أنت تقول خذوني الى مدرستي. الى شارع الإذاعة. الى دار خالي ابو فخري. الى عمارة اللفتاوي. خذوني الى دار الحاجة ام اسماعيل، الى منازل سكنتها وطُرُق مشيتها. ها أنت تستطيع أن تعود لتمشيها، ذلك ما لم يستطعه «منيف» الراقد الآن في مقبرة في أطراف عمان. موته ليس هو الذي مَنَعَهُ من العودة، بل مَنَعُهُ من العودة هو الذي أماتهُ فيما بعد. قبل ثلاث سنوات أعادوه من الجسر بعد يوم من الإنتظار. كرَّرَ المحاولة بعد بضعة أشهر، فأعادوه للمرة الثانية. لا تزال أمي، بعد مرور ثلاث سنوات على تلك الواقعة، عاجزة عن نسيان لحظاتها الأخيرة معه على الجسر. استمات على الدخول الى فلسطين التي غادرها بحثاً عن الرزق وهو ما يزال في الثامنة عشرة من العمر.

إن كتباً كثيرة يجب أن تُكتب حول دور الشقيق الأكبر في العائلة الفلسطينية، منذ مراهقته يصاب بدور الأخ والأب والأم ررب الأسرة وواهب النصائح والطفل الذي يتلى بإيثار الآخرين رعدم الاستئثار بأي شيء. الطفل الذي يعطي ولا يقتني. الطفل الذي يتفقد رعية تكبره سناً وتصغره سناً فيُتَقَنُ الإنابة.

مرثه المباغت هو الدوي الأعظم في حياة الأسرة كلها. كان وصل الى هذه البوابة الأخيرة لكنها لم تنفتح له أبداً.

ها أنا أخطو على بقعة من التراب لن تصلها قدماء. لكن الجِرة المعلقة في غرفة الإنتظار على الجسر عَكَسَتْ وجهه هو عندما نظرت فيها.

شوارع رام الله، عندما مشيت فيها، شهدت صدره المندفع قليلاً الى الأمام، وخطواته المستعجلة.

منذ قَدَمْتُ أوراقى لسلطات الجسر، ووجهه يلح عليّ.
هذا المشهد مشهده هو. مشهده منيف.

هنا انتظر. هنا خاف. هنا تفاءل واستبشر. هنا حققوا معه.
هنا سمحوا لأمي بالدخول ومنعوه.

هنا كان عليهما أن يفترقا. هي مُكْرَهَةٌ على إكمال رحلتها غرباً الى رام الله، وهو شرقاً الى عمان، ومنها الى منفاه الفرنسي حيث مات بعد ستة أشهر وهو لم يتجاوز الثانية والخمسين عاماً.

هنا صرّخت في وجوه الجنود: أعيدوني معه إذاً.

هنا بكّث على كتفه. ويكى على كتفها.

هنا ودّعته الوداع الأخير.

عندما دخلتُ إلى دير غسانة كانت يده في يدي. سِرْنا جنباً الى جنب نحو «داز رَغْد» بيتنا القديم. وعندما اجتزّت عتبه للمرة الأولى منذ ثلاثين سنة، كانت الرُغْشة التي أصابت جَسْدي دون أن

يلتفت لها أحد، هي ذاتها الرعشة التي غمرتني وأنا أمبط بجثمانه
الى القبر في ذلك اليوم المغمور بالذهول والمطر، في مقبرة تقع
على أطراف عمان.

لم أذهب الى دير غسانة بعد.

إنهم يعدّون لي لقاء مع الأهالي وامسية شعرية، وسيخبرونني
باليوم المناسب.

أنا الآن في رام الله.

دخلتها ليلاً.

كان الطريق اليها طويلاً. منذ 1967 وأنا أمشي. من اول شمس
أمس إلى أول شمس اليوم وأنا أمشي.

ربيعها المعاند، لا يريد أن يُسلم نفسه لصيفها المتردد الخجول
في الموعد المألوف. الربيع يزاحم بكتفيه. بألوانه. بشهقة البرد
واللدى في هوائه. بأخضره الذي، عامداً مُتعمداً، لم يكتمل بعد،
ولم يُصبح غامقاً كما يطالبه الصيف.

فوضى المدن، هدوء البراري، شعارات المنتفضين، رائحة
الصفوف الابتدائية. مذاق الطباشير. صوت الأستاذ أحمد صالح
عبد الحميد وأحمد فرهود والشاطر الذي يميز التميز من النعت من
الحال. وكيف يمكن وصف هذا الحال الذي وصلنا (لم نصل؟)
اليه؟ وكيف يمكن التمييز بين الأيدولوجيات والآراء المتعارضة
والنظريات السياسية من جهة، وهذه التينة الخضراء التي تغطي ثلث
الهضبة التي تُجاورُ بيت «أبو حازم»، من جهة أخرى؟

أطل من هذه النافذة التي تقع على بُعد ثلاثين عاماً من العمر،
وتسعة دواوين من الشعر، وعلى بعد العين عن دمعها تحت
صفصاف المقابر البعيدة.

أطل من النافذة على منعى العُمر الوحيد الذي منَحَتْ لي أُمّي؛

ومسعى الذين غابوا الى أقصى درجات الغياب والى عزاء النفس بـ
«ولا تحسبن». ولماذا في نافذة البهجة تداهمني ذاكرة المراثي؟
إنهم هنا.

هل يطلون معي من النافذة؟

يرون ما أرى، أبتهج لما يبهجهم، أسخر مما يسخرون منه،
أعترض على ما يعترضون عليه؟

هل أستطيع أن أكتب بأقلامهم على ورقهم الشديد البياض ما
يخطر ببالي الآن: ان الشهداء أيضاً جزء من الواقع، وان دم
المتفضضين والفدائيين واقعي؟ ليسوا خيالا كأفلام الكارتون وليسوا
من اختراع والت ديزني ولا من تهويمات المنفلوطي. واذا كان
الأحياء يشيخون فإن الشهداء يزدادون شباباً.

رام الله الشرو والصنوبر، أراجيح المهابط والمصاعد الجبلية،
اخضرارها الذي يتحدث بعشرين لغة من لغات الجمال، مدارسنا
الأولى حيث يرى كل طفل منا ان الأطفال الآخرين أكبر سناً وأكثر
قوة. دار المعلمات. الهاشمية. الفرندز. رام الله الثانوية. نظراتنا
الآتمة على أسراب بنات الإعدادية اللواتي يمرجن سلة الوثوق
باليمنى وسلة الإرتباك باليسرى (يشلفن) عقولنا حين ينظرن الينا
وهن لا ينظرن الينا. مقاهينا الصغيرة. المنارة. قال لي «أبو حازم»
ان المنارة أزيلت من أجل تخطيط المرور في وسط المدينة
واستبدلوا بها الإشارات الضوئية. كتابات الجدران. قل الإنتفاضة
وفولادها الشفاف، آثارها الواضحة كالبصمة الليلية.

بعد كم ثلاثين سنة أخرى سيعود الذين لم يعودوا؟ ما معنى أن
أعود أنا أو غيري من الأفراد؟

عُودتهم هم، عوذة الملايين، هي العودة. موتانا ما زالوا في
مقابر الآخرين، وأحيائنا ما زالوا عالقين على حدود الآخرين.

على الجسر، على هذه الحدود العجيبة التي لا مثيل لها في

القازات الخمس، تُدَاهِمُكَ ذَاكِرَةٌ وَقُوفُكَ عَلَى حُدُودِ الْآخَرِينَ .

ما الجديدُ هنا؟ ما زال الآخرون هم الأسياد على المكان . هم يمنحونك التصريح . هم يدققون أوراقك . هم يفتحون لك الملفات . هم يجعلونك تنتظر . هل أنا متعطشٌ لحدودي الخاصة؟ أنا أكره الحدود . حدود الجسد ، وحدود الكتابة ، وحدود السلوك ، وحدود الدول . هل أريد حقاً حدوداً لفلسطين؟ وهل بالضرورة ستكون حدوداً أفضل؟

ليس الغريب وحده هو الذي يشقى على الحدود الغربية . المواطنون يرون نجوم الظُهر أحياناً على حدود أوطانهم . لا حدودٌ للأسئلة . لا حدودٌ للوطن . الآن أريد له حدوداً وسأكرهها لاحقاً . عجيبةٌ رام الله .

متعددة الثقافات ، متعددة الأوجه . لم تكن مدينة ذكورية ولا متجهمة . دائماً سَبَاقَةٌ إلى اللحاق بكل ترفٍ جديد . فيها شاهدت الدبكة كأنني في دير غسانة . فيها تعلّمتُ التانجو منذ سنوات المراهقة . وفيها تعلّمتُ لعبة البلياردو في صالون «الأنقر» . وفيها بدأت أحاول كتابة الشعر . وفيها نشأ اهتمامي بالفن السينمائي منذ الخمسينات عبر برامج سينما «الوليد» و«دنيا» و«الجميل» . وفيها تعودتُ ، على الإحتفال بالكريسماس ورأس السنة .

لم تُلاجِفْنَا عيونُ فضوليةٍ أبداً ونحن نذهب إلى مقهى وحديقة «رُكْب» شَبَاناً وصبايا لتناول الشوكالامو والبيتش ملبا والميلك شيك والبنانا سبليت في ظلال أشجاره الجميلة وعلى أرضيته المفروشة بالحصى الأبيض .

سَهَرْنَا مع أصدقائنا وأهاليها في منتزه رام الله ومنتزه البيرة ومنتزه نغوم . كنا نتعرّف على ملامح بعض المشاهير الذين يتحلّقون على الموائد الأنيقة في فندق عودة وفندق حرب ، يرتدون

الطرايش ويناقدون القضايا السياسية وهم يمسون بخراطيم
«الأرجيلة». رام الله كانت شديدة النظافة في شوارعها ومطاعمها
ومقاهيها ومتزهاتها وكذلك مدينة البيرة، المدينة التوأمة لرام الله.

وفي رام الله عرفت المظاهرات للمرة الأولى في حياتي.

تظاهرنّا ضد جلف بغداد. وتظاهر أهل القدس و نابلس وباقي
المدن. هزّنا خبر استشهاد الطالبة رجاء أبو عماشة في تلك
المظاهرات ونحن نرتدي الشورت. كنت أعرف ان منيف يخبئ
المنشورات السرية في حذائه لينقلها من مكان إلى مكان دون ان
يشكّ فيه أحد لأنه طفل. وكنا نتابع أخبار القبض على ابن عمنا
بشير ونزور جارتنا في عمارة اللفتاوي ام بشير لنواسيها ونسأل عن
أخباره.

تظاهرنّا من أجل طرد جلوب باشا وتعريب الجيش الأردني،
ورقّصنا طرباً عندما تم ذلك بالفعل نتيجة لتطورات سياسية لاحقة.

تابعنّا صراعات الأحزاب: الشيوعي، والبعث، و«الإخوان
المسلمون» على قدر أفهامنا كمراهقين. تابعنّا الانتخابات التي
جاءت بحكومة سليمان النابلسي. تَلَصُّصُنّا الاستماع الى خطب
جمال عبد الناصر من صوت العرب لأن الاستماع الى صوت
العرب كان يعرّض الشخص للشبهة و ربما المساءلة.

في رام الله طربنا لقرار جمال عبد الناصر تأميم قناة السويس
وتابعنّا أخبار بورسعيد وصمودها. في رام الله رقصنا للوحدة بين
سوريا ومصر وإعلان الجمهورية العربية المتحدة. وفيها بكينا يوم
إعلان الانفصال.

فيها دغدغتنا أحلامُ القوة بصواريخ القاهر والظافر وفيها سمعنا
أول مرة بالقرارات «الإشترابية» الصادرة في مصر وأصبحنا، نحن
طلاب المدارس الصغار، نتساءل عما يمكن أن يعنيه ذلك
المصطلح.

كنا نصحو على صوت «أبو الحباب» بائع الجرائد الذي لم
يغير معطف الجيش لإنجليزي الذي كان يرتديه صيفا أو شتاء،
وذيله الفائض عن قامته يلامس أرض رام الله كلها: «الدفاع»!
«الجهاد»! «فلسطين»! الجرائد الثلاث احتجبت في لاحق
السنوات، أما أبو الحباب فمن بين جميع عمارات المدينة، كان
قدَرُهُ أن يموتَ من شظية قتلته أمام بيتنا نحن في عمارة اللفتاوي.

عشروا على جثته في ذلك الصباح الكابي من حزيران 1967
والجرائد التي ظل يهتف بأسمائها عمراً كاملاً تغطي وجهه وعينه
ومعطفه الطويل.

من أين جاء أبو الحباب؟ أين أهله؟ الكل يعرفه ولا أحد
يعرفه. أبو الحباب أصابته الشظية بعد أن أصابته الغرية في رام
الله، التي لم يغادرها في حياته الى أي مكان آخر. هل هو
المواطن أم الغريب؟ من يشرح لك الفارق بينهما يا بائع الجرائد؟
وَمَنْ قَتَلَكَ يا رجل؟ هل قتلَكَ الشظية أم قَتَلَكَ العنارون؟

وكيف نفسّر اليوم، بعد ان كبرنا وعقلنا، أننا في الضفة الغربية
عاملنا أهلنا معاملة اللاجئين؟ نعم أهلنا الذين طردتهم إسرائيل من
مدنهم وقراهم الساحلية عام 1948 ، أهلنا الذين انتقلوا اضطراراً
من جزء الوطن الى جزئه الثاني وجاءوا للإقامة في مدننا وقرانا
الجبالية أسميناهم لاجئين! وأسميناهم مهاجرين!

من يعتذر لهم؟ من يعتذر لنا؟ من يفسّر لمن هذا الإرتباك
العظيم؟ حتى في قرية صغيرة كدير غسانة، كنا في طفولتنا نسمع
مفردات من نوع «مهاجرين» و «لاجئين»! بل إننا ألقناها وتعودنا
على استعمالها! كيف لم نسأل أنفسنا في ذلك الوقت عن معنى
تلك المفردات! كيف لم ينهرنا الكبار عن استخدامها؟

هل استيقظت.لديّ مرّة أخرى تلك الرغبة في رصد حصّة
الضحية من أخطائها، وعدم الإكتفاء برصد الخلل عند الآخرين،
الغازي أو المستعمر أو الإمبريالية الخ؟

الكوارث لا تسقط على رؤوس الناس كما تسقط الشهب من
السماء على مشهد طبيعيّ خلّاب!

لنا حصّتنا من الأخطاء بالطبع. حصّتنا من قصر النظر. هل
قلت هذا قبل الآن في مكان آخر وزمان آخر؟

أذكر أنني كتبت ذلك أو قلته سابقاً. لماذا أستعيده الآن؟ لا
أدري. ولكنني على يقين من أننا لم نكن دائماً مشهوداً طبيعياً خلّاباً!
رغم أن هذه الحقيقة لا تعفي العدو من جريمته الأصلية التي هي
أول الشرور ومتهامها.

لكنني أعلم أن أسهل نشاط بشريّ هو التحديث في أخطاء
الآخرين. إن الذي يفتش عن أخطائك لن يجد سواها! ولهذا
أتساءل مع كل انتكاسة نواجهها عن أخطائنا نحن أيضاً. عن أخطاء
أغبيتنا. أتساءل إن كنت قادراً على الارتقاء بارتباطي بالوطن،
بحيث يرقى الى أغنيتي عنه. هل الشاعر يعيش في المكان أم في
الوقت؟ وطننا هو شكل أوقاتنا فيه. يبدو أنني شخص سيئ
الطوية. لم أصدق ناظم حكمت إلا قليلاً. لم تكن متاعبي في
المنفى أكثر من متاعب أصدقائي في أوطانهم. ولا أطيق الحنين
بمعناه الذابل.

هل أضيق بفكرة التغني بالفكرة؟ هل هذا هو السبب في أنني
أتعامل مع القصيدة بصفتها بناء لا غناء؟ حتى الصديقة لا أستطيع
أن أخاطبها بالرومانسية الشائعة والمتوقعة، والمرأة التي لا تتخذ
الخطوات الأولى نحوّي لا أهتم بمصادقتها. وكذلك الحال مع
أصدقائي من الرجال أيضاً. من السهل عليّ أن أدير ظهري وأغادر
العلاقة إذا رأيت فيها ما يُرهق. الصديق المرهق كثير المعاتبة، كثير

اللوم، يريد تفسيراً لما لا يُفسّر. يريد أن «يفهم» كل شيء. إذا سامحك على خطأ فهو يُشعرك أنه سامحك على خطأ. على عكس العلاقات الأسرية وعلاقات القربى، نحن نختار الصديق اختياراً. ولذلك فالصدقة المُرهِقَة، في نظري، هي تَبْرُعٌ بِالْحَقِّ.

كما انني لا أندرج بسهولة في أي سياقٍ جماعي. لم أقتنع أبداً بالإنضمام الى أي حزبٍ سياسي الى اليوم. لم ألتحق بأيّ فصيل من فصائل منظمة التحرير الفلسطينية. وربما كان هذا، لشخص فَقَدَ وطنه، رذيلةً لا فضيلة.

ليس هذا فقط.

بل انني قاومت عروضاً واضحة ومبطنّة من تلك الأحزاب والفصائل طوال الوقت. ودفعت أثماناً متفاوتة لعزوفي عن كل تلك العروض.

الطريف في الأمر أنهم يقتربون منك لأنهم يرون فيك جدارة وتميّزاً وأوصافاً تسرهم، ويلمحون أنهم بحاجة إليك وأنهم يريدونك «معهم». تشكرهم على حسن ظنهم بك وعلى كرمهم المتمثل في الإلتباه لشخص ضعيف مثلك. ثم تشرح لهم كيف أنك تفضل التصرف باستقلالية عن التنظيمات والأحزاب. وأنتك تحب أن تظل مخلصاً لما تظنه طبيعتك. وهنا وبشكل فوري مباغت يبدأون في التعامل معك كعدوّ لهم بالتحديد، أو كشخص لا قيمة له ولا يستأهل الإهتمام على الإطلاق.

لي أصدقاء على الصعيد الفردي من كل الإتجاهات السياسية أدركوا انني لا أعرف فكرة «المبايعة». اومن بحقي في «انتخاب» الأشياء، بدءاً من حق انتخاب كيلو البندورة بنفسي عند بائع الخضار الى انتخاب من يحكمني أو يتحدث باسمي. لا أستطيع إقرار كل ما تقرره «القيلة».

معيار السلوك عندي ليس الصحيح والخطأ. وليس الحلال

والحرام. بل الجمال والقبیح. هناك صحیح قبیح لا أمارسُهُ ولا أتبعُهُ حتى لو كان لي كلُّ الحق في ممارسته وأتباعه. وهناك أخطاء جميلة لا أتوزع عن ارتكابها باندفاع ورضی. ولكن،

دائماً للرضی ما يشوب الرضى !

ما الذي قبل أن تستقر بداياته

إنقضى ؟

ما مصدر هذه الغصة الصغيرة في البال، وأنا هنا في داخل الحلم ذاته؟ انني لم «أعد» بالضبط. عُدنا للسياسة إذاً.

هل من الممكن إعفاء الخاسر والمقهور من السياسة؟ هل يمكن إبعاده عنها؟ كيف يقتنع الثُقَداء الفرانكوفونيون والأنجلوساكسونيون العرب بذلك؟ إن أحداً لم يعرف لهم الفن جيداً، ولم يُعرف السياسة جيداً. يتحدثون عن السياسة بصفتها «وقائع»!

كأن أحداً لم يشرح لهم الفرق بين «الوقائع» و«الواقع» الذي يشمل كل عواطف البشر ومواقفهم، ويشمل الزمان المثلث الأضلاع (ماضي اللحظات، حاضرها، مستقبلها). يتحدثون عن السياسة بصفتها قرارات الحكومات والأحزاب والدول. يتحدثون عنها بصفتها نشرة أنباء الساعة الثامنة فقط!

السياسة هي شكل العائلة على مائدة الإفطار. من الحاضر حول المائدة ومن الغائب ولماذا غاب. من يشاق لمن، عندما يسكب القهوة من بكرجها ويوزعها على الفناجين. هل تملك ثمن افطارك مثلاً؟ أين أولادك الذين غابوا الى الأبد عن كراسيهم المعتادة هنا؟ لمن تحن في هذا الصباح؟ أي إيقاع يلاحقك لتسارع الى مباحج وعذتك بها الحياة، أو الى مواجهة تمنى أن تكسبها

ولو هذه المرة فقط؟ أين أولاد هذه الأم التي تنسج بنظارتها المائلة قليلاً كنزة من الصوف الكحلّي، للمسافر الذي لا يكتب بانتظام. أين ثرثرتك الناعمة وأين عُزلتك الرائعة واستغناؤك عن العالم الخارجي ولو لدقائق. أين وهمك الذي فضحّته الجريدة الملقاة على كرسيّ الخيزران الخالي على يسارك. أي غفرانٍ صغيرٍ تتدرب على مَنجِه اليوم؟ وأي عتابٍ تتمنى مَخَوْه؟ من يهدد أخطائك الرائعة بسَهْرِهِ لإفساد يقظتِكَ وسَهْرِكَ؟ مَنْ يُخَرِّبُ لك تفاهاتِكَ اللطيفة بمهابةٍ منصبه ومهابةٍ سائقيهِ ومهابةٍ خَدَمِهِ وخزائمه السُعْداء؟ من استوردَ ملعقةَ الشاي الصغيرةَ اللامعةَ هذه من تايوان؟ أيةُ سُفُنٍ عملاقةٍ مَخَرَّتَ البحارَ لتحمل لك نكاشةَ بابورِ الكاز من ستوكهولم؟ كيف جَمَعَ باعةُ الزهور ملايئِهم وبنوا عماراتِهم الفخمةَ مِن بَيْعِهِم لأطنانِ الباقاتِ التي تحملها الأتومات والشقيقات الى المقابرِ التي لا تتخلى عن رطوبتها، رذاذاً أو زهوراً أو دموعاً؟ تساؤلُك عن السبب في أَنَّ الصمت، حتى الصمتَ على المقابرِ يكون مبلولاً. السياسة هي عدد فناجين القهوة على المائدة. انها نسياناتك التي تباغتكَ بحضورها وذكرياتك التي تخشى التحديق فيها، لكنك تحديق فيها رغم ذلك. البعد عن السياسة أيضاً سياسة. أليس كذلك؟

السياسة لا شيء، نعم. السياسة كل شيء، نعم. أقصد في نفس الوقت.

- لا. بدون سُكَّر يا أبو حازم. القهوة فقط. قد أجوع لاحقاً.

قبل ثلاث سنوات قال لمنيف:

البرندة جاهزة لاستقبالك يا أبو غسان.

كان يحلف بالطلاق انه لن يسمح لمنيف أو لي بالإقامة إلا في بيته اذا حدث واستطعنا زيارة البلاد.

ها هي صورة منيف بإطارها الأسود معلقة في البرندة .
أفكر في غسان وغادة وغدير ، أولاد منيف الذين ما زالوا في
الغربة ، غربة غيابه عنهم ، وغربة غيابهم عن هنا .

هل يتقبلون انتباهي لهم بعده؟

هل هناك مكان في حياتهم لعمّ يكتب الأشعار؟

هل يعرفونني جيداً يا ترى؟ سيقترحون هم «المكان» الذي
يفضلون أن نشغله أنا ومجيد وعلاء وأمي في حياتهم . علمتني
الحياة أنّ علينا أن نُحبّ الناس بالطريقة التي يُحبّون أن نُحبّهم بها .

قلت لهم منذ استطعت قول أي شيء بعد غياب أبيهم :

- اعتبروني قاموساً في بيتكم تتناولونه إذا احتجتم . ولن أثقل
عليكم إلا بمقدار ما يُثقل القاموس على مالكه ، وهو على رف
مكتبته .

سألت فدوى عن موعد ذهابها لعملها قالت إنها في اجازة لمدة
أسبوع . ادركتُ أنها فعَلت ذلك لأجلي وتأثرت من هذه اللمة
الأنيقة والكريمة . لقد قررت التفرغ للإنباه الى وجودي في بيتها
كانت تلك طريقته الصامته للاحتفاء بي .

حاولتُ أن أقنعها بالعودة إلى العمل فوعدت ، ولكن «بعد كام
يوم» . وسارعت بتغيير الموضوع .

- ام خليل فرحت لوصولك وستأتي للسلام الليلة أو غدا .
قلت لها مداعباً :

- هل تدير ام خليل جمعيتكم أحسن من إدارة «ابو عمار»
للمنظمة؟

قالت مبتسمة :

- على سلامتها الخالة ام خليل .

- كيف بتجيب الجرايد يا «أبو حازم»؟ بدنا نشوف «جرايدنا» .
- يعني . مرات فيها شغللات . الواحد لازم يشوفها .
دخل حسام ومعه كعك بالسمسّم ومناقيش الزعتر .
- مريد مش راضي يفطر . غلبني . أقنعه .
حسام سيأخذني الى «وزارة الداخلية» الفلسطينية من أجل
تقديم طلب الهوية . وكذلك التصريح لدخول تميم .
بعد قليل دخل أنيس ومعه لغائف فيها إفطار ثالث ! حُصص
وفول مدّس وكعك بالسمسّم أيضا .
- تشرب الشاي في فنجان أو كاسة يا أبو الأّس؟
قالها أبو حازم موجه الكلام الى أنيس وهو يحاول عبثاً كتم
ضحكته ولكنه ينظر اليّ بخبث من يهدد بكشف سر منسيّ .
انفجرت ضحكتي . تبعثها ضحكته وضحكة فدوى ، مما زاد من
استغراب حسام وأنيس فليس في سؤاله ما يُضحك . لم يشرح أيّ
منا لهما تلك الواقعة الطريفة المختبئة وراء الضحكة .
فقد حدث وأنا في الصف الثالث الإعدادي أن نظمت مدرسة
رام الله الثانوية مسابقة أدبية وفزت بالجائزة الأولى للشعر . رافقني
أبو حازم الى قاعة الحفلات في المدرسة الهاشمية حيث تم توزيع
الجوائز على الفائزين والمتفوقين في شتى المجالات العلمية
والأدبية والرياضية الخ .
كان كل فائز يصعد الى المسرح ويصافح المدير ويستلم جائزته
التي كانت قلم باركر مثلاً أو حقيبة جلدية صغيرة أو بضعة كتب
أدبية أو ساعة يد وما الى ذلك .
نودي على اسمي ، صعدت ، صافحت المدير . لكنه بدلاً من
تسليمي جائزتي أشار الى صندوق كرتوني ضخم على أرضية
المسرح واتجهت اليه ، فإذا به «أبو حازم» ينبثق فجأة من القاعة

ويصعد الى المسرح لمساعدتي في حَمْلِ هذه الداهية غير المتوقَّعة .

كان المطر في الخارج ينهمر بقوة ؛ وأبو حازم ، فخوراً ومُشفِّقاً ، يصرّ على أن يقوم هو بحمل الصندوق طوال الطريق إلى بيتنا في عمارة اللفتاوي .

وصلنا الى البيت والماء ينقُط من ملابسنا وشُرْعنا نتكهّن بما يمكن أن يحتويه الصندوقُ العجيب .

كان طاقما للشاي مكونا من ثمانٍ وأربعين قطعة من الصيني الفاخر بفناجينه وأباريقه وأطباقه الخ . وعليه نقوش يدوية رقيقة .

بعدها زارنا أبو حازم أكثر من مرة ، فنحن نعيش في نفس العمارة ، عمارة اللفتاوي ، وأهلي يقدمون له الشاي في الكاسات الزجاجية المعتادة في كل مرة . الى أن تصادف وجوده عندنا مع زيارة تقوم بها سيدة من قريباتنا وتضطحب معها ابنتيها الشابتين (في سن الزواج طبعاً)

فجأة ، ظَهَرَ الطاقم الفخم . ودارت فناجين الشاي في الصالون . هنا رفض أبو حازم وقال

- احنا يا عمي خَلِينا على قَدِّ الكاسات !

ومضت الدعابة الى أقصاها :

- والله عال ! أنتعه على كتفي والدنيا كَبَّ من عند الرُّب ، وما يطلعش من الخزانة إلا كرمال اللي بيستاهلوه ! احنا إلنا أَلله !

ومن ذلك اليوم أصبح كافيا ان يُقدِّم الشاي في فناجين الجائزة حتى نعرف مكانة الضيف عند أمي !

ومع التبعر الجغرافي المتكرر إثر الحرب ، لم تستطع الوالدة الاحتفاظ بطقم الشاي التاريخي .

* * *

استاذنا من «أبو حازم» وغادرنا أنيس وحسام وأنا الى وزارة الداخلية الفلسطينية لنقدم طلب هوية لم الشمل التي تمنحني حق المواطنة والتي تأخر حصولي عليها ثلاثين سنة!

أكمل أنيس طريقه بسيارته الى عمله في وزارة التخطيط والتعاون الدولي في «الرام»، بين رام الله والقدس، وتركني بصحبة حسام، دليلي إلى كل الأماكن في رام الله.

دخلنا على الشخص المسؤول. ولم أصدق عيني.

إنه «أبو ساجي». الدمث الرائق. الصديق الطيب منذ أيام بيروت. بشوش الوجه، كريم وخدم وجده. تعانقنا كتائهيـن التقيـا بعد يأس، واكتشفا أنهما ما زالا بخير.

- سأقتنع أنهم يُحسِنون عَمَلَهُم ما داموا اختاروك أنت للتعامل مع الناس يا «أبو ساجي».

قلت له صادقاً.

قُدِّمت له الأوراق المطلوبة.

شهادة ميلاد تميم ضرورية للحصول على تصريح له بالدخول الى فلسطين. الشهادة ليست بحوزتي. يجب أن أطلب من رضوى أن تبعثها.

يوم أو يومان ويكون كل شيء جاهزاً.

غادرنا «المركز». وما أدراك ما المركز!

هنا كانت تقف أمي طالما الشمس واقفة في سماء النهار، لتستخرج أية ورقة من الحاكم العسكري الإسرائيلي. تستخرج تصريحاً جديداً في كل مرة لترى أبناءها في الدوحة او القاهرة أو بيروت او باريس او بودابست أو أخاها في الكويت أو تلتقي بالجميع في فندق بعمّان اذا تَمَكَّن الجميع من دخولها.

هنا قُدِّمت لنا طلبات لم الشمل، وطلبات الإذن بالزيارة التي

كانت تُرْفَضُ في كل مرة. هنا موضع المرمرية والشقاء اليومي
لآلاف البشر من الفلسطينيين طوال سنوات احتلال رام الله.
ما زالت مشاكلهم عالقة ومتشعبة وصعبة الحل، لكنهم، الآن،
يجدون ابتسامةً تستقبلهم في المكان الذي شهد محاولات إذلالهم
منذ 1967 . لم تكن الحياة نعيمًا قبل الاحتلال الإسرائيلي.

- كنا نتدبر أمورنا على طريقتنا

يقول لك الجميع. ويضيف الواحد منهم:

- لكن الاحتلال...

ويسكت.

الاحتلال يمنعك من تدبّر أمورك على طريقتك. إنه يتدخل في
الحياة كلّها وفي الموت كلّها. يتدخل في السهر والشوق والغضب
والشهوة والمشى في الطرقات. يتدخل في الذهاب الى الأماكن
ويتدخل في العودة منها. سواء كانت سوق الخضار المجاور أو
مستشفى الطوارئ أو شاطئ البحر أو غرفة النوم أو عاصمة نائية.

أهمّ متعةٍ حدّثني عنها كلّ من التقيتهم هنا هي متعتهم
«الجديدة» في البقاء خارج منازلهم الى وقت متأخر من الليل،
والسهر المبالغ فيه مع الأقارب والأصدقاء.

لكنّ الأمور هنا مؤقتة. الشعور بالأمان مؤقت.

إسرائيل تُخلق أية منطقة تريدها في أي وقت تشاء. تمنع
الدخول والخروج لأيام أو لشهور حتى تزول الأسباب. وهناك
دائماً «أسباب». تنصب الحواجز على الطرقات بين المدن. كلمة
«المحسوم» سمعتها هنا أول مرة. المحسوم هو الحاجز بالعبرية.
الشعور الوليد بالحرية مؤقت. النقاشات ما تزال مستمرة (وستظل
الى بعض الوقت كذلك) في موضوع العائد والمقيم.

نظام العلاقة بين السلطة الجديدة والشعب ما يزال نظاماً شفوياً

في كثير من الوجوه. والى أن توضع كل القوانين لكل المواقف الحياتية في السياسة والاقتصاد والاجتماع وحقوق الإنسان وحقوق الفرد، سيظل جدل العائد والمقيم مستمراً. هذا ما قاله لي أساتذة جامعة بير زيت.

أردت أن يكون لقائي الأول هنا معهم بالذات. أن أقدم احترامي لهم، ومن خلالهم، إلى هذه الجامعة التي إذ عاقبها الإحتلال بكل السبل المتصورة، عاقبته بكل السبل المتاحة. ولم تنكسر. ذهبْتُ لأصفي لا لأنحدث. لأنعلم، وأتذكر، وأقدم تحيتي. لقد زرت هذه الجامعة قبل أن أزور مسقط رأسي، دير غسانة. كنت ألتقي ببعض طلابها وأساتذتها في الغربية لقاءات مصادفة، ولم تتح لي الأيام أن أنقل مدى فرحتي بوجودهم ويمؤلفاتهم وبحوثهم ومفهومهم الإيجابي للعمل المتواصل في الظرف القاسي وتحت الضغط.

كانت ثقافة تانيا ناصر وعزيمة حنا ناصر تلفت انتباهي وتشعرنني بحبٍ لهما وقربٍ منهما ولم أعبر لهما عن ذلك أبداً. كنت ألتقيهما في فترة إغلاق الجامعة المتكرر على يد سلطات الإحتلال. أوفي إجازتهما أو زيارتهما الى عمان.

أعرف بعض متاعب الجامعة ومشاكلها المادية ورغم ذلك أسمع عن أنها بالقليل المتاح من أشكال العون والتبرعات تضيف صروحاً وقاعات وأبنية جديدة وتقوم بتحديث ذاتها.

على هذه التلال الجميلة الآن أبصر بعيني مدرسة بير زيت القديمة وقد أصبحت من الجامعات التي لها مكانتها العلمية المعترف بها.

كان موضوع العائد والمقيم، وملابساته المفهومة أحيانا وغير المفهومة أحيانا أخرى، هو الموضوع الذي استغرق وقتاً أطول في جلسة التعارف مع أساتذة الجامعة. لا بد من مراعاة حساسيات

كثيرة لتجاوز الأخطاء في هذا المجال .

(في إحدى الوزارات رأيت معظم المدراء القادمين من الأيام التونسية أو البيروتية وعندما دخل الساعي بفناجين الشاي والقهوة قدمه أحدهم لى بالقول إنه «من أسود الإنتفاضة الذين دَوَّخوا الإحتلال!»).

في جولتي في الجامعة لمشاهدة حَرَمِها وكَلْبَاتِها ومبانيها الحجرية البيضاء ومُدَرَّجَاتِها وجدُّتني أقف على مدخل كلية العلوم . على المدخل لوحة نحاسية حُفِرَتْ عليها أسماء المتبرعين بتكاليف إنشاء قاعات الدراسة من رجال الأعمال الفلسطينيين في الشتات وبعض رجال الأعمال العرب من دول الخليج . هنا رأيت أسماء عديدة أعرف بعضها وأجهل أكثرها . بين هذه الأسماء رأيت اسمه .

كم منهم سيستطيع الوصول الى هنا ويرى اسمه محفوراً على مربعات النحاس المتجاورة على هذه اللوحة الكبيرة؟ وكم منهم لن يراه أبداً، كمنيف؟

* * *

قبل ثلاث سنوات ، في بيتنا في عَمَّان ، كان وجهُها الطفولي البادي من تحت غطاء رأسها ، واجماً . وعيناها مشته النظر . سلَّمْتُ على والدتي ، عانقتها باكيةً ، ثم جلستُ في حلقة العزاء صامتةً صمت الغريب عن كل الموجودين .

سألْتُها إحدى قريباتنا الجالسة في المقعد المجاور :

- ومن وين عرفت المرحوم يا بتي؟

- أنا ما باعرفه . عمري ما شفته . كنت باعرف اسمه بس . كان يرسل للجامعة مصاريف تعليمي . صرت في السنة الرابعة . السنة تخرّجي . قرأت نعيه في الجريدة اليوم الصبح . عرفت العنوان من الجريدة .

وتكررت الواقعة مع طلاب آخرين بعد ذلك .

تجولت في شوارع رام الله يومياً تقريباً . أردت استعادة تلك الإيقاعات والصور العتيقة للمكان .

أليس طريفاً وغريباً أننا عندما نصل الى مكان جديد يعيش لحظته الجديدة نروح نبحث عن عتيقنا فيه؟ هل للغرباء جديد؟ أم أنهم يدورون في دنياهم بسلام ملاوها ببقع الماضي ، البقع تتساقط لكن اليد لا تسقط سلتها .

تساءلت إن كان المارة في الشوارع يرونني غريباً . هل تلاحظ أعينهم المستعجلة سلّة في يدي؟

كل صديق سمع بوصولي وجاء للسلام اصطحبني الى هذا الجزء أو ذاك من المدينة . كنت أتحدث وكنت أسمع وكنت أسأل . اختلطت في ذهني الوقائع والمشاور والعبارات وقائلها وترتيب حدوثها . كان الإيقاع محموماً كأنني أريد أن أستعيد رام الله بأكملها دفعة واحدة ، إلى حواشي الخمس .

الآن في لحظة الكتابة عن تلك الأيام أتذكر ما أتذكر من كل ذلك بلا ترتيب . الترتيب ليس مهماً .

أنهياً ليوم دير غسانة .

أنهياً للعودة الى بيتنا الأول فيها .

أنهياً لرؤية «دار رعد»

3

دير غسانة

لكل بيت في دير غسانة اسم.

لم يقل لنا أحد من أين جاء اسم دارنا. يبدو أن «رعد» كان أحد أجدادنا الأوائل، لأن البيوت الأخرى في القرية منسوبة لأشخاص. فانت تجد دار صالح ودار الأطرش ودار عبد العزيز ودار السيد الخ. ولا أظن أن تسمية دارنا بـ «دار رعد» كانت استثناء. كما لم يقولوا لنا بحسم من أين اكتسبت عائلتنا التي يعدونها من حيث حجمها أكبر عائلة ريفية في فلسطين إسم «البرغوثي».

المعتزون بالعائلة كانوا يقولون لنا إنه مأخوذ من البرّ والغوث. والمعتزون بالجاء والملكية قالوا ان جدنا الأول كان اسمه غوث، والأراضي الشاسعة التي امتلكها هو وأبناؤه أصبحت تسمى: برّ غوث.

وآل البرغوثي يقيمون في سبع قرى جبلية متجاورة تسمى «قرى بني زيد» ومركزها جميعاً «دير غسانة».

التفسير المعقول يبدو لي الآن أبسط من كل ذلك وأقل رومانسية طبعاً وهو بلا شك لن يرضي «وجهاء» العائلة كما انه لن

يُقنعهم: إنه نسبة الى البرغوث.. شخصيا! وتسمية العائلات بأسماء الحيوانات والطيور والحشرات معروف من قديم الأزمان في كل الحضارات: الفار والقط والجمل والديب والفيل والأسد والنمر الخ.

في أوائل العام 1977 كان الشاعر الراحل أبو سلمى في ضيافتنا على العشاء في منزلنا في القاهرة. كانت رضوى حاملاً. وأخذ يحدثنا عن تجربة استقبال المولود الأول في الأسرة وكم هي مدهشة وفريدة. ثم سألتني عن الاسم الذي سنختاره للمولود. كنت أريد ان أذكر له بالفعل الأسماء التي خطرت ببالنا رضوى وأنا، لكنني قلت له بتحبب صادق:

- شوف يا خال، اقترح لنا أي اسم رقيق وأنيق ولطيف على ذوقك انت. اسم مؤنث واسم مذكر. وأعدك بأن يكون الاسم هو ما تختاره...

أطرقَ يفكر بإخلاص وعناية وأطال التفكير. ثم استدار نحوي وفي عينه شقاوة المُقِيلِ على إدهاشٍ محدثٍ وقال:

- ومن أين سأتيك باسم رقيق وأنيق ولطيف يا سيد مريد إذا كنت ستضع بعده كلمة «البرغوثي»!!!

لكنَّ حظوظي مع هذا الاسم اختلفت من بلد الى بلد. ولم تكن دائما سلبية. عندما عملتُ في اتحاد الشباب العالمي في بودابست، وطبيعة العمل فيه تقتضي كثرة السفر والتنقل بين القارات، كنت أشعر بالسرور عندما تداعبني الصديقات والأصدقاء من الناطقين بالإسبانية والإيطالية بتسميتي «البرجوتيتو».

كنت أقول لنفسي أين أنت يا خال أبو سلمى حتى ترى الاسم الذي لم يعجبك! بل انني حدثت بعضهن بقصة الاسم معه. ولكن بعد اطمئناني لارتياحهن وعدم نفورهن منه، كما يفعل أبناء الضاد الذين يعرفون قواعد الاشتقاق في لغتهم!

في هافانا حيث عقدنا مؤتمرا للاتحاد ذات صيف اصطحبتني «ليلا» وهي صديقة هغارية تتقن خمس لغات من بينها الإسبانية وعاشت طفولتها في هافانا الى مقهى البوديغيتو وهو مقهى شعبي صغير في وسط المدينة يقدم مشروباً اسمه الموهيتو.

- وما هو الموهيتو يا ليلا؟

- انه شراب همنغواي المفضل الذي كان يأتي لتناوله هنا.

- وما هو ذلك الكرسي المعلق من السقف فوق رؤوسنا؟

فوجئت بها تقف وتصلح ياقة قميصها الأحمر وتقول كأنها تؤدي دوراً على المسرح:

- إنه الكرسي الذي اعتاد همنغواي الجلوس عليه عندما يأتي الى البوديغيتو ليشرب الموهيتو ثم يجرى البرجوتيتو الذي تدعوه سوكا ليلا الى أمسية لطيفة، فيصدّعها بأسئلته عن كل ذلك!

- برافوا!

قلت وأنا أصفق لها كما تتطلب اللعبة ثم أضفت:

- أليس اسم «البرغوثي» اسماً جميلاً في نهاية المطاف؟

قالت:

- لا تفرح كثيراً سألت سليم التميمي عن معناه فقال لي إنه ليس أفضل كثيراً من موسكيتو مثلاً. (أي بعوضة).

كان آل البرغوثي لا يسمحون بزواج بناتهم من غير أبناء العائلة، مما أدى الى تزايد عددهم مع مرور الزمن. فقط في عام 1963 سمح عميد العائلة عمر الصالح البرغوثي لأحد افراد العائلة بالموافقة على زواج ابنته من عريس تقدم لها ولم يكن برغوثياً. أما شبان العائلة فكان يُفضّل ان يتزوجوا من بناتها أساساً، لكن زواجهم من بنات العائلات الأخرى كان مسموحاً به طوال الوقت. وقد تجد برغوثياً معترساً أشد الاعتزاز بنسبه هذا ويثوره بفصاحة

لسان العائلة وسرعة البديهة وخفة الظل عند غالبية افرادها. وقد تجد سواه، مثل «ابو رشاد»، الذي يستمتع متعة شديدة في التندر على تصرف البراغثة كملاك أراض وعدم اهتمامهم بالوظائف أو الأعمال التي يباشرونها بأنفسهم. يقول لك إنهم خُلقوا لطق الخنك. والبعض منهم كان يمتلك قرى باكملها، وأرضاً يرمح فيها الخيال، لكنه لم يفكر مثلاً في شراء سيارة! وأن الثروة لم تغير اسلوب حياته باتجاه يتمشى مع العصر. وتجد برغوثيا ثالثاً يتندر على الطرفين وهكذا.

توجهنا الى «دار رعد» في الموعد المناسب.

و«دار رعد»، بيت كبير ذو الفناء مربع واسع، تتكون أضلاعه الثلاثة من غرف متجاورة. وضلعه الرابع جزء من حائط الجامع المقام في ساحة القرية. إذا كنت واقفاً في مكان أعلى من دار رعد رأيت عدداً من القباب الاسمنتية بعدد الغرف المتجاورة المحيطة بالفناء المربع.

سيدة الدار وسيدة الفناء كانت شجرة التين الخضاري الهائلة الجذع المترامية الأفرع. تلك التينة أطعمت أجدادنا وآباءنا ولا يوجد شخص واحد في القرية لم يتلذذ من ثمارها التي لا مثيل لمذاقها العجيب.

بوابة «دار رعد» تطل على البيادر الشاسعة وحقول الزيتون التي تنحدر بالتدرج وتزداد مسالكها وعورة وتشعباً حتى تكون الوادي الخصيب الذي ترويه «عين الدير». وعين الدير هي نبع الماء ونبع الحكايات ونبع الرزق للقرية كلها.

بصحبة ابو حازم وأنيس وحسام وابو يعقوب ووسيم، وصلت الى دير غسانة ظهراً وقفت بنا السيارات امام البوابة. تجاوزت العتبة.

عابقت امرأة عمي ام طلال. وعبر كتفها الأيمن رأيت التينة

واضحَةً في ذاكرتي، وغائبةً عن مكانها.

- مَنْ قَطَعَ التينةَ يا امرأةَ عمي؟

بدلاً من التينة رأيتُ مصطبةً من الاسمنت!

التينة مقطوعة من نقطة التقاء جذعها المهيّب بسطح الأرض.

في موضعها المحفور في ذاكرتي رأيت الفراغ يشغل الفراغ.

سلّمتُ على جاراتها اللواتي لم أستطع التعرف على أيّ منهن.

قادتني الى اليمين حيث الغرفة التي كانت لنا في دار رعد. اكتملَ العقاب.

هل دارُ رعدٍ لا تريد قصتي عن دارِ رعد ؟

هل نحن في الوداع واللقاء نحن ؟

هل أنتِ أنتِ؟ هل أنا أنا ؟

هل يرجعُ الغريبُ حيثُ كان ؟

وهل يعودُ نفسهُ إلى المكان ؟

يا دارنا

ومن يلمُ عن جبينِ الآخرِ الثعب ؟

هنا ولدتني أُمي.

هنا في هذه الغرفة وُلِدتُ، قبل مولد دولة إسرائيل بأربع

سنوات.

الغرفة بيضاء واسعة. سقفها العالي مرفوعٌ على أعمدةٍ تصعد

من الأركان الأربعة، لتلتقي أطرافها العليا في منتصف القبة الدائرية

التي تشكّل عَقْدَةَ السقف الشبيه بسقوف المساجد والكنائس

العتيقة. هنا عشنا أوائل أعمارنا. ستي ام عطا وأبي وأمي ومنيف

ومريد ومجيد وعلاء.

من فتح ذاك الباب الإضافي الواطئ في جدارها؟ إنه باب يُفضي الى غرفة عمي ابراهيم بعد ضم الغرفتين ليصبحا معاً دار أرملة ام طلال. لم يعد من العائلات الخمس من يقيم هنا سواها. زَرَعَت الفِئاء كله بالأشجار: بوملي، تفاح عسيلي، مندلينا، مشمش، برقوق وبعض الخضروات خس بقدونس بصل ثوم ننع. سيعود أهل البلد يقولوا عنا «دار الثور» يا امرأة عمي. (وهذا هو لقبنا، أهل دار رعد، بالفعل ولا يعرف أحد القصة التي وراءه. وعندما كنا نسمع أحدهم يقول انتم «دار الثور» كان أهلنا يقولون إنهم مسحوا السميتين وصرنا «دار الثور». لكن اللقب ما زال يلاحقنا إلى الآن!)

- كبرث وهيشث. هاجر اللي هاجر ومات اللي مات. لمين اطعم تينها يا ولدي؟ لا من يقطف ولا من ياكل. التين يظل عليها حتى ينشف ويوسخ الحوش كله. غَلَبْتَنِي. قطعتها وارتحت. امرأة عمي أم طلال هي كل سكان دار رعد الآن. وَخَذَهَا.

وفي ساعات العصر يلتقي عندها في هذا الحوش المربع تسع وأربعون أرملة هم من تبقى من بنات جيلها في دير غسانة. الأزواج والأبناء والبنات توزعوا بين القبور والمعتملات والمهن والأحزاب وفصائل المقاومة وسجلات الشهداء والجامعات ومواطن الأرزاق في البلدان القريبة والبعيدة. من كاليغاري الى عمان، ومن سان باولو الى جدة، ومن القاهرة الى سان فرانسيسكو، ومن ألاسكا الى سيبيريا.

البعض لا يكاد يفارق سجادة الصلاة والبعض لا يكاد يفارق زجاجة الويسكي، البعض يتعلم أو يعلم في جامعات العالم، والبعض ذهب مع الفدائيين ولم يعد أبداً.

منهم من أخذته المِهَن، من طبٍ وهندسة وطيران وتجارة ومقاولات، ومنهم من يعمل في دول الخليج، والبعض في الأمم المتحدة. والبعض يتعيش على الصدقات والإحسان أو ربما التسول أو النصب والإحتيال.

الزيت والزيتون هو مصدر دخل الجميع هنا. القادر منهم ما زال يعمل في الحقول. إنهم يعملون رجالاً ونساءً كما كانوا طوال سنوات الماضي. لكن عمل الأبناء أو الأحفاد أو الأزواج في دول الخليج هو المصدر الأهم للدخل.

الغائبون في المغتربات الكثيرة يحولون النقود الى القرية مع المسافرين أصحاب الهويات أو تصاريح لم الشمل الذين يستطيعون الدخول والخروج أو عن طريق البنوك في رام الله أو عمان.

إثر طرد آلاف العاملين الفلسطينيين من الكويت بعد حرب الخليج، تأثر الوضع الإقتصادي للعديد من الأسر في القرية.

ريان ابن حمد الذي كان يملك مكتبة صغيرة في الكويت أسماها «مكتبة الربيع» عاد الى دير غسانة ليعمل في تربية الأغنام. البعض الآخر عاد لبني بيتاً في أرض يملكها واستقر هنا معتمداً على مدخرات العمل في الغربة، والتي تنقص ولا تزيد.

كان أهالي القرية العاملين في الكويت في القطاعين الحكومي والخاص قد أنشأوا «صندوق دير غسانة» وقدموا من خلاله مساعدات مالية للأكثر احتياجاً. لكن الصندوق توقف الآن بعد رحيل الجميع.

فاطمة بنت أبو سيف، وهي سيدة ذات عزم، قررت وهي في السبعين من عمرها إعادة تشغيل بابور الزيت المتوقف منذ سنوات طويلة ليعود الأهالي الى عصر زيتونهم فيه.

أبو حازم قدم غرفته في الجزء العلوي من «دار صالح» إلى حسام لتحويلها الى مركز لتعليم الكمبيوتر. اشترى حسام ثلاثة من

أجهزة الكمبيوتر المستعملة وأحضر خبيراً لتعليم الشباب والصبايا في دير غسانة وقال لي إنه سيخرج الدفعة الأولى بعد أسبوعين ويستعد لاستقبال الطلاب الجدد في الدورة الثانية.

الأهالي ممنوعون من التعمير والعمل في محيط القرية والمناطق التي تعتبرها إسرائيل جزءاً من تربياتها الأمنية.

بعد الـ 67 كان اكتشافي أن عليّ أن أشتري زيت الزيتون أمراً مؤلماً حقاً.

كنا نفتح أعيننا على الحياة، والزيت والزيتون موجودان في بيوتنا. لا أحد من أهل القرية يشتري زيتاً أو زيتوناً للأكل اليومي. القرية تبيعهما لرام الله أو عمان أو الخليج الخ. لكن أهلها يجلبونهما من الحقول والمعصرة إلى الجرار والبراميل المنزلية التي لا تنفذ محتوياتها إلا بحلول الموسم التالي.

زيت الزيتون بالنسبة للفلسطيني هو هدية المسافر. اطمئنان العروس. مكافأة الخريف. ثروة العائلة عبر القرون. زهو الفلاحات في مساء السنة. وغرور الجرار.

في القاهرة كنت لا أدخل زيت الزيتون إلى بيتي لأنني كنت أرفض أن أشتريه بالكيلو. نحن نزن الزيت بالجرة!

كان منظره في زجاجات صغيرة خضراء كزجاجات الكوكاكولا، يثير السخريّة.

عندما طالت الغربة واستحالت العودة إلى دير غسانة، مارست الذلّ الأول البسيط والخطير عندما مددت يديّ إلى جيبتي واشترت من البقال أول كيلو من زيت الزيتون.

كأنني واجهت نفسي، ساعتئذٍ، بحقيقة أن دير غسانة أصبحت بعيدة.

أما التين فقد اختفى من حياتي طوال سنوات الشتات إلى أن

رأيتَه عند بائعي الفواكه في أثينا، كنت أغادر فندقِي في الصباح الباكر لأشتريه من محل قريب وجعلته إفطاري اليومي . لم أتناول إفطاراً واحداً في الفندق .

ذات صيف في فيثا رأيتهم يبيعون التين بالحبة . اشتريت الحبة الواحدة بما يقارب الدولار . ساعتها قلت لرضوى ولتميم انني ارتكبت جريمة بحق تينة دار رعد الخضارية، ولو عرفت ستي ام عطا انني دفعت هذا المبلغ في حبة تين واحدة لأرسلتني الى بيت لحم!

قالت رضوى:

- اשמعني بيت لحم يعني؟

- لأن فيها مستشفى المجانين!

كان الواجب الأول في دير غسانة هو تقديم العزاء لأم عدلي . عدلي طالب في مدرسة دير غسانة . في ذلك الوقت كانت الإنتفاضة في أوجها . جنود إسرائيل يهاجمون المدرسة لفضّ المظاهرة .

عدلي يهجم فاتحاً ذراعيه على امتدادهما ليغلق بوّابة المدرسة الخارجية في وجه الجنود . . . طلقة في الصدر . طلقة في الرأس . الدم على حديد البوابة وعلى العشب وعلى قمصان زملائه الذين حملوه الى أمه . لتبقى منذ تلك اللحظة والى الأبد وحيدة تماماً في هذا الكون .

كانت منذ سنوات قد فقدت الأم والأب والزوج . وعاشت لعدلي ابنها الوحيد . وعدلي استشهد على البوابة .

في أكبر دار في دير غسانة، الدار الملاصقة لدار رعد، الدار المبنية منذ أربعة قرون، في «دار صالح» كلها لا يقيم مع أم عدلي

أي مخلوق آخر . كلهم ذهبوا .
وَحَدَّهَا .

بوجهها الذي يحمل آثار جرح أو حرق قديم ، بثوبها الفلاحي
ويديها المتبنتين وعينيها الخضراوين وجلستها المؤبدة في «قاع»
الدار العظيمة الإتساع . تنظر حولك فترى العشب هائشا على
درجها الذائب إذ يصعد ناقصاً الى العلّة، وعلى أقواسها، و على
جدرانها، حتى الجدران الداخلية ذات اللون الدهريّ الفاحم .
قدّمت لي الشاي والترحيب والعناق الأمومي ، ووميضاً مغلوباً
في نظرات العينين . تحدثت هي عن منيف وتحدثت أنا عن عدلي ،
ولم نُطل الحديث . أطلّنا الصمت . لأن الصمت كان في مقدورنا
نحن الاثنين .

نظرتُ الى علّة والدها العم أبو حسين . لم يكن في القرية
كلها من هو أكثر نُحولاً منه . كان وهو الأُمّي ، أبرعٌ وأسرعٌ من
يُجري العمليات الحسابية لنفسه وللآخرين . كان محاسب القرية
رغم أنه لم يكن محاسباً ، وكان لحام القرية رغم أنه لم يكن
لحاماً . في النهاية لا بد لأحد في القرية أن يكون موهوباً في
الحساب ، ولا بد لأحد من أن يبيع اللحم للأهالي .

كان يسأل كل الرجال في المضافة عن حاجتهم المتوقعة من
خروف ينوي ذبحه في اليوم التالي . هذا يريد الزند وآخر يريد بيت
الكلأوي أو الفخذ وآخر يريد كيلو غراما أو كيلو غرامين . يطمئن
الى بيع كل جزء من ذبيحته ويحفظ الأوزان التي «حجزها»
أصحابها عن ظهر قلب . غندئذ فقط ، يذبح الذبيحة . ويخرج بها
الى الساحة ليوزعها ويقبض ثمنها كاملاً وإذا كان الزبون من
المقرّبين فمن الممكن تسجيل اسمه ، بشكلٍ مؤقتٍ في قائمة
المدينين .

ولدت له الخالة ام حسين أربعة عشر ولداً وبناتاً . بقي منهم

أربع بنات. إحداهن هي حكمية، أم عدلي. أما هو فيبدو أنه توفي أثناء اقامتي الطويلة في بودابست ولم أسمع بالنبأ إلا بعد سنوات.

غادرنا «دار صالح» وذهبنا الى «دار داود» للتعزية في لؤي.

لؤي تلقى رصاصهم في مدخل القرية. كنا قرأنا له الفاتحة عندما مررنا بجوار الشاهدة الاسمنتية المقامة في موضع دمه. رشق حجراً. رشقوه بالرصاص. تركوه لعويل القرية كلها وذهبوا. لم يبلغ لؤي ولا بلغ عدلي الثامنة عشرة على الإطلاق.



حان الآن موعد اللقاء في ساحة دير غسانة.

يتوقعون مني قراءات شعرية لأهل البلد الذين سيفتحون اليوم أول مركز ثقافي في تاريخ ديرغسانة، بمبادرة من أنيس وحسام العائدين حديثاً الى فلسطين من أمريكا ومن عمان. ودعوا له أهالي قرى بني زيد المجاورة.

الطريق إلى دير غسانة نسييت ملامحه تماماً.

لم أعد أتذكر أسماء القرى على جانبيّ الكيلومترات السبعة والعشرين التي تفصلها عن رام الله. الخجل وحده علّمني الكذب. كلما سألني حسام عن بيت أو علامة أو طريق أو واقعة سارعت بالقول إنني «أعرف». أنا في الحقيقة لم أكن أعرف. لم أعد أعرف.

كيف غثيت لبلادي وأنا لا أعرفها؟ هل أستحقّ الشكر أم اللوم على أغاني؟ هل كنت أكذب قليلاً؟ كثيراً؟ على نفسي؟ على الآخرين؟

أي حُب ونحن لا نعرف المحبوب؟ ثم لماذا لم نستطع الحفاظ على الأغنية؟ الآن تراب الواقع أقوى من سراب النشيد؟ أم لأنّ الأسطورة هبطت من قممها الى هذا الزقاق الواقعي؟

نبحث إسرائيل في نزع القداسة عن قضية فلسطين، لتتحول،
كما هي الآن، إلى مجرد «إجراءات» و«جداول زمنية» لا يحترمها
عادة إلا الطرف الأضعف في الصراع.

ولكن هل بقي للغريب عن مكانه إلا هذا النوع من الحب
الغيابي؟ هل بقي له إلا التثبيت بالأغنية مهما بدا تشبه مضحكاً أو
مكلفاً؟

وماذا تفعل أجيالٌ كاملةٌ وُلدت في الغربة أصلاً، ولا تعرف
حتى القليل الذي عرفه جيلي من فلسطين؟

خَلَصَ. انتهى الأمر. الاحتلال الطويل الذي خلق أجيالاً
إسرائيلية وُلدت في إسرائيل ولا تعرف لها «وطناً» سواها، خلق في
الوقت نفسه أجيالاً من «الفلسطينيين الغريباء عن فلسطين» وُلدت في
المنفى ولا تعرف من وطنها إلا قصته وأخباره. أجيالاً بوسعها أن
تعرف كل رُقاقٍ من أزقة المنافي البعيدة وتجهل بلادها. أجيالاً لم
تزرع ولم تصنع، ولم ترتكب أخطاءها الآدمية البسيطة، في
بلادها. أجيالاً لم تَرِ جَدَاتِنَا يجلسن القرفصاء أمام الطوابين ليقدمن
لنا رغيفاً نُغَمِّسُهُ بزيْت الزيتون، ولم تَرِ واعِظَ القرية بحِطَّتِهِ وعِقالِهِ
وَوَرَعِهِ الأزهرِيِّ، يُقْلَدُ امرئ القيس، في الاختباء في كهف
جانبِي، ليتلصَّصَ على صبايا القرية ونسائِها وهنَّ يخلعن ملابسهنَّ،
ويغطسن، عارياتٍ تماماً، في بركة «عين الدير».

نعم. الواعظ يسرق الملابس ويخفيها في لفائف شجر العَلِيقِ،
ليطيل النظر الى مفاتنهن. هو لن يرى هذه المفاتن طوالَ عمره في
ملاهي أوروبا وحفلات مُجونٍ أحفاده وأولاده في جامعة لوممبا
وعواصم العالم الغربي والسكس شوبز في البيجال وسان دني، أو
حتى في مسابح راس بيروت وسيدي بوسعيدا

نعم. الاحتلال خلق أجيالاً بلا مكان تتذكر ألوانه ورائحته
وأصواته. بلا مكانٍ أوَّلٍ خاص بها، تتذكره وهي في إقامتها

الملففة . ولا تتذكر فيه سريراً كانت الطفولة تبلله هناك . ولم ينسوا
على ملاءته دمية من القطن الملون الطري . ولم يتقاذفوا ، إذ يخرج
الأهل للسهر ، مخدّاته البيضاء ، يضربون بها بعضهم ضاحكين من
القلب .

خَلَصَ ! الإحتلال الطويل خلق منا أجيالاً عليها أن تحب
الحبيبَ المجهول . النائي . العسير . المحاطَ بالحراسة ،
وبالأسوار ، وبالرؤوس . النووية ، وبالرُغَبِ الأملَس .

الاحتلال الطويل استطاع أن يحولنا من أبناء «فلسطين» الى
أبناء «فكرة فلسطين» . انني كشاعر لم أكن مقنعا أمام نفسي إلا
عندما اكتشفتُ بهتان المُجَرَّد والمطلق ، واكتشفت دقّة المجسّد
وصدق الحواس الخمس ، ونعمة حاسة العين تحديداً . وعندما
اكتشفتُ عدالةً وعبقريّة لغة الكاميرا ، التي تقدّم مشهّداً بهمسٍ
مذهلٍ مهما كان المشهد صاحباً في الواقع أو في التاريخ .

بذلت جهداً كان لا بد من بذله من أجل التخلّص من قصيدة
المجaraة من سهولة الشيد . ومن رداة البدايات .



كنا نتزاحم في باص عبد الفتاح او باص أبو ندى مع طلوع
الفجر مرافقين لأهالينا الذاهبين الى رام الله لقضاء شأن من شؤون
حياتهم . ونعود في الباص ذاته قبل الغروب الى دير غسّانة .

كنت مبهوراً بذلك المحضّل يتسلق سلماً مثبتاً في الخلف
ويرتب الحقائق على ظهر الباص بهمة ملفّنة ثم يقف طوال الرحلة
الى رام الله على سلّم الباب المحاذي للسائق .

كنا نسمّيه «الكوتنرول» والبعض يتفلسف ويسميه «الكمساري»
تقليداً للهجة المصرية وإعجاباً بها .

ذات مرّة لا أدري ما الذي جعلني أقف وقفته هذه لدقائق

معدودة. كان الهواء القادم من التلال والبيادر المحصورة، يدخل مباشرة الى الرئتين ويجعل قميصي الصيفي الأبيض يصفق ويموج.

منذ تلك اللحظة أصبح حلم حياتي أن أكون محصلاً!

لم يتكرر أبداً نعيمٌ وقفتي تلك على سلم الباص لكنني ظلمتُ لفترة من الوقت أحسد «المحصل»

على مزايا منصبه الرفيع. كان جلوسي أو وقوفي في زحام الباص لا يتيح لي أن أملاً ناظري بمشهد حقول الزيتون الراكضة بعكس اتجاه سيرنا؛ لا تنقطع الا لتتصل ثانية، كاشفة عن القرى الصغيرة المتناثرة على رؤوس التلال المتفاوتة الارتفاع. ولم أستطع حفظ الطريق بين رام الله ودير غسانة بكل تفاصيله. كل ما كنت أتذكره ان المسافر لا بد ان يمر على بير زيت وعلى «حرش النبي صالح».

مدرسة بير زيت أصبحت جامعة مهمة. أما الحرش الصغير الذي اكتسب اسمه من كثافة الشجر فيه، فقد قال لي حسام إنه أصبح الآن مستوطنة اسرائيلية كبيرة يسمونها «حلميش». استولت إسرائيل على الحرش كله وعلى مساحات كبيرة من الأراضي المحيطة به وبنت المساكن والمرافق وأحضرت المستوطنين وانتهى الأمر. الطريق المتفرعة الى الحرش، ككل الطرق الجانبية المؤدية للمستوطنات مغلقة أمام الفلسطينيين ومخصصة للإسرائيليين وحدهم.

اجتازنا الحرش ودخلنا قرية «بيت ريماء» آخر ما يراه المسافر قبل الوصول الى دير غسانة. أوقف حسام السيارة وقال لي:

- إنزل شوف دير غسانة من هون. بتبين كلها على راس الجبل. شوف!. كأنها رسم على بوست كارد.

* * *

لا تُعرَفُ القرى ببيوتها. بل بما حولها. الحقول، عيون الماء،

الكهوف الصخرية، الشعاب والجبال والقصص المتوارثة التي تتغير
وتتبدل من جيل الى جيل لكنها، عجباً، ثابتة كالكتاب.
دير غسانة، تمتلك ذلك كله.

لكنها عكس ذلك كله لا تعرّف إلا بيوتها.
حجارة لا تشبه حجارة الأهرامات، لكنها تذكر بها. ولا تشبه
حجارة سور القدس، لكنها مقدودة من المقالع ذاتها.
حجارة سميكة جداً. غامقة اللون ومعشوشبة.
بيوت فيها فكرة القلاع، لكنها ليست قلاعاً. بيوت توحى
بأجواء رومانية، وهي أبعد ما تكون عن الرومانية.
بيوت واقعية يسكنها الغني والفقير. الأبله والذكي. والأمني
والمتعلم. بيوت عمرها مئات السنوات.

مداخلها أقواس شاسعة. سقوفها قباب. (كان محمد الأبرش
يربط جملة داخل قوس البوابة في دار صالح فيبدو الجمل هزياً
وما هو بهزيل.)

بيوت على الجبل. بيوت على البال. بيوت دخلتها جميعاً في
سنوات الطفولة. بيوت لم أعد أذكر مواضعه الآن. أذكر هذه
القباب الاسمنتية، والجدران المسية، التي تنمو في شقوقها
الأعشاب. أذكر تلاصقها وأذكر بكل دقة شكل الأقواس التي
ترسمها سطوحها في زرقة الصيف العالية.

- مريداً تُصدّق اني حرقتها بالنار! لكنها طلعت وكبرت مرة
ثانية. هل تصدّق؟

قال حسام وهو يشير الى نخلة طالعة من جدار غرفته في
الطابق الثاني «دار صالح». نخلة تدلق سعفها الصغير الى العشاء
المظل على البيادر والحقول.

- نخلة يا رجل. هل تصدّق!

نباتاتٌ عجيبةٌ تنبت في الحجر وتعيش مئات السنين .
بيوتٌ مهذمة . لكنّ تَلَصَّقَها الحقيقيّ والبادي من هذه المسافة
حيث وقفت بنا السيارة ، يعطي انطباعاً بالتماسك والمتانة .
اقتربنا أكثر .

مررنا عن المدرسة . أول ما يصادفه الداخل الى دير غسانة .
المدرسة مبنية في العشرينات من القرن العشرين . درس فيها أبناء
قرى بني زيد كلها . كانوا يَصِلُون إليها مشياً على الأقدام لعشرات
الكيلومترات ، ويأتون إليها أيضاً على الحمير . يجتازون الوديان
وسبيل الشتاء ، طلاباً وأساتذة لا فزق .

كان مستحيلاً أن يصدّقني أحد في أوروبا كلّها لو قلت إن
الأساتذة وأولياء الأمور والسعاة والمدير ومئات الطلاب في
مدرستي ، أنا المفرد الغريب المائل للصمت والعزلة ، كانوا كلهم
من نفس العائلة ويحملون اسم البرغوثي !

هنا درّسني مادة الدين الأستاذ عبد المعطي الصالح البرغوثي
الذي لم نعلم ونحن في الصفوف الابتدائية أنه كان شيوعياً عندما
كان لينين على قيد الحياة ، وأنه سُجن في أواخر العشرينات أو
أوائل الثلاثينات بتهمة الشيوعية ! والأستاذ عبد المعطي هذا هو
قريب لأبي ووالد كل من فدوى زوجة «ابو حازم» وشقيقها حسام .

هذه إذاً «دير غسانة» المكتوبة في شهادة مجيئي الى العالم وفي
خانة «مكان الولادة» في كل جوازات السفر التي حملتها طوال عمر
المنافي والمنايذ العديدة ، وبجوارها دائما تاريخ الولادة 8 / 7 /
1944 .

دير غسانة المسجلة في إدارة الوافدين ، في ملفات جامعة
القاهرة ، في ادارة سجن الأجانب وقسم ترحيلات الخليفة .
المكتوبة باللغات الأجنبية على تأشيرات الدخول إلى العواصم
البعيدة .

هذه هي التي كنت أنطق اسمها كلما سألتني أحدهم «من وين الأخ؟»

هذه هي التي كان قليل من السائلين يقتنع بها كإجابة على ذلك السؤال والكثير منهم لا بد أن أصل به الى سماع كلمة «رام الله» حتى يهدأ باله بتحديد مكان معلوم لديه بالضرورة. ها هي الآن توشك على مغادرة مكانها في الأوراق والوثائق، وتتجسد.

تتجسد بقوامها القوطي الغامق اللون. بشوارعها الترابية. بسناسلها وأسرابها الضيقة ومقبرتها المحاطة بالصبار الذي لا تكف ألراحه الشائكة عن التناسل، حتى وهي تجاور الموت والموتى. وجامعها الذي لا مثذنة له. بمضافتها في صدر الساحة. بأقواسها وقبابها ورائحة البهائم التي تحمل حرائيها إلى الحقول وعيون الماء، بستي أم عطا حاملة جرّتها على منتصف رأسها من «عين الدير» الى عَطَشِنَا وطبخنا وغسيلنا والأباريق التي علّمونا كيف نصبّ منها الماء على أيادي ضيوفنا بعد أنتهائهم من تناول المسخن البلدي المشوي في الطابون.

لا . «دير غسانة» لم تُعْذِرْكَ، ولا خانة في الملفات. ها هي تخرج من التجريد. ها هي تنظر اليّ وأنا أعبرها، وتوشك أن تعرفني بعد قليل، عندما يهدأ محرك سيارة أنيس. ها هي تكاد تفتح القوسّ الواسع الذي ستضع فيه ثلاثين عاماً من العُمر، وتغلق عليه قوساً آخر بحيث تضع كلّ غريتي بين قوسين.

ولكن، من كل الأولاد، الذين كانوا يتنزهون أو يلعبون في مداخِلها وطُرُقَاتِها، لم يَعرِفني أحد.

لم يكن من حقّي أن أشعر بتلك الرُعيّة الخفيفة. لكنني شعرت بها. أردت فعلاً أن يَعرِفني أحد.

حتى ذلك الشيخ الذي يسير ببطءٍ وتأملٍ لم يعرفني ولم أعرفه.
لم أسأل عمن يكون. لم أسأل.

سخيف أن تطرح في مسقط رأسك أسئلة السباح: من هذا وما
هذا الخ.
أليس كذلك؟



كلما تقدمنا من ساحة القرية اتضح أثر الهجران. أثر الخسارة
والنأي. التقدم البضئ يجيء إلى الأمكنة بمواقيتِه وبقانونه؛ في غياب
أهلها دخلت إلى دير غسانة الكهرياء، هوائيات التلفزيونات مرفوعة
على بعض الأسطح، الأسفلت يضيء بسواده الطازج شارعاً أو
شارعين في القرية.
نقترب أكثر. أكثر.

البيوت المهجورة تروي روايتها بِخَرَسِها البليغ.

كان يجب أن أتخيل هذا التهدم والتآكل في الأقواس والبوابات
والمداميك والسقوف ونعبت والأدراج. بل انني قدّرت أن أرى
هذا الخراب الذي أراه الآن في دير غسانة منذ رأيت التراجع
المفجع في أحوال رام الله. إذا كان الاحتلال قد أعاق المدينة في
المدينة فمن الطبيعي أن يعيق القرية هكذا بحيث يكتمل بأسها
التاريخي من اكساب عناصر مَدِينَةٍ تغتني بها وتنمو.

لاحظت مثذنة عالية في نهاية عمران القرية فسألت إن كان أهل
البعد قد أقاموا مثذنة لجامعهم أخيراً فقال لي حسام بل انهم بنوا
جامعاً جديداً غيره.

شعارات حماس المكتوبة بالدهان الأحمر ما تزال واضحة على
جدار دار صالح وعلى حائط الجامع وعلى سور دار رعد.

في انساحة رأيت جزءاً صغيراً جداً، مقتطعاً من مساحة

المدرسة القديمة المهذمة منذ سنوات طويلة وقد تم ترميمه بشكل متقن وأنيق .

كنت سمعت أن جمعية يسارية إيطالية تبرعت ببعض المال لإقامة حضانة لأهالي القرية في هذا الموقع، وأنفقت على المشروع فعلاً. بعض المشاركين في ملكية الموقع توجسوا وخافوا من عواقب الأمر بل انهم ارتابوا في «أهدافه»! حاولوا عرقلته. اتهموا المتحمسين له بتهم كثيرة.

الملكية في القرية موزعة على عشرات الورثة. الورثة مبعثرون في أرجاء الدنيا وبعضهم لا يعرف أن له ميراثاً في دير غسانة أصلاً. من المستحيل تقريباً الحصول على موقف موحد من جميع الورثة حول أي قطعة أرض أو بيت أو حقل زيتون.

المهم أنهم هدأوا بعد أن شاهد بعضهم نتيجة الترميم الفعلي أو بعد أن رأى المقيمون منهم خارج فلسطين صوراً جميلة للحضانة الجديدة.

هذه إذاً ساحة القرية .

هنا مضافة دير غسانة وملتقى رجالها الليلي في السمر والعُرس والعزاء واستقبال الضيف القادم من القرى المجاورة أو من المهاجر العديدة .

انبعثت على الفور رائحة البنّ الغامق والهال من زاويتها اليمنى التي كان يجلس فيها يوسف الجبين يدقّ القهوة في الجرنّ الخشبي بإيقاعات راقصة .

الساحة . المضافة . ها هي أمامي الآن . بين يدي حواسي الخمس . حجراً لا خيالاً . تبصرها عيناى لأول مرة منذ ثلاثين سنة .

نهضوا أمام عيني .

نهضوا بقاماتهم وقناييزهم وخطاتهم البيضاء ووجوههم، على
الفور.

نهضوا كأنهم لم يموتوا.

ترجلوا من قصيدة كَتَبَتْهُمْ في الغربة، وانبعثوا كاملين. أبي.
عمي ابراهيم. خالي أبو فخري. أبو عودة. أبو طالب. أبو
جودت. أبو بشير. أبو زهير. أبو عزت. أبو مطيع. أبو المعتدل
أبو راسم. أبو سيف. أبو عادل. أبو حسين:
انبعثوا على حصيرتهم الملونة التي نسيت ما نسيت طوال هذه
السنين وما زلت أتذكر نقوشها:

شهوة للرجال الذين بنوا في المضافة بيت الكرم،

وبيت النكات اللثيمة،

بيت التهكم من كل عالٍ قوي،

وبيت المساء الطويل بطول الجدال،

وأخبار كل البلاد،

كانت الحصيرة من تحتهم،

هيئة للأمن!

لكنهم لم ينبعثوا.

لا المختار ولا الحراث ولا الكريم ولا البخيل. لا الذين
أحبونا ولا الذين كرهونا. لا الطييون ولا القساء.

هرموا في الموت وأماكنهم هربت. كلها هربت.

المؤكد أنني تجاوزت منذ خروجي من سداجات الطفولة،
الرغبة في استعادة الموتى ليعودوا كما عرفتهم في ماضي أو
ماضيهم. أنني لا أريد استرداد دير غسانة كما كانت ولا استعادة
طفولتي فيها كما كنت. أعلم معنى مرور الزمن. لكن المسألة

ليست تأملاً ميتافيزيقياً. إنني أعلم، وهذا هو الأفدح والأخطر، معنى أن تتعرض المدن والقرى للاحتلال.

قالت لي رام الله في الأيام الماضية الكثير عن أحوالها التي أعاقها الاحتلال. والآن هاهي القرية تقول الكلام ذاته.

حتى في لحظة «الزيارة بعد مرور الزمن» التي تغري أعتى الواقعيين بالهيام في الغمام الرومانسي، لم أجد لديّ دعماً أذرفه على ماضي دير غسانة ولا شوقاً لاستعادتها على هيئة طفولتي فيها.

لكن اسئلة عن جريمة الاحتلال هي التي جعلتني أفكر في مدى «الإعاقة» التي يمارسها الإسرائيليون.

كنت دائماً من المقتنعين بأن من مصلحة الاحتلال، أي احتلال، أن يتحول الوطن في ذاكرة سكانه الأصليين الى باقية من «الرموز». الى مجرد رموز.

إنهم لن يتركونا نرتفع بالقرية الى ملامح المدينة أونرتفع بمدينتنا الى رحابة العصر. لنكن صادقين، ألم نكن نتمنى حياة المدينة ونحن في القرية؟

ألم نكن نتمنى الخروج من دير غسانة، المحدودة، الصغيرة، الأبسط من اللازم، الى رام الله والقدس ونابلس؟

ألم نكن نتمنى لتلك المدن أن تصبح مثل القاهرة ودمشق وبغداد وبيروت؟

إنه العطش إلى العصر الجديد دائماً.

الاحتلال تركنا على صورتنا القديمة. وهذه هي جريمته.

إنه لم يسلبنا طواوين الأمس الواضحة بل حرماناً من الغموض الجميل الذي سنحققه في الغد.

لم آت الى هنا لاستعادة «فاي السباط» ولا «جمل الأبرش».

كنت أشواق الى الماضي في دير غسانة كما يشواق طفل الى
مفقوداته العزيزة. ولكنني عندما رأيت أن ماضيها ما زال هناك،
يجلس القرفصاء في ساحتها، متنعمًا بالشمس، ككلبٍ نسيه
أصحابه، أو على هيئة دُمَيَّةٍ لكلبٍ، وددت أن أمسك بقوامه،
وأقذف به الى الأمام، الى أيامه التالية، الى مستقبلٍ أحلى، وأقول
له:
أركض!

* * *

الساحة

لم أنبذ الرومانسية لأن نبذها موضحة فنية، بل الحياة ذاتها هي التي لا شغل لها إلا إسقاط رومانسية البشر. إنها تدفعنا دفعاً نحو تراب الواقع الشديد الواقعية.

ليست العمانر وحدها هي التي يُسقطها الوقت. خيال الشاعر محكوم بأنه آيلٌ للسقوط. فجأة يسقط خيالي كعمارة تنهار، عندما رأيتهم كاملين كأنهم لم يموتوا، ماتوا إلى الأبد. لم يعد في المضافة إلا غيابهم. لا معنى للرُعدة التي الآن ارتعشتها!

تساءلتُ إن كانت المقارنة واردة بما حدث لي عندما سُمح لي بالعودة إلى مصر والإقامة فيها بعد منع استمرار لمدة سبعة عشر عاماً: لم أستطع تلبية احتياجات الرومانسية التي يتوقعها المعجبون بالدراما والميلودراما من هذه العودة إلى مدينةٍ فيها تلقيت العلم وعملت وعشت سنوات كثيرة.

أخبرتني رضوى أن مساعي السنوات السابقة نجحت أخيراً في رفع اسمي من قوائم «ترقب الوصول» في مطار القاهرة وأن بوسعي المجيء إلى مصر والإقامة مع الأسرة بلا قيود. كنت وقتئذٍ في عمان وأستعد للسفر إلى الدار البيضاء في المغرب، مدعوا من

الأمانة العامة لاتحاد الأدباء والكتاب العرب من أجل الإشتراك في مهرجان الشعر العربي الذي يعقد عادة مرافقاً للمؤتمر. رضوى كانت أيضاً مدعوة لنفس المؤتمر مع عدد من الأسماء الثقافية المصرية.

هي سافرت من القاهرة قبل يومين من سفري أنا من عمان لتلتقي في فندق بالدار البيضاء. دخلت الى البهو. انبثقت رضوى واتجهت نحوي فاردة ذراعيها وسط تعليقات الأدباء المنتشرين على المقاعد يحتسون الشاي المغربي.

حقيبتني كبيرة هذه المرة. فيها ملابس من سيقم إقامة دائمة لا ملابس الزائر لفترة أسبوعين.

كذ' نتصل هاتفياً بتميم كل يوم تقريباً ودخل في حالة انتظار لعودة أبيه الى البيت والاستقرار فيه.

ركبنا الطائرة العائدة الى مصر بعد انتهاء المؤتمر.

أنا لا أعود الى رضوى. أعود معها. كأنها تأخذني من يدي إلى البيت الذي انتزعوني منه ومنها ومن تميم ذات خريف قببح وبعيد.

في الخارج كان تميم قد نفذ صبره تماماً رغم أن الجميع هتأوا أنفسهم لانتظار طويل.

مطار القاهرة عموماً من المطارات الصعبة للمسافر الملهوف. كل شيء يتم بتلكؤ لا يراه مُسبِّوه تلكؤاً، بل ربما حسبه إتقاناً لعملهم. إنها وجهات نظر على أية حال!

دخلنا البيت ليلاً (أمر محير وغريب، كل العودات تتم ليلاً، وكذلك الأعراس والهموم واللذة والإعتقالات والوفيات وأروع المباهج. الليل أطروحة نقائض!)

لم يغمض لنا نحن الثلاثة جفن. ثرثرنا أعمارنا المتفرقة في

البيوت التي انضمت في تلك الليلة لتصبح بيتاً.
مع مرور الأيام بدأ يتضح لي ما كان غامضاً.
أنت لا تبتهج فوراً بمجرد أن تضغط الحياة زرّاً يدير دولاب
الأحداث لصالحك. أنت لا تصل الى نقطة البهجة المعلوم بها
طويلاً عبر السنوات وأنت أنت. إن السنوات محمولة على كتفيك.
تفعل فعلها البطيء دون أن تقرع لك أية أجراس.

أعود بعد أن وضعت يديّ جسد منيف في العتمة التي لا يعود
منها أحد. بعد أن عاد الخوف من الآتي يسيطر على أمني. تميم
يستعدّ لامتحان الثانوية العامة وهي امتحانات كابوسية لكل تلميذ
في مدارس مصر. عندما فارقتك كنت أحضر من تحت الشرفة
قماطة المغسول الذي أسقطه هواء نوفمبر عن جبل الغسيل، وكان
في شهره الخامس يمصمص شفّتيه في جذل المواليد المتدثرين
بشال من الصوف ويراقبون اقتراب حلمة الثدي الشفاف اللون من
وجوههم الشفافة اللون.

هو الآن رجل يخلق ذقنه وشاربه! منذ ثلاث سنوات اشترينا له
ماكينة الحلاقة وصابون الحلاقة وملابس لا تختلف في مقاسها عن
ملابسي الالبصرة واحدة.

كان عليّ أن أقسم الذاكرة بين الماضي العيشي الذي مر
والحاضر الملموس الذي يتشكل معهما وفي بيتنا ذاته والمستقبل
الذي لا تحدده قراراتنا وحدنا.

كان تقسيم الذاكرة الى تعب سابق وراحة راهنة مستحيلاً.
الذاكرة ليست رقعة هندسية نرسمها بالمنقلة والفرجار
والقرارات الرياضية والآلة الحاسبة. بقعة من مجد السعادة تجاورها
بقعة الألم المحمول على الأكتاف. اختل ميزان الإحتياج دون إرادة
أي منا. نحن الثلاثة نحتاج القرب ذاته في الوقت ذاته بالمقدار
ذاته. الشعور بالبداية الجديدة والشعور باستئناف الماضي

المكسور، يتزاحمان لدى الجميع . الشعور بوضوح «العودة» الى البيت يزاحمه الشعور بغموض المستقبل الجماعي للأسرة وللمحيطين بها في الأماكن البعيدة.

كان علينا أن نتحمل «وضوح الغربة» وعلينا اليوم أن نتحمل «غموض العودة» أيضاً . وقد تحمّلنا .

أدركنا، وكان هذا اكتشافاً، أن العائد يعود وعلى كتفيه أحمالاً يستطيع المرهف أن يراها كما يرى عتالاً محني الظهر في ضباب الميناء .

المنشود هنا هو البطء . ستخذ اهتزازات الماضي مداها الى أن تهدأ وتسكن وتجد لها شكلها الذي تستقر عليه .

هذا يحتاج الى البطء الساحر . البطء العزيز . الذي يجعل الشعور بالراحة والسكينة يتغلغل على مهله فينا . فهذه الأحاسيس لا تتشكل دفعة واحدة ولا بطريقة مباغتة . البطء الذي يوصلنا الى تلقائية تعود الجديد . الى اعتباره طبيعة الأمور وأصلها الأول وهذا يتطلب ان نعيشه بكثافة وبكثرة وعلى مهل .

إننا نتعلم ذلك . نتعلمه معاً . ويتعلمه معنا بيتنا الذي سيستأنف رؤيتنا معاً ويعتاد على صباحاتنا المتكررة بملابس النوم المجلجلة والعيون نصف المغلقة نبحث عن الشبشب ونكتشف أن أحدنا يجب أن يشتري فوراً بعض القهوة لأنها نفدت ليلة أمس دون أن ننتبه . انتظرت رضوى عودتي الي بيتنا سبعة عشر عاماً، وعندما عدت، عدت ومعها الأعوام السبعة عشر، كلّها . ومعها الأعوام السبعة عشر كلّها .

منذ ترحيلي وفي كل مرة سمح لي بالعودة الى القاهرة كنت أقضي أطول وقت ممكن في بيتنا دون أن أغادره الى الشارع . كنت أتفرج على البيت . أتفرج على الكنية البنية تحت رفوف الكتب . على الستائر ذات الرسم التجريدي ، على المكتب الصغير تحت

النافذة. على المسودات القديمة والجمل الناقصة. كانت كل عودة مؤقتة تكمل النصف الثاني من الجملة. فالغربة كلها شِبهُ جُملة. الغربة شِبهُ كُلِّ شيء!

يخطفونك من مكانك بشكل خاطف، مباغت، وفي لمح البصر. لكنك تعود ببطء شديد!

وتحب أن تتفرج على نفسك عائدًا بصمت، دائماً بصمت، أوقاتك في الأماكن البعيدة تطل على بعضها كأنها تريد أن تشيع فضولها الغامض بشأن ما يفعل الغريب بالمكان المستعاد وما يفعله المكان المستعاد بالغريب.

أما العلاقة بالمدينة فلها قصة أخرى.

في القاهرة رَتَّبَ العالم شأنه بدوني وفي غيبيتي الطويلة، الصداقات ذهبت في طُرُقها المختلفة والمرتبلة. المعالم في أماكنها لكنها ليست في أماكنها تماماً. مقهى تم إغلاقه. أصدقاء اكتشفوا مقاهيهم الجديدة. الشَّلَل تكوَّنت. الخصومات تكوَّنت. المواقع والطموحات والولاءات تبدَّلت قليلاً أو كثيراً. البرامج اليومية للناس وانشغالهم المعتادة تم تصميمها بشكل يصعب على أي وافد جديد أن يتدخل فيه فجأة.

أصدقاء الماضي دخلوا في حالاتٍ وتحولاتٍ أُمَلَّتْها اختياراتٌ واضطراباتٌ لا أعرف عنها شيئاً.

الذين بدأوا مشوارهم معك تقلَّبت بهم حظوظهم في اتجاهات متناقضة، هذا صار متنقِّذاً، وذاك انتهت موهبته فاخترعوا له مواهب غيرها؛ هذا أصبح رئيس تحرير، وذاك يعمل في الخارج، وثالث نسيك ورابع نسيته وهكذا.

عام 1973 جاءني رضوى لتقول إنها تنوي الدراسة للدكتوراه في جامعة ماساتشوستس في الولايات المتحدة. تحمستُ للفكرة. سافرتُ وبقيت في بيتنا في حي المهندسين قرابة الستين. البيت

كان يزدحم بالأصدقاء، أصدقاء كَوْنُوا لأنفسهم حضوراً في الحياة الثقافية أو ما زالوا يتلمسون الطريق الى ذلك ويحاولون، كل في مجاله، من السينما الى المسرح الى الموسيقى وأساساً في الشعر. كان ديواني الأول قد صدر في بداية العام 1972 وكنت على صلة بجيل كامل من المثقفين المصريين. عندما عدت الى القاهرة كانت الصحبة تفرقت. بالموت، باختلاف المصائر، ولم أعد ألتقي بشلة أوائل السبعينات إلا مصادفة وعلى غير ترتيب.

عند اللقاء مع صحبة الماضي تجد أن كل شيء قد اختلف. ذات يوم وعلى سبيل الدعابة المعتادة بيني وبينها، قلت لسيدة مَجْرِبَة خفيفة الظل دائمة المزاح تساعدنا في المطبعة التي تصدر منها مجلة الإتحاد في بودابست:

- كل صديقاتي هجرني يا «جوجا». ماذا أفعل لاستردادهن؟

فلذا بها تجيبي إجابة لم أنسها منذ ذلك اليوم، قالت جوجا:

- لدينا في المجر مثل شعبي يقول: «طبخة الملفوف (الكرب)»

يمكن تسخينها إذا بردت، لكن مذاقها الأصلي لا يعود أبداً.

ضاع المذاق الأصلي لتلك الأيام. ضاع بالفعل. انني لا أحب الملفوف بشكل خاص ولا أحب تشبيه العلاقات بين البشر بمفردات الطعام، غير ان الوجدان الشعبي المجرب، والمشارك عند معظم المجتمعات هو وجدانٌ مبهرٌ في تلخيص أحوال البشر.

استحالة الابتهاج المطلق «بالمعثور عليه بعد الفقدان»، تجسدت في عودتي الى القاهرة. أدهشني ان خيالي استمر في مواصلة شُغْلِهِ! رغم وعيي الحاد بأنني أمشي على الأرض التي كانت شُغْلاً لخيالي في سنوات البُعد الطويلة.

ما الضائع إذاً في هذا الذي عثرُ عليه؟ شَكْلٌ معينٌ للأرصفة التي كنت أمشي عليها؟ نوعٌ من الإيقاع؟ نوع من الشروقات والغروبوات؟ دعسات خطى انتظرت أن أسمعها ذات ليلة موحشة

فسمعتها؟ مشحاتٌ من الغيم اتخذت أشكالاً راقيةً لي ذات صباح؟
صفّ أشجاراً في منتصف شارعٍ ما؟ إنها المسألة نفسها دائماً،
مسألة رَتَقَ زَمَتَيْنِ بالإبرة والخَيْطَ. ولكن هيهات.

الزمن ليس خرقَةً من الكتّان أو الصوف! الزمن قطعةٌ من الغيم
لا تكفُّ عن الحركة، وأطرافها غائمةٌ مثلها.
قل إنك رومانسي، الزمن هو الذي يُؤذّبك بكلّ برود.
الزمن يُرَتِّقُنَا بالواقعية.

* * *

هذا قبر خالك «ابو فخري».

ها هو «المَلِك» راقداً تحت التراب.

عملاقُ الجسم. هادئ الصوت. في وجهه مزيج من ملامح
الجنرال ديغول وأنتوني كوين. يدخّن الغليون منذ عرفناه، وإن كان
يحشوه بأسوأ أنواع التبّاك الذي كان يسميه (الهيشة). هو الوحيد
الذي يدخّن الغليون بين كل أهالي البلد. يتباهى بالقمباز الجديد
ليوم أو لنصف يوم فقط، لأنه سيكون في اليوم التالي منقوراً
بشرارةٍ من شراراتِ غليونه العجيب، الذي لا يفارق زاوية شفتيه.
أدهشني عندما قال لي مرة:

- خالك راح لبور سعيد يا ولّد.

- ولىش رحت يا خالى؟ فأجابني كأنني سألت سؤالاً غيباً:

- مِن شان أروح لبور سعيد!

انطلقَ ببارودته ذات ليلةٍ إلى «البيطار»، أرض زيتوناته خارج
دير غسانة، لأنه علم بوجود

لصوصٍ فيها يخرطون الزيتون، فعاد بسبابته ملفوفة بالشاش
لأنه صوّب على يده!

يعيش من دخله في مواسم الزيتون. لاتجد في جيبه قرشاً في

معظم أوقات السنة، لِكْرَمِهِ بكل قليله المُتاح . وهو أكثر بشاشة مع أصدقائه منه مع خالتي ام فخري التي تعلمت من كَرَمِهِ المبالغ فيه حرصها المبالغ فيه ،

ذات مرة استغلّ غيابها عن البيت، ودعا أولادَ الجيران الصغار من نافذته فصعدوا اليه وأعطاهم كل ملابس أحفاده التي تصر خالتي على الاحتفاظ بها الى الأبد . بعد ان ذهبوا استبدّ به الخوف من غضبها فاهتدى الى ترتيب عجيب : أحضر خَبْلاً وقيدَ نفسه في كرسيّ من الكراسي وجلس ينتظر . ولما عادت ، أفهمها أنّ لصرواً قَيّدوه هكذا، وسرقوا ملابس أحفادها!

لكنها كانت أيضا سيدة ذكية . لم تنطلِ عليها الرواية طبعاً وتحولت الى نادرة من نوادر الأسرة .

كانت خالتي ام فخري صغيرة الحجم بشكل ملفت . خصوصاً إذا سارت الى جواره . عندما عبرا الجسر معا الى رام الله قادمين من عمان ، أنهى الجندي الاسرائيلي معاملة خالي أبو فخري أولاً . لكنه ظل ينتظر في مكانه . حثه الجندي على المضي قدما فقال له انه سينتظر «المدام» وأشار الى خالتي . نظر الإسرائيلي الى الخال «أبو فخري العملاق وإلى خالتي ثم قال له بعريّة مكسرة:

- كم سنة انتي مع المدام؟

- خمسين سنة يا خواجا .

فاذا بالإسرائيلي يقول له وهو يتسم:

- خمارة ! (حمار)

- شايغة يا ام فخري، عرفني!

كنت كاتبَ رسائله منذ تعلمت الكتابة . لم أحب رجلاً من أقربائنا جميعاً قدر ما أحبته . مات خالي أبو فخري وأنا في بودابست . وتوزع اولادُه وبناته بين السعودية والأردن والنمسا

والإمارات والشام.

لم يبق في بيته أحد.

كان حزني عليه ثم على ابنه فخري كبيراً. فخري أخذ من صفات أبيه الكرم والتلقائية والمرح. زارني في بودابست مع سعاد زوجته وأصغر بناته مولي. بعد سنوات قليلة توفي في السعودية ودفن هناك. فكاهاته وقفشاته وقاموسه اللغوي الخاص به وحده كانت تجعل محدثيه لا يكفون عن الضحك.

ها هو دكان يوسف الجبين الذي كان فلاحاً وحلاقاً ودببكا، سقط جداره الملاصق للمضافة وسقط سقفه على بقاياه، ولا يزال الركاب يسد مدخله.

اقتربنا أكثر.

حقل اللوز الذي تملكه أم نظمي التي كانت لا تطيق أن ترى طفلاً منا يفوز بحبة لوز واحدة من أشجاره الضخمة، أصبح مقبرة. كان لا بد أن أطلب لها الرحمة اعتذاراً عن صورتها التي تسلمت الى ذلك المقطع في قصيدة الشهوات:

شهوةٌ لِلصَّوْصِيَّةِ الطُّفْلِ فينا،

نُغَافِلُ بُخْلَ العَجُوزِ التي وَجْهها

مثلُ كعكٍ تَبْلُلُ بالماءِ،

كي نَسْرِقَ اللُّوزَ مِن حَقْلِها.

مُتَعَّةُ العُمْرِ أن لا ترانا.

وَأَمْتَعُ منها، إذا ما رَأَتْنا، مَراجِلُنا في الهَرْبِ.

وَأَمْتَعُ مِن كُلِّ هذا،

إذا اسْتَلَمْتُ خَيْرَ رَأَتْها واحداً،

وانْضَرَبَ!

بعد الغداء اقترح أنيس أن نرتاح قليلاً في بيته. دخلنا البيت الضخم المتعدد الحجرات من بوابته المنهارة المهذمة التي ما يزال ركامها مدلولقاً كريمة صغيرة تكاد تمنع الدخول والخروج.

«شهيمه» و «زغلولة» هما السيدتان الوحيدتان هنا. متقاربتان في السن، تجاوزتا السبعين، ولم تتزوجا أبداً. متقاربتان في حجمهما المائل للقصير لكن زغلولة أقصر من شهيمه قليلاً. على وجهيهما تجاعيد متتابعة متماثلة. يعيشن في هذه الخرابه الشاسعة وحدهما ولا ثالث لهما، وترفض أي منهما محادثة الأخرى! انهما، منذ سنوات، في حالة مقاطعة وخصام دائمة!

عندما انهار مدخل الدار اخترع ابو حازم طرفته الشهيرة عنهما، إذ أشاع أمام أقاربنا في عمان أن السيدتين كانتا تخرجان وتدخلان من وإلى الدار بواسطة طائرة هيلوكوبتر!

بعد عودة أنيس من أمريكا قام بإصلاح غرفة واحدة في الدار المتهدمة ليعيش فيها. كان الحر والإرهاق قد تمكنا مني. خلعت قميصي وتمددت عاري الصدر على أرضية الغرفة الباردة. سقطت نائماً وذراعي مرميتان على الجانبين كالمصلوب.

صحوث على جلبة استعداد الجميع للتوجه الى «الساحة» حيث الأمسية الشعرية المنتظرة. ماذا أقرأ يا ترى؟

إنه سؤال كل أمسية شعرية بدون استثناء. وهذه الأمسية هي إستثناء بحد ذاته! ورغم ذلك استسلمت لعادتي في ترك الخيارات للحظة الأخيرة بعد صعودي الى المنصة ومواجهة الناس.

عندما أكتب أشعاري لا يكون الجمهور محدداً. ولكن عندما يُطلب مني أن أقرأها أمام الناس فإنهم يصبحون ذلك المتلقي المحدد. هذا وحده يسهل اختياراتي. انني لم أكتب «لهم» بالتحديد ولكنني سأقرأ «لهم» بالتحديد. اتبعث هذا الأسلوب في كل الأوقات وفي كل الأماكن. وكانت الشرارة المتبادلة بيني وبين

الناس تنقد وأشعر بها ويشعرون بها.

أتذكر أمسيات معينة لا تنسى، في القاهرة وفي عمان وفي تونس وفي المغرب. ولعل للمغرب وحده قصة من أجمل القصص. لكن لقاء اليوم محير. هل يريدون الاستماع للشعر فعلا؟ أم أنهم يبادلونني تحية العودة بالسلامة ويقومون بما تقتضيه الأصول؟ تركت الاختيار للحظة الأخيرة وصعدت الى مصطبة المضافة.

هذه وجوههم إذاً.

الشيخ الذين نجوا من الموت والأبناء الذين استطاعوا البقاء. خلفهم تجلس الجدات والعمات والخالات والأرامل التسع والأربعون. أما الأطفال فلم يتوقفوا عن الحركة في كل الاتجاهات مندهشين من تحوّل ساحة قريتهم الى مسرح! حسام وأنيس يقولان ان بعض شباب القرية مثلوا مسرحية على سطح الجامع في هذه الساحة عام 1949 ولم تتكرر التجربة منذ ذلك التاريخ.

قبل ان أصعد الى المصطبة توجهت للحاضرين وصافحتهم واحداً واحداً رجالاً ونساءً وأطفالاً. بعضهم يتذكروني. بعضهم يتذكر منيف. وكلهم يتذكرون أبي. كانوا يسمونه «الحنون».

أنيس وحسام، بلباقتهما وإدراكهما للموقف، جئاني كثيراً من الحرج الناجم عن نسياني بعض الوجوه والأسماء. قدما لي على الفور كلّ من لمسوا أنني نسيت اسمه.

هذا هو «العفو» ابن «أبو العفو»، قال حسام. سلّمت عليه بحرارة. شاب أشقر وسيم فارغ الطول كأبيه. حضرت عرس أبيك في هذه الساحة يا عفو قبل دهر!

- إذا انت ابن «أبو العفو»...

في لمحة بصر تكوّن المشهد الغابر كله:

منير أبو زاكي الشاب النحيل ذو القميص الأبيض الشفاف يقود صفّ الدبكة في عرس شقيقه الأكبر فخري (الذي سيصبح فيما بعد «أبو العفو»). صبايا القرية اتخذن سطح الجامع شرفاً لهن، يغنين منها ويطلقن الزغاريد ويسحجن مع الشبابة للراقصين. الراقصون يتحرقون لكي يمكثوا أطول وقت ممكن في وضع يتيح لهم مشاهدة البنات. لكن الملعون «أبو زاكي» قرر أن يُبقي ظهورهم الى جهة الجامع، ليستفرد هو بالنظر الى شُرْفَةِ البنات! تَرَكَ عيونهم مُعَلِّقَةً بقدميه وخطواته. إنه اللّوَّيح الذي يقود رقصتهم.

كنتُ صغيراً عندما شاهدتُ ذلك العرس في هذه الساحة التي أقف فيها الآن لأقيم أول أمسية شعرية في تاريخ القرية. لم أعرف بالضبط كيف ولماذا استقرت رقصة «أبو زاكي» سنوات طويلة في ذاكرتي رغم تشتت أبطالها جميعاً. سافر أبو زاكي الى الشارقة ومات أبو العفو. ورمّني الأحداثُ من دير غسانة الى رام الله والقاهرة والكويت وبيروت وبودابست. وفي بودابست تحديداً صُوِّرْتُ المشهد الغابر كلّهُ في قصيدة «غمزة».

وقفتُ في ساحة دير غسانة،

خلفي مباشرة: حائط المضافة.

على يساري: دار صالح.

على يميني: حائط الجامع.

وأمامي بالضبط: سور دارنا.

دار رعد.

جسد منيف يملأ المكان. لم يكن طيفاً ولا تذكّراً. هو ذاته. بقامته الطويلة، بنظاراته، بوجهه الأشقر وشعره الجميل. تحديداً في هذه الساحة المتهذمة، التي وُضِعَ لها الدراسات والخطط لترميمها وإعادة إعمارها. أراد أن يحولها الى ساحةٍ للعروض الفنية الجماعية، ومراسم للرسمين، وأن يقيم فيها حضنةً للأطفال

ومعهدا لتعليم الفنون الزراعية. وخطط لاستعادة أقواسها وقبابها
وبواباتها الأثرية الى بهائها الأول.

ذات مرة كنتُ بصحبته في قرية إيفوار الفرنسية وسحرتني
بعناقتها وزهورها وحياتها الفنية الغنية فقال لي:
- لا تنبهز هكذا يا مريد، دير غسانة يمكن إذا اعتنينا بها أن
تصبح مثل إيفوار وأجمل منها كمان.

نعم. كان كل شيء حولي، وكل شيء في داخلي، يحتم علي
أن أبدأ بقصيدتي في رثائه. أردت أن أعيده الى هنا محمولاً على
لغتي.

أردت أن أعيده معي الى هذه الساحة.
قرأت مقاطع من قصيدة «منيف».

زَجَلْ زَوْدَم
وهو الذي ظلت أمومتُه تظلل أمه
ليرى ابتسامتها
ويفزع أن يكون بصوف كنزتها
ولو خيَطَ حزينٌ.

... ..

مَن جرؤ على إحناء قامته السرو؟
من جرؤ على بعث كل هذه القشعريرة
في الهواء المحيط بكتفيه؟
من جرؤ على قتل الإستغانة الأخيرة للجَمال؟

ثم قرأت قصيدة «باب العامود» وقصائد قصيرة أخرى. تأثروا.
ضحكوا. حزنوا. كان إحساسي بوجودهم طاعياً ومهيماً.
كانت شعارات الإنتفاضة، رغم توقُّف أحداثها بفعل أوسلو،

تملأ الحيطان على الجامع وعلى دار رعد، وعلى كل ما يمكن
للطباشير والدهانات أن تعلق به . معظمها شعارات حركة
«حماس» .

تزاحم المخاطر بفوضاه وتشيعه نحو كوارث عالم السياسة
والسياسيين .

لكن هذا اللقاء لقاء للشعر .

تركتُ ما في النفس يتكوّن في النفس كما يحلو له ليستقر هناك
مع الركام المرير المخزون .

هؤلاء الناس لا ينقصهم مزيد من المرارة . ليكن في قصائدك
ما يشير ولو بشكل خافت الى أن الحياة تستمر بالأحياء في نهاية
المطاف .

ذُكِرْتُ الأهالي بعرس المرحوم «أبو العفو» وقرأت عليهم
قصيدة «غمزة» وأهديت القصيدة الى منير أبو زاكي (أيما كان):

غمزة من عينها في العرس
وانجُن الولد!

وكان الأهل والليل
وأكتاف الشباب المستعدين من الأحزان بالذبكة
والعمات والخالات والمختار
صاروا لا أخذ .

وخذهُ الزبيح،
في منديله يزئج كل الليل،
والبنث التي خضته بالضوء المصغى
أصبحت كل البلد .

مَدَّ يُمْنَاهُ عَلَى آخِرِهَا .
تَقْضُ الْمُنْدِيلُ مِثْلِي وَثَلَاثًا ،
رَكَّبَ الْجَنِّ عَلَى أَكْتَافِهِ ثُمَّ رَمَاهُمْ وَانْحَنَى ،
رَكِبَ الْجَنِّ عَلَى رُكْبَتَيْهِ ثُمَّ رَمَاهُمْ وَاعْتَدَلَ ،
قَدَّمَ ثَبَّتَهَا فِي الْأَرْضِ لَمَحًا
وَرَمَى الْأُخْرَى إِلَى الْأَعْلَى كَشَاكُوشٍ وَأَرْسَاهَا وَتَذَّ .

كَلِمَا أَوْشَكَ أَنْ يَهْوِيَ عَلَى سَحْجَةٍ كَفَّ
جَاءَهُ مِنْ سَحْجَةِ النَّايِ سَنَدٌ .

يَلْقَفُ الْعَتَمَةُ كَالشَّهْوَةِ مِنْ أَعْلَى بَرُوجِ اللَّيْلِ
حَتَّى ضَوْءِ عَيْنَيْهَا تَمَامًا .
يَغْرِقُ الصَّدْرُ وَشَعْرُ الصَّدْرِ مِنْ مَيْلَاتِهِ يُعْنَى وَيُسْرَى ،
ثُمَّ يَسْرِى غَرَقُ الظَّهْرِ عَمُودِيًّا تَمَامًا .
وَحَيَاءُ الْقَلْبِ خَلَّى كُلَّ مَا فِي الْقَلْبِ يَخْفَى ،
وَالْقَمِيصُ الْأَبْيَضُ الْمُتَبَتَّلُ مِنْ أَكْتَافِهِ حَتَّى جِزَامِ الْجِلْدِ
خَلَّى فُقْرَاتِ الظَّهْرِ تُحْصَى بِالْعَدَدِ .

غَمَزَةٌ أُخْرَى وَلَوْ مِثْ هُنَا
غَمَزَةٌ أُخْرَى وَلَوْ طَالَ انْتِظَارِي لِلْأَبْنَدِ !

هَنَّاكَ لِحَفَظَاتٍ يَتَعَرَّضُ فِيهَا الشَّعْرُ لِامْتِحَانٍ مَبَاغِتٍ ، عِنْدَمَا يُلْقَى
عَلَى مَسَامِعِ جَمْهُورٍ لَا يَعْنِيهِ الْأَدَبُ وَالشَّعْرُ بِشَكْلِ خَاصٍ . تَعَرَّضْتُ
لِهَذِهِ التَّجَرُّبَةِ مَرَّتَيْنِ فِي السَّنَوَاتِ الْآخِرَةِ :

دَعَتْنِي الصَّدِيقَةُ هَيْفَاءُ النَّجَّارِ مَدِيرَةُ الْمَدْرَسَةِ الْأَهْلِيَّةِ لِلْبَنَاتِ فِي
عَمَّانَ لِقَرَاءَةِ شَعْرِي أَمَامَ طَالِبَاتِ الْمَدْرَسَةِ . بَنَاتِ الصَّفُوفِ الْإِعْدَادِيَّةِ

والثانوية. بنات بين العاشرة والسابعة عشرة من العمر. (من الطبيعي ان لا يمتلكن تاريخاً في تلقي الشعر في هذه المرحلة من العمر). والمرة الثانية هي هذه المرة.

انني ألقى الشعر أمام «أعمامي وأخوالي»، كما خاطبتهم عندما أمسكت بالميكروفون؛ أمام المختار والراعي والحراث والأمهات والجيدات والمتعلم والأُمِّي والأطفال، تجمعهم هذه الساحة التي لم يقف فيها شاعر من قبل على الإطلاق.

في المدرسة الأهلية في عمان وهنا في مضافة دير غسانة تبدد بعض قلقي وهدأت هواجسُ عندي حول علاقة الناس غير المختصين بما نكتب.

في ختام الأمسية قلت لحسام:

- لا يوجد جمهور محايد يا صديقي. لا يوجد جمهور برئ تماماً. لكل فرد تجربته الحياتية والإنسانية مهما كانت بسيطة.

لأول مرة في حياتي ألقى قصائدي أمام صفوف متتالية من ريفيين يرتدون الحطة والعقال. فيهم ابن الثامنة وابن الثمانين. معظمهم لم يدخل في حياته مسرحاً ولم يفتن ديواناً واحداً من الشعر.

بل إن مجنون القرية، عبد الوهاب، الذي عشق ابنة المختار في الخمسينات وكان يكتب فيها قصائده الغزلية المؤثرة، وكنا نحن الأطفال (ولدهشته الشديدة) نرتعد خوفاً منه كلما صادفناه في القرية او في عين الدير لأنه مجنون، لم يكن مجنوناً على الإطلاق!

إنه لم يوصف بالمجنون إلا لأنه يقول الشعر؛ وفضلاً عن ذلك يريد، وهو المُعَدَّم، ان يتزوَّج بنت المُختار!

انتهت الأمسية وبدأ الحوار مع أهل القرية.

أُسئِلة عن الغربة والعودة والوضع السياسي؛ لكنّ السؤال الذي ما زلتُ أذكره، جاء من سيّدة من الصفوف الخلفية تقول:

- ما هو أجمل ما رأيت منذ عودتك الى البلاد؟

قلت لها صادقاً وبسرعة:

- وجوهكم.

نزلتُ عن المصطبة. انفعالاتي يختلط فيها السرور بالأسى الغامض.

فجأة وجدت نفسي محاطاً بعددٍ من الأطفال يقدمون لي أقلامهم ودفاترهم المدرسية وأوراقهم المقتطعة منها لأوقع لهم عليها. كانوا يتدافعون وعيونهم فيها ذلك المزيج الساحر من الشقاوة والخجل.

لعلها لحظة جعلت السرور ينفرد بي؛ لولا ذلك الهاجس الذي ينهزني ويقول لي قف! إنه الهاجس الأكثر قسوةً ووجعاً:

ما الذي تعرفه دير غسانة منك يا مريد؟

ما الذي يعرفه منك أهلك الآن؟

ما الذي يعرفونه مما مر بك ومما شكّل وجدانك، معارفك، اختياراتك، وصفاتك الايجابية والسلبية، طوال ثلاثين سنة عشنا بعيداً عنهم؟ ماذا يعرفون عن لغتك؟ لغتك التي اختلط فيها ما يشبههم وما يخالفهم، لغتك في الذهن وفي القول وفي الصمت والعزلة وفي الخصومة والرضى؟ انت لم تنتقل من سوادِ فوديك الى شينيهما تحت أعينهم. لا يعرفون أصدقاءك وصديقاتك ولا عاداتك الصغيرة.

وإذا عرفوا عاداتك، هل سيقزونها؟ موقفك من فكرة العائلات كلّها، ومن المرأة ومن الجنس ومن الأدب والفن والسياسة؟ لا

يعرفون العيوب التي تخلّصت منها ولا العيوب التي اكتسبتها منذ تركتهم.

يحسبون أنك لم تأسف لقطع شجرة التين الى «هذا» الحد. لا يعرفون رضوى وتميم. لا يعرفون ما الذي جدّ عليك في غيابهم. أنت لم تعد ابن الأول الإبتدائي الذي كانوا يشاهدونه من زمان، يقطع هذه الساحة في طريقه الى جدول الضرب وحصّة الاملاء.

فهل يتذكر الكثيرون مُفَرَّدَهُمْ؟

هم ليسوا مطالبين بذلك أصلاً. لقد مرّ بهم زمنٌ لا تعرفه أنت أيضاً. كل ملامحهم التي تتذكرها، هي ملامح ثابتة وماهي ثابتة. ألم يتغيروا هم أيضاً؟

ام طلال على غير عادتها تتحدث في السياسة.

يقولون لي إن كثيراً من شباب البلد متحمسون لحماس.

ام طلال متعلقة بشجرة التين أكثر مني. لا بد أنّ قُطِعَ الشجرةُ كان ضرورياً في لحظةٍ لا اعرفها لأنني هناك، ولأنها هنا. هكذا بكل بساطة. ربما لو كنت انا الذي استمر في العيش هنا لهدمت او بنيت وزرعت او قطعت اشجارا بيدي. من يدري؟ عاشوا زمنهم هنا وعشت زمني هناك.

هل يمكن رتق الزمين؟

وكيف؟

لا بد من ذلك.

هل هو ممكن؟

هل هو مستحيل؟

وهؤلاء الأولاد والبنات الصغار لو كانوا يشاهدونني مع آبائهم وأعمامهم وفي دورهم كل مساء منذ ثلاثين سنة، هل كانوا

سيطلبون توقيعي على أوتوجرافاتهم كشاعر غريب؟

اقتَرَحَ ابو حازم أن نعود قبل حلول الظلام الى رام الله . كانت حكومة اسرائيل قد قررت إغلاق الضفة منذ وصولي بسبب الإنتخابات العامة تخوفا من عمليات حماس . التوتر العام يمكن لمسه باليدين .

الطريق بين دير غسانة ورام الله محاط بالمستوطنات التي توضحها أضواؤها ليلاً، فتبدو أحجامها الحقيقية حتى للعين المستعجلة . وأكبرها مستوطنة بيت إيل على مشارف رام الله، وهي نهاية المنطقة (أ) الخاصة بالإشراف الفلسطيني .

كل الطريق واقع تحت تصنيف (ب) الذي يعني الاشراف الفلسطيني/ الاسرائيلي المشترك . أي أَنَّ السُلْطَةَ الفعلية فيه للجندى الاسرائيلي . وقد شرحوا لي أن هذا هو الوضع بشأن كل الطرق بين المدن والقرى الفلسطينية .

لم يكن ممكنا الذهاب الى عين الدير، مملكة عَمِي «أبو مطيع» الذي قضى ثمانين عاما يبذر ويسقي ويشق القنوات ويُقَسِّم السَفْعَ الى « حَبَائِل » وسطورٍ مستوية تسمح باستقرار الماء وتمنع انجراف التربة .

منذ أول القرن حتى وفاته قبل سنوات وهو «يجول» الزيتون ويأخذه الى بابور أبو سيف ليعصره زيتا يملأ الجرار .

زَرَعَ في عين الدير كل نبات يمكن أن ينمو في مناخ البلاد:

التفاح العسيلي والتين الخضاري والسوداي والبياضي والخرتماني والصفاري والزراقي والحماضي . البرتقال والليمون الجريب فروت والبوملي الرمان والسفرجل الزعرور والتوت

والبصل والثوم والبقدونس والخس والفلفل بأنواعه والرمان،
والبطاطا والقرنيط والملفوف والملوخية والسبانخ .

كان لا يحترم الأعشاب البرية التي تنمو بغير عنايته الشخصية،
كالخبيزة والميرمية والبابونج والمرار والخرفيش؛ رغم أنه كان
يحاول عبثاً أن يعلمني أسماءها الغريبة وخصائصها الأغرب في
شفاء الأمراض،
كان سيّد الماء .

استطاع وهو الأتي الذي لم يغادر القرية أن يروي كل الجبل و
كل الوادي بأقل قدر من الماء، بلا هدر ولا تبديد، كأنه مهندس
داهية في علوم الزراعة. كان قليل الحجم وصَغُ ابنه مطيع ذات
مرة بأنه « ظَل قَدْ البرتقانة » رغم كل المأكولات التي كان يزرعها
ويتعهدها برعايته .

- عين الدير خربت يا ولدي . العَلِيقُ أَكلها أَكل . الواويات
تسرح وتمرح فيها . روح شوف بعينيك .
لم أَرُح . لا أريد أن أروح .

رأسي على المخدة في بيت « أبو حازم » هذا بيت آخر
للمسافر . هذه مخدة أخرى لرأسي . علاقتي بالمكان هي في
حقيقتها علاقة بالزمن .

أنا أعيش في بقع من الوقت بعضها فقدته وبعضها أملكه لبرهة
ثم أفقده لأنني دائماً بلا مكان .

إنني أحاول استعادة زمن شخصي ولّي .
لا غائب يعود كاملاً . لا شيء يستعاد كما هو .

عين الدير ليست مكاناً . إنها زمن . وقت .

بَلَلُ الشتوة الأخيرة الذي تقول عيوننا إنه جف فتكذبها

أحدثنا. شك العليق الذي عود أيدينا وجنوبنا على التزييف المبكر منذ الطفولة في غروب كل يوم نعود فيه الى أمهاتنا. هل أريد أن أتشعبط على عليقة الآن؟ لا. بل أريد «وقت» الشعبطة.

عين الدبر هي تحديداً زمنٌ مريد طفلاً وعمي ابراهيم فلاحاً وصياداً، فخاخه تستدرج طيورها من أربعة جبال خضراء، لترفرف في آخر المطاف بين أصابعه الفائزة في لعبة السماء والأرض.

كان يشرح لي الكثير عن غياب العصافير التي ترى الحبة ولا ترى الفخ. وعندما يطمئن الى أنني رأيت غيابها بالأذن والعين، كان يسارع الى الإضافة التي لم أفهمها تماماً في الخامسة أو السادسة من عمري:

- الناس يا عمي زي العصافير. كثير منهم يشوفو الطعم، وما يشوفو الفخ!



«دار رعد» ليست مكاناً. هي أيضاً زمن.

زمن النهوض مع صلاة الفجر من أجل مذاق التين «المقطوف على ضوء الفجر» والذي شطبه الندى ونقرته العصافير النشيطة (لا أحد يميز الثمرة الناضجة من الفجة كالعصفور، العصفور لا يخلو تماماً من النباهة والذكاء).

هي زمن جرار الزيت القادم للتو واللحظة من بابور أبو سيف الى رغيف الطابون الساخن في يدي قبل الذهاب إلى المدرسة.

وهي ذلك الاحتكاك الفجائي (البريء؟) بثدي ابنة الجيران أثناء اللعب، والذي بمجرد إحساسك به لا تعود إلى البراءة ولا تعود البراءة اليك. خلّص. لقد عرفت الآن، ولو في هوجة اللهو، ملمس ثدي الأنثى. وما العارفُ بيريء!

أماكنتا المشتهاة ليست إلا أوقاتاً.

أجل إنها أوقات .

ولكن مهلاً، في الصراع تكون المسألة هي المكان .

نعم . المكان .

كل القصة في المكان .

يمنعونك من امتلاكه فيأخذون من عُمرِكَ ما يأخذون . عندما سألتني صحفيٌّ عن معنى الحنين بالنسبة لي، قلت له شيئاً قريباً من هذا . انه كَسْرُ الإرادة . بالتالي لا علاقة له برخاوة الذكرى والاستحضار .

لكثرة الأماكن التي رمتنا إليها ظروف الشتات واضطرابنا المتكرر لمغادرتها، فَقَدْتُ أَمَاكِتُنَا ملموسيّتها ومغزاها . كأنَّ الغريبَ يفضّل العلاقة الهشة ويضطرب من متانتها . المشرد لا يتشبّث . يخاف أن يتشبّث . لأنه لا يستطيع . المكسور الإرادة يعيش في إيقاعه الداخلي الخاص .

الأماكن بالنسبة له وسائلُ انتقالٍ تحمّلهُ إلى أماكنٍ أخرى . إلى حالاتٍ أخرى . كأنها خَمَرٌ أو جذاء .

لا تقبل الحياة منا أن نعتبر الإقتلاعات المتكررة مأساة . لأن فيها جانباً يذكّرُ بالمسخرة . وهي لا تقبلُ منا أن نتعوّد عليها ككُنْكَتَةٍ مُتَكَرِّرَةٍ . لأنَّ فيها جانباً مأساوياً .

إنها فقط تعلّمتنا الرضى بالمصير الوحيد المقترح علينا .

تروشنا .

تعلّمتنا التعود . كما يتعوّد راكب الأرجوحة على حركتها في اتجاهين متعاكسين . أرجوحة الحياة لا تحمل راكبها الى أبعد من طرفيها : المأساة والمسخرة .

العالم يواصل تأرجحه .

العَبْسُ الخفيف يغلُلُ الأفقين على جهتيها .

في القاهرة، صبيحة ذلك العيد التاريخي الكئيب، كانوا ستة
من المُخبرين. عندما سَقَطَ من حَبْلِ الغسيل ذلك القمط الذي ما
زال مبلولاً من أقمطة تميم وخرجتُ لِجَلْبِهِ، رأيتهم:
كانوا ستة مخبرين في سيارة مباحث أمن الدولة.
قلت لرضوى:
_ جاؤوا.

الإقامة في الوقت

اقتادوني الى دائرة الجوازات في مجّمع التحرير . ثم أعادوني في المساء الي البيت لإحضار حقيبة السفر وثنى تذكرة الطائرة . في الطريق الى سجن «ترحيلات الخليفة» انتظارا لقرارهم النهائي ، كنت أنظر الى شوارع القاهرة نظرةً أخيرة . أرجوحة المأساة والمسخرة تهتز بي مع اهتزاز سيارة الجيب واهتزاز شكل الأيام القادمة . الرجال الستة خصصوا واحدا منهم لمراقبتي وأنا أعد حقيبة ملابسي وجلس الخمسة الآخرون أمام تلفزيون بيتنا وبدون استئذان يشاهدون على الهواء مباشرةً خطبةً الرئيس في الكنيسة .

ماذا تحمل الأيام لهذا الطفل ذي الشهور الخمسة ولرضوى ولي ، ولنا؟

في الطائرة فقط ، في مقعدي في الطائرة ، فكّوا الكلبشات من معصمي . قلت للجالس بجواري وبصوت فكاكي :
- وداعاً يا افريقيا .

لم أقم بأي فعل لمعارضة زيارة السادات لإسرائيل . كان ترحيلاً وقائياً ونتيجة وشاية ، كما تبين بعد سنوات عديدة ، لفقها زميلٌ معنا في اتحاد الكتاب الفلسطينيين !

الحياة تستعصي على التبسيط كما ترون!

ومن بغداد إلى بيروت إلى بودابست إلى عمان الى القاهرة
ثانية، كان من المستحيل التثبيت بمكان. لأن إرادتي فيه تصطدم
مع ارادة صاحب المكان. إرادتي أنا هي المعرضة دائما للإنكسار.
أنا لا أعيش في مكان أنا أعيش في الوقت. في مكوناتى
النفسية. أعيش في حساسيتى الخاصة بي.

أنا ابن جبل واستقرار. ومنذ تذكّر يهود القرن العشرين كتابهم
المقدس، أصابني الرحيل البدوي. وما أنا بدوي.

لم أستطع تكوين مكتبة منزلية متصلة أبداً. تنقلت في البيوت/
المحطات والشقق المفروشة وتعددت على العابر والمؤقت.

روّضت نفسي على ذلك الشعور بأن بكرج القهوة ليس لي.
فناجين قهوتي من ممتلكات المالك ومن مخلفات المستاجر
السابق. حتى كسر فنجان منها، يتخذ معنى آخر. الصدفة العقارية
وحدها هي التي تختار لي شكل ملاءات سريرى، حجم مخدتي،
ستائر نوافذى، طنجرة الطبخ، ملعقة الشاي، كلها هناك كما شاءت
أو كما شاء الآخر، لا كما نشاء أصابعي. لا أنتقي. الصدفة
تنتقي.

تخلّيت أكثر من مرة عن كل ما ربيته من جيرانيوم على
الشرفات المتغيرة باستمرار وعن نباتاتى الداخلية مثل اليوكا
والسينجونيوم والدراسينا والشوفليرا ورجل الدب والفوجير. أختار
لها أصص السيراميك البيضاء، أتفنن في تنسيقها ورعايتها وأغسل
أوراقها بالبيرة، ورقة ورقة، أغمسُ قطعة من القماش القطني ذي
المسامات في البيرة، وهي أفضل وأرخص من المستحضرات
الكيمائية، أضع الورقة في يدي اليسرى ثم أمسح سطحها بالقماش
المبلول بيدي اليمنى الى أن يصدر عنها ذلك اللعمان المدهش

الذي يذكّرني بضربة الختام في السيمفونيات، أنتقل من ورقة إلى أخرى ومن فرع إلى آخر، بنفس الحرص والعناية. أدير لها آلة التسجيل التي تبث الشريط الموسيقي بلا توقف وأتركها دائرة حتى وأنا خارج البيت. أبدأ صباحاتي بلمس أوراقها وفروعها وملاحظة رطوبة تربتها. أراقب درجة انجذابها نحو ضوء الشمس القادم من النافذة أو من الشرفة. ولأنني أحب للنبته أن تكون منسجمة الأطراف والزوايا والإستدارات، أنقلها من مكانها الى نقطة أقرب للشمس لأجعلها تواجه الضوء بجانبها الذي كان محجوباً. أتركها في وضعها الجديد أياماً تكفي لضبط إيقاع أوراقها وأنغام نموها الى الأعلى، الى فوق، ثم أعيدها الى مكانها المعهود في الغرفة. أحياناً أسند بعض فروعها بعيدان خاصة أشتريها من أفضل المحلات المتخصصة. وأحياناً أربطها الى خيوط شفاة لا تكاد تُرى وأمدد الخيوط الى اتجاهات محددة أنخيلها تناسب مستقبل النبتة وهي تنمو وتكبر. وأهيم لها مزيجاً من الضوء والهواء والصداقة الشخصية. . . وأغادر. دائماً أغادر!

أستغني عن مقتنيات الغربة بشكل روتيني خالٍ من المشاعر، إلا في حالة توزيع نباتاتي المنزلية على أصدقاء البلاد التي تتركني أو أتركها. لكنني في المطارات وعلى نقاط الحدود وفي حجرات الفنادق المؤقتة أنسى كل ما ورائي وأسأل عن شكل «الأيام» المقبلة. شكل الوقت لا شكل المكان.

في المنافي والأسفار المبالغتة، يدخل الفندق الى أسلوب حياتك. كان المفترض نظرياً أن أكره حياة الفنادق لما فيها من معاني تؤكد مؤقتية الحال والاستعداد الوشيك للرحيل مرة أخرى. ربما يقتضي المجاز أن أكرهها. ولكن تبين لي من واقع الحال أن الحال ليس كذلك بالضبط. ارتحت لحياة الفنادق. الفندق علمني عدم التشبث بالمطرح. روّضني على قبول فكرة المغادرة.

بالتدريج، ولكثرة الأسفار القصيرة من بلد الى آخر بدأت أحب الفندق كفكرة. إنه يعني من تخليد اللحظة ولكنه في الوقت نفسه مسرح لفصول صغيرة ومفاجآت في المرئي والمسموع، وتوسيع لمحيط الحياة الرتيب. في الفندق، أنت معرض للمدهش الذي لا يتكرر. الفندق يكسر مألوفك بمألوفه الطارئ.

الفندق يعطيك شيئاً من نكهة الخلودات المؤقتة.

تستلم رسائل الأصدقاء كلما عدت من مشوار قصير. إنه يكون لك، على الفور، مجتمعاً صغيراً من أصدقاء المدينة الجديدة التي وصلت إليها للتو، شبه عائلة من الذين يهتمون بأمرك لبضعة أيام أو لبضع ساعات في اليوم.

في الفندق تسقط دولة الجار الدائم الإنتباه لجاره. لا وجود لفخاخ الواجب الإجتماعي. إنه المكان الذي تتمجد فيه دولة الكسل والتنبلة. تغادره وتعود إليه في الساعة المرتجلة. هو إغراء بيوم مفتوح على مصراعيه.

في الفندق لست مسؤولاً عن رعاية النباتات، ولا عن ماء المزهريّة التجارية التي يضعون نسخاً مكررة منها في كل غرفة. هذه مزهريّة لا تتألم لفراقها. ولا تمتلك مكتبة ضخمة تختار في تبديدها على المعارف والجيران قبل الرحيل القسري أو المخطط له غالباً من قبل الآخرين.

لا توجد أية فسوة في تركك اللوحات المعلقة على جدران غرفتك، لأنها ليست من مقتنياتك أولاً، ولأنها، ثانياً، قبيحة في معظم الحالات.

تأملت المضافة التي وقفت على مصطبتها.
ها هو مكاني الأول.

وجوه رجالها بملامحهم المميزة وأصواتهم تعاودني مرة
أخرى. أم هو خيالي يقترضهم من موتهم الطويل فجأة؟

يظهرون ويختفون أمامي بخصالهم الحقيقية وخصالهم التي
ألصقتها بهم الألسنة وفنون النيمة المحببة التي يقال إن البراغثة هم
فرسانها. كان المرحوم عبد الرحيم عمر يقول إن في رام الله
مسلمين ومسيحيين وبراغثة!

كبار السن ينقلون نوادر المضافة لأبنائهم جيلاً بعد جيل؛
فتُكسَى بالمبالغات والإضافات حسب خفة ظل من يتناقلونها.
بعضها نُقِلَ لي من أبي وبعضها من أبو حازم لكن معظمها مخزون
برواياته الأصلية في ذكريات أبو كفاح والمعتدل. وأبو كفاح لا
يستهدف أحداً بقدر ما يستهدف خالاً له يدعى سميح وخالاً ثانياً
هو ماجد. أما المعتدل فكان لذكائه يجالس الكبار منذ شبابه المبكر
ويقضي كل اجازاته من عمله في السعودية على المضافة. ها هو
أبو عودة يجلس في إبعاد ركن على الحصيرة (القرب والبعد عن
صدر الحصيرة ومركزها يتعلق بشراء الجالس أو فقيره) فيقول في
إحدى مسامرات الصيف الهادئة وعلى غير توقع من أحد:

- هل تعرفون كيف يميّز الناس بين التيس (أي الغبي) والذكي؟
- كيف يا أبو طُئْب؟ (وقيل إنه مُنَح هذه الكنية بسبب إلحاحه
المبكر على أبيه كي يزوجه، والطنب عندهم هو القضيبي الطويل)
فقال:

- التيس بتكون لحيته عريضة.

لم يعلق أحد على ذلك، لكن المختار الجالس في صدر
المضافة كان يرفع يده اليمنى ببطء ويتحسّس لحيته خلسة! فقهقه
المجلس كله!

ومن طرائفه أنه قال لهم مرة:

- والله بلدكم يا اهل دير غسانة بلد نفاق. اذا أبو عودة نطق

بالذّرر بتقولوا ما سمعناش، واذا المختار ضرط بتقولوا ريحة
منك!

وها هو «بسمارك» أبو المعتدل صاحب التدابير الغامضة في
شؤون القرية، والذي حصل على لقبه الغريب عن جدارة لا تشير
الى خطورته فقط بل تشير أيضا الى خطورة إدراك الذين أطلقوا
عليه هذا اللقب بالذات.

ولا أعرف بالضبط خلفية ألقاب كثيرة أطلقها الناس على الناس
في دير غسانة وظلت متروكة لاستنتاجاتنا نحن الصغار. كانت
الكنى والألقاب الساخرة تتحوّل فوراً الى أسماء تحل محل الاسم
الحقيقي للشخص.

الذي يتحدث أو يتحرّك ببطء يسمّونه «مليد».

قصير القامة يسمونه «الجرن».

الطويل القامة يسمونه «أبو مغيط».

الأكول يسمونه «أبو الثرايد».

الهامل يسمونه «طُزُو» وهكذا.

أما فخري (ابن خالي أبو فخري) فهو مسؤول، وحده، عن
لصق عشرات الألقاب بأهل البلد. ومن ألقابه المأثورة «الدونم»
للضخم الجثّة و«الدبعي» للشديد السمينة و«مسيلمّة» للشخص
المعروف بكثرة الكذب و«المستطيل» وهي واضحة المعنى. كان
فخري بدلاً من أن يقول لك إن فلاناً شديد اللؤم، يكتفي بالقول
إنه «حليب»!

قال مرة يتهم شخصاً بالبخل إنه دعاه الى غداء مكون من «أربع
حبّات بازيللا»!

ومن اللطف التشبيهات التي سمعتها في زيارتي هذه المرّة عن
صديقين لا يفترقان أنهما مثل الكليнкаس ما ان تسحب ورقة من

العلبة حتى تظهر الثانية فوراً.

وها هو أبو زهير، داهية دير غسانة بلا منازع الذي تزوج ابنه «زهير» من فتاة وتزوج هو شقيقتها بعد ذلك وهو في السبعين وأنجب الشهيد «عدلي».

وها هو أبوسيف بمهابته وجسده العملاق، أكبر ملاكي الاراضي في القرية وخارجها. أقام اليهود مستوطنةً على أراضيه في قرية «ملبس» وأسموها «بتاح تكفا». هو صاحب البابور (معصرة زيت الزيتون) في دير غسانة. تزوج فتاة من الشام تصغره بستين سنة!! وانجبت له ولداً قبل موته بشهور! ها هو «أبو جودت» بكرمه ونعاسه الدائم. وأبو طَلَب الذي كان يقدم القروض للمحتاجين بفوائد. وها هو أبو مطيع بصمته الدهري كأن هذه الحياة الفانية لاتعنيه. مع أنها تعنيه. كانت زوجته حاكمة (هذا هو اسمها الحقيقي) سألتها مرة عن أخبار أحد أقربائنا في الكويت فقالت بنبرة الفخر والإعتزاز:

- الحمد لله وضعه فوق فوق، الله يرضي عليه. ثلاجات، غسالات، مكيفات، فيديوهات، راديوات، سيارات، بضربة مفك... يصلحهن!

وها هو خالي ابو فخري يتحدث عن ايام انخراطه في الجيش التركي وفي سلاح الزنار الأحمر وتنقله مع ام فخري وراء وظيفته. كان يذهب الى اللحام في رام الله ويفطر في الصباح الباكر وعلى الريق كباباً وكبدية. له أجمل ضحكة رغم سنه الذهبي لان ضحكته تكون أساساً في عينيه.

هذه صورهم في الذاكرة. لكنها ليست صورهم الوحيدة.

الكاميرا المركبة في تلك الزاوية التي تبرز محاسنهم سوف تعطي صوراً أخرى عندما تنتقل الى الزاوية التي تبرز المآخذ الكثيرة فيهم وفي زمانهم الذي انقضى ولم يتقصر.

من بين هؤلاء الرجال الذين هم زينة المضافة قام نفر ذات صباح شتائي يقتادون طفلتين في الصف الرابع الابتدائي عبر الساحة كلها وأدخلوهما الى الجامع وطلبوا من الطفلتين تسميع سورة من سور القرآن .

تلعثمت الطفلتان .

- شو بيعلموكم إذا في المدرسة؟

- إملأ وحساب ورسم وأناشيد .

عادوا بهما الى بيتنا وبيت المختار . فواحدة منهما كانت ابنة المختار ، والثانية كانت الطفلة سكينة محمود علي البرغوثي ، التي ستصبح فيما بعد أمي .

خرج أبو مطيع وأبو المعتدل وأبو زهير وغيرهم بقرار لن تنساه أمي التي تحكي لنا هذه الواقعة بأدق تفاصيلها وهي في حالة من القهر والغضب ، كأنها تعيش اللحظة مجدداً في كل مرة ترويها .

كانت مدرسة البنات في «دير غسانة» تعلم البنات حتى الصف الرابع الابتدائي فقط . ولم يكن ذلك لصعوبة اضافة صفوف دراسية أخرى ولا لقلة المدرّسات في فلسطين . ولكن لان البنات بعد الصف الرابع يصبحن في نظر القرية نساء ينبغي «خزنهن» في بيوتهن انتظاراً للعريس ، ويجب أن يتوقفن عن الخروج من البيت حتى ولو إلى المدرسة .

في ذلك العام وصل الى القرية مدير مدرسة «الفرنذ» للبنات في رام الله وقرر أن يقدم منحة دراسية للطالبتين المتفوقتين في الصف الرابع الابتدائي لإكمال دراستهن حتى الثانوية العامة في مدرسته في رام الله . وقال إنهما ستقيمان في القسم الداخلي أي في سكن الطالبات . وستقدم لهما المدرسة كل الرعاية وكل المصاريف اللازمة .

جن جنون رجال المضافة من الفكرة .

- هذه مدارس تبشير تفسد عقول البنات .

- المُدرّسات في البلد لا يطلبن من البنات حفظ القرآن .

- فما بالك لو أخذوهن الى رام الله !

كانت فرحة الطفلتين وحماستهن لإكمال تعليمهن فرحة
أخرجت المضافة عن صوابها . اهتدى «بسمارك» الى فكرة امتحان
الطفلتين في حفظ القرآن .

- اسمعي يا ام عطا، ببتك ممنوع تروح على رام الله . مفهوم؟
خذيها واخزنيها في الدار . ببتك غاسل وممنوع تظل تلعب في
الساحة . مفهوم؟

لم يتدخلوا لمنع ابنة المختار من إكمال تعليمها .

أما أمي فقد ذهبت بدلا منها طفلة أخرى لم يكثرث أبواها
لاعتراضات القرية اسمها فوزية . أديبة، ابنة المختار، واصلت
تفوقها وحصلت على شهادة الفرندز الثانوية بالفعل بعد ذلك ،
واصبحت مدرّسة ثم مديرة مدرسة مرموقة في فلسطين . أما فوزية
فلم تتكيف مع وضعها الجديد وعادت الى القرية بعد فترة .

الطفلة سكيّنة بنت محمود علي البرغوثي هي وحدها التي تم
منعها من نبيل فرصتها الوحيدة في التعليم . لأنها يتيمة . مات
والدها وعمرها ستان تقريبا . وترك أمها (جدتي) حاملاً بجنين لم
ير النور إلا بعد وفاته .

أراد أهل زوجها المتوفى أن يطردوها من الدار . فما الذي
يضطّهرهم لرعاية أرملة تحمل على جِجْرها طفلة وفي بطنها جنيناً
وأيضاً ليست ثرية؟

- ارجوكم . خلّوني في الدار كم شهر بس . حتى ألد . مش
يمكن الله يكرمني ويكون اللي في بطني ولد ذكّر؟

- اتفقنا . بس يكون في معلومك ، اذا جبتي بنت ثانية ، بتحملي

حالك والبنتين وبترجعي على دار أهلك .

جاء المولود ذكراً . أسمته عطا الله . هذا المولود أصبح فيما بعد خالي عطا . وبهذه الطريقة فقط سمحوا لجديتي أن تظل في دار رعد . دار زوجها الراحل . كانت لم تتجاوز العشرين من العمر . ترعى يتيمين بمفردها . هجم الطامعون في الأرملة الشابة يتقدمون لطلب الزواج منها . قال لها أبو عودة :

- جَمَلْ مطرح جَمَلْ بَرَّخ .

كما طلبها للزواج أبو محمود (الجرن) وظل يلح في الطلب وطلبها آخرون وهي تواصل رفضهم جميعا . فابتدأ الاضطهاد وسوء المعاملة . كان بوسعهم الاستبداد بها ولكنهم لم يتمكنوا من كسر عزمها على أن تندر حياتها كلها لطفليها اليتيمين خالي عطا وسكينة أمي .

عاشت ستي أم عطا أكثر من تسعين عاماً وفي سنواتها الأخيرة فقدت البصر . وتوفيت عام 1987 . كانت خفيفة الظل ولها أسلوبها الخاص في كل ما تقول .

ذات يوم كانت تجلس في ركنها المعهود في المنزل وكانت ام طلال في بيتنا ترعاها في فترة سفر والدتي للعلاج . وفجأة وبدون مقدمات قالت ستي لأم طلال :

- افتحي لي البرندة يا رتيبة

- ليش يا ام عطا؟

- بدني أرمي حالي واخلص منك !

عندما أقمت مع أسرة خالي عطا في الكويت وكانت هي معنا في ذلك الوقت ، كنت أقف وراءها وهي تصلي دون أن تراني . وعندما تميل بوجهها في ختام الصلاة قائلة « السلام عليكم » أفاجئها بقبلة على خدّها فتنتفض مادة يدها لتضربني قائلة لي وهي

تلمح إلى علاقتي برضوى ونيتي في الزواج منها:

- روح بوس المصريات صاحباتك!

ستي لم تتزوج أبداً منذ وفاة زوجها. رحلت عن الدنيا أثناء إقامتي في في بودابست.

في يومها الأخير

جَلَسَ المَوْتُ في حُضْنِهَا

فَحَثَّ عَلَيْهِ، وَذَلَّلَهُ

وَحَكَّتْ لَهُ الحكاية.

وناما في وقتٍ واجدٍ.

وكالعادة كنت بعيداً ولم أشارك في وداعها الأخير.



هذه أيضا صورة من صور رجال المضافة.

إنها حياتنا وحياتهم بما لها وما عليها. من حقنا أن نحياها وأن ندافع عنها. نعم. عن هذه الحياة التي تقسو أحيانا وتخلو من أية مثالية. هذه صورة من صورنا أيضا. ستي التي انتقلت من «دار عبد العزيز» لتتزوج في «دار رعد» تُعامل كغريبة. تُعامل كوافدة من شعب آخر! من كوكبٍ آخر!، رغم أن المسافة بين الدارين هي صف من اشجار اللوز لا يزيد امتداده عن مائة متر.

هذه صورتنا أيضا. ستي التي كان مولودها الذكر سببا في منحها حق البقاء في دار زوجها بالغت اشد المبالغة في الاهتمام به على حساب ابنتها الأنثى. ولكنها في كل الأحوال كانت مغلوبة على أمرها تماماً، وبالتأكيد أضعف من أن تتمسك بحق البنت في التعليم والسفر الى رام الله.

بعد أن تجاوزت الخمسين من العمر، التحقت أمي بمدارس

الكبار لتروي عطشها للعلم والتعلم. ونقلت لنا درسها الكبير، وهو أن أعظم قيمة في الحياة على الإطلاق هي العلم. أي تعليمنا نحن. وانه يستحق التضحيات كلها.

كانت فدوى طوقان في زيارتنا يوماً في عمان. وأهدتنا كتابها «رحلة جبلية، رحلة صعبة» وكانت أُمي أول من قرأ الكتاب. بعد أن انتهت منه فوجئت بها تقول لي:

- أنا رحلتي أصعب. فدوى ما شافت اللي أنا شفته يمه.

في سنواتي الجامعية كنت أشعر أنني أتعلم من أجلها فقط. أي من أجل أن أراها سعيدة. كنت أستحي من الفشل حتى لا أجلب لها التعاسة. وزاد من ذلك الشعور أنها اختصرت معاني حياتها في معنى واحد هو نحن، أولادها الأربعة. أما كل الآخرين فتحبهم على قدر محبتهم لنا. أولادها هم العالم. وكان هذا من العيوب التي تراها هي ميزة.

لا تتحمل سفر واحد منا الى أي مكان. والمفارقة الموجهة أننا جميعاً سافرنا بعيداً وسافرنا طويلاً.

أما أجملنا وأغلانا فقد سافر بلا عودة. سافر إلى الأبد. وكان عليها أن تتحمل.

كانت ترتب في خيالها عالماً مرتباً يريحها. عالماً تتم الأمور فيه كما تهوى بالضبط وعلى الطريقة التي تفضلها. كأنها تؤدّ الخروج الى كوكبٍ يخصها وحدها.

تؤدّ الخروج الى كوكبٍ خارج الأرض

حيث تنبع الممرات بالراكضين إلى غرفةٍ من سيواها،

وحيث الأبرّة في الصبح فوضى،

وكلّ المخدرات تصحو مُجَعَلَكَة،

فقطها غايض في الوسط.

تريد اكتظاظ جبال الغسيل وأزراً كثيراً كثيراً تُفْلِقُهُ للغدا
وإبريق شاي كبيراً كبيراً يَفُور على النار عُصراً
ومائدة للجميع، مساءً، يُنْقَطُ مفرشها سَمِيمُ الثُّرَاثِ.

تريدُ لِشَهَقَةٍ رائحةِ الثُّومِ في الظُّهرِ أن تَجْمَعَ الغائبين
ويُدْهَشها أن باميةَ الأمِ أضعفُ من سَطَوَةِ الحاكمين
وأن فطائرَها في المساءِ
تجفُّ على شرفٍ لا تُنْطِطُ فيه الأيادي
وهل تسع الأرض
قسوة أن تصنع الأم فنجان قهوتها، مفرداً،
في صباح الشتات؟

تودُ الخروجَ الى كوكبٍ خارجِ الأرضِ
حيث الجهاتُ جميعاً تؤدي إلى مرفأ الصدرِ
ملء خليج الذراعين،
تستقبلان ولا تعرفان الوداعَ
تريد من الطائرات الرجوعَ فقط!
والمطاراتِ للعائدين
نُحِطُ بها، ثم لا تُفْلِغُ الطائرات!

والحب عندها شغل. انتباه. أن تتبّه لمن تحب. أن تتعب من
أجله. أن تصنع بيديها وبجهدِها كل ما يمكنها أن تصنعه. من
تدبير شؤون اليوم الى تدبير شؤون العُمر. من إتقان المخللات في
مواسمها إلى الخياطة والتطريز واستخدام المتروكات القديمة في
صنع مُبْهَراتٍ جديدة (نجدت بيديها مقاعد صالون قديم لا تصلح
لشيء فقامت بعمل نجار ومنجد ومصمم معاً وأعادتها جديدة!)

إلى إشرافها المضني، وحدها، على بناء بيت يصلح لإقامة الجميع مع زوجاتهم وأولادهم فتناقش المهندسين في خرائطهم التي تدوخ العين من التحديق فيها. قال لي المهندس المشرف على بناء البيت إنها اعترضت من واقع الخرائط الهندسية على مكان المطبخ!

- المطبخ المرسوم في الخارطة راح يكون معتم. خلّوه شرقي مش غربي. بدّي تغيّروا مطرحة.

وقال لي:

- غيّرنا المطبخ فعلاً. وكان عندها حق.

كلما رأيت بعض المحترفات الحزيبات والواحدة منهن تلوك الجمل الثورية وتسمّعها تسميعاً ازدادت إيماناً بثورة العمل المادي الذي تنجزه أمهاتنا في حياتنا اليومية دون ضجة ودون تنظير.

عندما قرأت سيرة حياة «جياكومتي» أذهلني حديث «إيف بونفوا» عن والدته ودورها في حياته. كانت السيدة أنيتا جياكوميتي ذات شخصية قوية وساحرة:

«كانت هي المركز. هي الحارس المتنبه والصامت. تصون تقاليد حياة بأكملها بمجرد وجودها فقط. هي مصدر قوة الأسرة كلها. هي التي تعرف الأشياء، تقرر الحقائق، تُميّز القيم. وتُحدّد ما الذي على المرء أن يحتاجه، وما الذي عليه أن يقرره. هي التي تعبّر عن وجهة نظرها فتصبح في معظم الحالات أمراً يجب أن يُطاع، سواء في الشؤون اليومية أو في المآزق والأزمات الكبرى».

في أمي كثير من هذه الصفات، بالإضافة إلى جمال مستقرّ يتناسب مع سنواته، ومقدار من الأنثوية التلقائية المختبئة بهدوء

والمتوارية حتى عن وعي صاحبها.

لكن رغبتها في بسط الحماية على الجميع تعكس رغبتها في إبقائنا أطول فترة ممكنة!

وهي عنيدة عناداً كان يثير إعجابنا حيناً لكنه في أحيان أخرى كان يثير التعجب.

أسلمها أبي مقاليد المنزل وإدارة شؤون حياتنا. ترك لها كل القرارات الحاسمة والجوهرية. واكتفى بالموافقة. كان يكبرها بخمس عشرة سنة. أبي هادئ الشخصية، إلى حد لم يستطع معه مجاراة إيقاعها الناري ومبادرتها الفؤارة. وساهمت طيبته الفائقة في معاملتها بسماحة وإقرار. كان يرى أن الصواب هو ما تقرره هي. انه لم ينل لقب «الحنون» عبثاً فقد كان وديعاً. وكان، بصره الهندي مقتنعاً بالحياة كما هي.

أما أمي فلا حدَ لطموحها.

ما لم تتمكن هي من تحقيقه تتوقع أن يحققه أولادها. وما لم نحققه نحن تتوقع أن يحققه أحفادها. وهي على ثقة دائماً أن «المرء يستطيع إذا أراد».

وما تزال إلى الآن، وقد تجاوزت الخامسة والسبعين من العمر، روحاً متمردة على كل نزمت اجتماعي. ولا تكف عن العمل في المنزل وحديقته الصغيرة، تزرع وتسقي وتبني الأسوار الصغيرة وتنقل يديها الحجارة التي تحتاجها لبناء مدرج صغير هنا أو تخطيط برواز لحوض الورود هناك. ويدها خضراء. لا تزرع عوداً في الحديقة أو في قِوَارٍ إلا ويعيش وينمو «ويفرعن». وعندما تحدثك عن أشجارها في الحديقة تقول لك:

- هذه الشجرة «جاهلة».

أي أنها ما تزال أصغر سنّاً من أن تثمر.

أو تقول:

- شجرة «هيلة»

عندما تكون كبيرة ويتأخر إثمارها.

كلما زارنا ضيف عزيز قدمت له شتلة من الريحان أو العطرة أو الدوالي أو السجادة أو الجاردينيا فإذا ذبلت في بيوتهم، أعادوها لها كي ترعاها و«تعالجها»، فتنمو بالفعل مرة أخرى.

كان لستي ام عطا شقيقة وحيدة تزوجها الخال أبو فخري. ورثنا حبه والتعلق به لأنه وقف بكل طاقته الى جانبها وقدم لأمي وشقيقها حنان الأب دون تسلط الآباء. أخذت ستي طفلها وأقامت مع شقيقتها أم فخري وكان هو الذي يرعى الأسرتين ويتحمل مسؤولية الجميع في الحلوة والمرة.

استيقظوا أمامي بحكاياتهم الرائعة. بحكاياتهم الشريرة. أقصد في الوقت ذاته. كانوا أبناء خصالهم وزمانهم.

كنت أراهم في حلقة الدبكة متشابكي الأكتاف يرفعون كوفياتهم البيضاء لتموج عاليا في هواء الساحة، القاسي منهم والحنون، الكريم منهم والبخیل، يرقصون على بحة شبابة القصب، فرحين بشباب يزوجونه أو بعروس تدخل قريتهم، متشابهين متوازنين كأسنان المشط.

وكان علينا أن ننتظر طويلاً قبل أن تعلمنا الحياة عبر رحلتنا الطويلة باتجاه الحكمة والحزن، أنه حتى أسنان المشط، لا تتشابه في الواقع!

عمو بابا

في الصباح ذهبت بصحبة « أبو حازم » لتتفرّج على دار خالي
« أبو فخري »

- شو بدكم ؟

صاح بنا صوت شاب أطل علينا من شرفة بناية مجاورة .

أجابه أبو حازم :

- هذه دار قرايينا . بدنا نشوفها مش أكثر .

استوقفتني إجابة الشاب عندما قال :

- لكن إحنا معنا عقد ايجار رسمي !

الطوابق الثلاثة ذات الأقواس ، الحجر الأبيض المدقوق ،

حديقة الليمون الصغيرة بجوار الدار ببوابتها الحديدية اللطيفة كلها

مكسوة بالصدأ . من الواضح ان يدأ لم تمتد لصيانتها منذ 1967 .

- تفضلوا .

أضاف الشاب . شكرناه وغادرنا المكان .

ارتياحه بنوايانا أمر مفهوم . الكل خائف على ما لديه هنا .

كثيرون سجلوا ممتلكاتهم في البلاد بأسماء أقربائهم حتى لا

بصادرها الإحتلال بحجة أنها أملاك غائبين . هكذا تم إنقاذ الأراضي والمنازل الفلسطينية التي يعمل أصحابها في الشتات . هكذا تم الاعتناء بغراس الزيتون ورعاية التربة من حرارة وقلب وثنى وتمشيط وتعشيب وري النخ . ولولا الثقة المتبادلة بين المغادرين والمقيمين لصادرت إسرائيل كل شيء .

وللحقيقة فإن بعض الأفراد من الطرفين كان يتصرف في هذه الدنيا على أساس أن عودة الغائب معجزة لن تتحقق . زَهَدَ بعضُ الغائبين في متابعة شؤون مستحقّاتهم وممتلكاتهم . وزَهَدَ أهلُ الداخل في الإيفاء بتلك المستحقّات أحياناً .

والى جانب قصص الوفاء الباهرة ، والتزام المقيمين بحقوق الغائبين دون تعهدات مكتوبة أو توكيلات قانونية ، إلا أن القليل منهم استولى بالفعل على ما أوّمن عليه ، ويرفض الآن أن يعيده لصاحبه الأصلي . (الحياة تستعصي على التبسيط كما ترون!) هناك عدد قليل من المقيمين يخشى مطالبة العائدين بما كان لهم قبل الإحتلال ، من زيتونٍ أو بيوتٍ أو شققي أُجْرَتْ بأرخص الأسعار ، لمجرد بقاء السكان فيها كنوع من حمايتِها .

أذهلني ما قاله أبو باسل الذي جاء مع من جاء للسلام عليّ ، من أنه كان سَجِّلَ بيتهُ وأرضاً له باسم أخته أثناء عمله في السعودية . وعندما حصل على لَم شمل وعاد الى دير غسانة اكتشف أن شقيقته سجلت البيت والأرض باسم أبنائها هي ولم يجد لنفسه مكاناً يقيم فيه . لا أحد يرضى أن يلجأ لمحاكم الإحتلال أيا كان السبب ومهما كانت الخسارة . لكن الضغائن تزايد بين أفراد العائلة الواحدة هذه الأيام .

منذ بدأ البعض في الرجوع الى فلسطين بعد الاتفاقية مباشرة سمعنا عن حالات مماثلة لحالة أبي باسل . حتى انني مع بعض الأصدقاء قررنا أن الوضع يغري بكتابة مسرحية فكاهية حول تبدل

مصائر بعض الناس الذين نعرفهم نتيجة للوضع الجديد وأخذ كل واحد منا يضيف سطرأ الى ما يقوله الآخر :

- يعود فلان الى دير غسانة ويطالب ابن عمه باعادة حقل الزيتون الذي كان يتعهده .مقابل أجر معلوم،
- لكن صاحبنا الذي ذاق طعم الملكية لثلاثين عاما واستحلى مذاقها يقول له بهدوء :

- لا شئ لك عندي بلط البحر او اضرب رأسك في الحائط اذا شئت .

- سكتة قلبية على الفور .

- الزوجة تشاهد زوجها ميتا فتجنّ .

- الأولاد يرون أمهم جئت لموت أبيهم فيقتلون ابن عمهم .

- العم العجوز يرى هذه المجزرة الشكسبيرية في دير غسانة فيتنحّر بصفيحة كاملة من الكاز يذلّقها على رأسه .

- الكاز ينتشر الى أركان البيت، فالبيوت، فالمضافة،

فالضيوف، فالبيادر القريبة، دير غسانة تحترق .

- على وزن باريس تحترق!

- خيالك واسع .

قال أبو عوض ونحن نلعب الورق في ليلة أغلق الثلج فيها

عمّان وصاح :

- طرنيب! .

وسألني :

- صحيح انكم كنتم تلعبوا طرنيب في بيروت؟ في عز الحرب

الأهلية؟

- نعم . صحيح . قلت له .

- والله ما بتستحوا . طرنيب؟! .



كنا بالفعل لا نجد ما نفعله في ليالي القصف وحواجز الطرقات
والذبح على الهوية سوى لعب الورق . أقول للدرهللي وأنا أطرب
الآس البستوني الذي يعتز به :

- يا عيني على ستي ام عطا . لعلها الآن تنظر الى السماء في
صلاتها وتدعو : الله ينصره مريد ابن سكيئة ويحميه من أولاد
الحرام مطرح ما يكون بحق جاه الله والمصطفى !
فيرد الدرهللي قائلاً :

- لعل أُمي تقول يا ترى الدرهللي دفيان؟ ياترى كيف عايش
هناك؟ عنده غطا بها البرد؟ الله يحميه وينجيه . الله مع الشباب
كلهم . افتحي لنا ها الراديو يا فاطمة تا نسمع اخبار الشباب . . .
طربيب !



الحروب الطويلة تولد السام . ذات ليلة تباريت مع رسمي
أبو علي في تعداد كل المرادفات الشعبية في اللهجات الفلسطينية
المحلقة لكلمة «صَفَعَه» أي ضربه بالكف . كانت الكهرياء مقطوعة
طبعاً ، وكل واحد منا في سريره يخاطب الآخر دون أن يراه .
لم نترك كلمة الا تذكرناها . يقول لي تصبح على خير ونسكت
لثوان ، فإذا بأحدنا يتذكر مفردة طازجة فيرفع اللحاف عن وجهه
بحركة مظفرة ويصيح بالآخر : «سَنُه كَفْ» مثلاً ، وتبدأ دورة
الاجتهاد مرة أخرى .

كنا قد أتينا في تلك الليلة على جَبَدَه وَقَهْدَه وَرَزَعَه ولاحه
وَشَقَه وَهَقَه وَسَنَدَه وَلَقَه وَلَطَه وَرَنَه وَسَفَقَه وَنَدَقَه وزاحه وَهَبَدَه
وَرَقَعَه وَلَحَه وَقَفَعَه وَلَهَقَه وَطَجَه وَمَزَعَه وَشَمَطَه ونارله الخ .

كان يشاركني الشقة جرد هائل الحجم لم تنفع معه كل حروب
الابادة التي خضتها ضده . والشقة بلا تدفئة ولا سجاد . كان
الموهوبون في تدبير أمورهم الشخصية دائماً يقيمون في شقتي فخمة

لها مصاعدٌ ومولّدٌ كهربائيٌ احتياطيٌ .

لكن التوتر كان من نصيب الجميع .

شقيقي الأصغر علاء الذي يسكن في منزل الطلبة التابع للجامعة الأمريكية، وُنهي عامه الأخير في كلية الهندسة من الصعب أن أراه يومياً . اذا زارني حملت همّ عودته الى الحمرا واذا زرتة كرهت أن أحمله همّ عودتي الى الفاكهاني . فهيم ابن خالي عطا أصابت رأسه شظية في الشّياح بعد مغادرتي بيروت، واستشهد بعد اصابته بأيام . لم يتجاوز العشرين الا بستين .

فيما بعد علمت كيف أطلعوا خالي على الخبر .

اتصل به علاء تليفونياً من بيروت وكان خالي في الكويت . قال علاء محاولاً تخفيف الخبر وتمهيد خالي لتقبّله بالتدرّج :

- يا خالي أنا باتّصل من شان أطمّنك على فهيم . صابته رصاصة طائشة امبارح بس الحمد لله الدكاترة طمنونا وان شاء الله يقوم بالسلامة .

فإذا بخالي يقول بكل هدوء :

- وين بدكم تدفنوه؟

شقيقته إلهام ونجوى وشقيقه محمود وشقيقي علاء وضعوه في تابوت وحملوه بالطائرة الى الكويت حيث دفنوه في مقبرة الصليخات هناك .

أمهرست، ماساتشوستس في الولايات المتحدة . كنا نستعد لسفر قصير لتلبية دعوة من البروفيسور سيدني كابلن (كان يصّر على أن أناديه سيد) الى العشاء احتفالاً بحصول رضوى على الدكتوراة باشرافه عندما رن جرس الهاتف في شقتنا .

جاء صوت منيف موجزاً جداً:

- فهم استشهد اليوم في بيروت.

منيف يتحدث من قَطْرَ معي في أمريكا عن استشهاد فهم في بيروت ودَفْنِهِ في الكويت وضرورة تبليغ ستي ام عطا في دير غسانة، وجدته لأمه في نابلس، وأمي في الأردن. ورضوى وأنا نؤكد حجزنا للعودة عبر روما الى القاهرة.

رأت رضوى ان نكون بصحبة كابلن وزوجته ومايكل ثلويل بدلا من قضاء الليلة وحدنا في هذه القارة.

الجميع في غاية اللطف معنا. العشاء الذي أعدته إيمًا يعكس اجتهادها الاستثنائي لاعداد عشاء أنيق يليق بغرباء.

الجو عائلي دافئ والحديث سلس وحميم. رضوى على حق. مع الأصدقاء تخف وطأة الحزن. تسللت الى دورة المياه في بيت كابلن. بذلت كل جهد ممكن، لكن الصوت المصاحب للقيء.

ولم يكن كل شيء محزنًا في تلك الأمسية ولا في فترة إقامتنا الأمريكية.

كان التعرف الى الكتاب الأفارقة والأفرو أمريكيين مناسبة لمعرفة النموذج الأقرب لأجوائنا وهمومنا الثقافية والسياسية كعرب، وهو الجو العفقي المناهض للمؤسسة الأمريكية المهيمنة.

في بيت ثلويل تناولت أفضل وأغرب إفطار تناولته في حياتي. دعانا رضوى وأنا صباحا وكان إفطارنا الذي أعده بنفسه، فهو طباط ماهر، عبارة عن شرائح من المانجو المقلية وشرائح من السمك المشوي بالإضافة الى الأجبان والقهوة. على تلك المائدة تعرفنا بستوكلي كارمايكل مؤلف كتاب «القوة السوداء». كما عرّفني رضوى على تشينو آشبي الروائي النيجيري صاحب الرواية البديعة

«الاشياء تتداعى» وزوجته. وكان أشيبي يلقي محاضراته في الجامعة في تلك الأيام.

أما الشاعر جوليوس ليستر فقد ترجم بالإشتراك مع رضوى قصيدة طويلة لي عنوانها «سعيد القروي وحلوة النبع».

على العشاء في بيت كابيلن، وكانت رضوى عرضت عليه ترجمة القصيدة قال إنها «وتمانيسك»، فقالت زوجته ان هذا أقصى ما يستطيع سيد أن يمتدح به قصيدة، فهو يعبد والت وتمان.

شعرت بالزهر آنذاك طبعاً. وإن كنت بحساسيتي الراحنة أرى أن القصيدة لم تكن تستحق ذلك الثناء على الإطلاق!

في تلك الليلة في بيت «ابو حازم» حاولت أن أحصي قبل النوم عدد البيوت التي عشت فيها فوصلت الى رقم الثلاثين.

على البرندة أخبرتني فدوى أن ام خليل ستأتي للسلام عليّ بعد انتهاء عملها، وأن ساجي هنا وسيحضر معها أيضاً. وأضاف أبو حازم أن بشير البرغوثي اتصل هذا الصباح ووجه للجميع الدعوة للعشاء في بيته. اتصلتُ ابنتها سوسن من عمان وأخّتها ليلي من أمريكا. التليفون، بعد انقراض زمن الرسائل، هو الرابطة المقدسة بين الفلسطينيين!

في الضفة وغزة تطور التليفون فأصبح يليفوناً محمولاً ومتنقلاً في جيوب مسؤولي السلطة الوليدة بشكل يثير استغراز المواطنين العاديين. إنهم مستغزون رغم علمهم ان الخطوط العادية غير متوفرة في الضفة الغربية وغزة وأن في هذه المسألة نوعاً من أنواع الإضرار.

غير أن قرائن أخرى تساهم في إثارتهم. نوعية البيوت التي

يشترىها الوزراء والوكلاء والمدراء العامون أوحى تلك التي يستأجرونها بأسعار عالية. السيارات الفخمة التي يركبونها. ومظاهر سيادتهم الشخصية التي لا تتناسب مع غياب سيادتهم الوطنية ولا مع مظهر سيادة الفلسطينيين عموماً ضمن ترتيبات أو سلو العجيبة.

كلما كانت قناعة النفس أصيلة نظر الناس الى الجانب العملي في وظيفة السلعة. فالسيارة عند البعض منزلة شخصية وعند البعض الآخر حذاء يستخدم لقطع المسافات وينقلنا من مكان الى آخر. آخر مظاهر القوة وعلو المكانة عند المحدثين العرب هو البيليفون!

في بيروت كانت الأبهة تتجلى على إلية الشخص حيث يتدلى المسدس من حزام مراهق الحرب الأهلية والصحفي والكاتب والموظف وعضو الحزب أو الفصيل الخ.

أما السيارات، فيبدو ان لا شفاء من سطوتها الآن أوفي المستقبل. خصوصاً والاضافات والكماليات فيها تتطور سنوياً: فهل يستوي الذي في سيارته «بالون هوائي» والذي تخلو سيارته من البالون؟ وهل يستوي الذي لديه سائق والبائس الذي يسوق سيارته بنفسه؟

كل هذه التدايعات التي هي خارج الموضوع (ما هو الموضوع؟) مرت في جزء صامت من الثانية، تمهيدا فيما يبدو للمثل المغربي الذي أسمعتة لفدوى و«أبو حازم» على «البرندة» والذي يقول: (الله يرحمنا من المشتاق إذا ذاق!)



بعد الظهر وصلت ام خليل وساجي. ساجي زميل الدراسة في القاهرة. لكنني لم أذكر أنني التقيت به إلا مرات قليلة هناك رغم أننا في نفس الجامعة ونفس الكلية وفي قسم اللغة الانجليزية

وآدابها أيضا! كان يخصصُ معظمَ وقته آنذاك للعمل السياسي والطلابي. ساجي خُلِقَ للسياسة. كان مهتماً باتحاد الطلبة والحياة الحزبية السرية التي استحوذت على اهتمام طلاب كثيرين في القاهرة آنذاك. ولم أكن أجاريهم في ذلك.

لم أعزِ للعمل السياسي أدنى اهتمام أيام القاهرة، ولم اكن ادرك أهدافهم ومراميهم. كنت أدرس المواد المقررة بسعادة واستغراق. منها تعرفت على تشيكوف و ت. س. اليوت وشكسبير وبزبخت والحضارة اليونانية وعصر النهضة ومدرسة النقد الجديد الخ. تخلّيتُ لأول مرة عن كتابة الشعر العمودي وبدأت أجرب كتابة قصيدة التفعيلة.

كان منيف يحوّل لي من قطر حيث يعمل ما قيمته ثمانية عشر جنيهًا مصريًا شهريًا. أدفع منها تسعة جنيهات للسكن، وبالتسعة المتبقية أستطيع أن أفي بالضرورات المعيشية، وأن أذهب الى دار الأوبرا مساء كل يوم سبت، للإستماع الى أوركسترا القاهرة السيمفوني (كانت تذكرة الدخول بتسعة عشر قرشا) وارتياذ المسرح القومي والمسارح الأخرى. وقد كتب لي في رسالته الأولى بعد التحاقى بالجامعة انه يشترط ان لا أحوّل الدولارات التي تصلني منه إلا في البنوك الرسمية المصرية:

- إذا علمتُ يوماً أنك تحول نقودك في السوق السوداء فستعود الى رام الله فوراً. انك الآن في أول شبابك. واذا بدأت حياتك بالإلتواء فلن تستقيم أبداً.

كان منيف عندما كتب لي هذه الرسالة في الثانية والعشرين من عمره فقط!



كنت في سنوات دراستي الجامعية أحدث زميلاتي وزملائي عن «أخوي الكبير» منيف وأطلعهم على بعض أخباره التي تصل في رسائله المنتظمة اليّ. وذات مرّة أطلعت رضوى على صورة له فكان تعليقها المباشر:

- الله! بس ده وَلَدًا! وانت تقول أخوي الكبير أخوي الكبير! افتكرته راجل عجوز، ده قَدَك وشكله أصغر منك!

وبعد ذلك بسنوات، عندما تزوجنا وتعرّفت اليه، تعزز احساسها بعذوبته وطفولته المحببة. منيف كان يكبرني بثلاث سنوات فقط. فقد ولد في أريحا عام 1941 وولدت أنا في دير غسانة عام 1944.

«أخوي الكبير» كان لفظاً يعكس دوره ونضجه الانساني ومسؤوليته التي كانت أكبر من عمره.

* * *

لا بد من أن أعترف بعدم اهتمامي في تلك الفترة بالسياسة أنا الفلسطيني ابن النكبة. ذهبت مرّة أو مرّتين الى مناسبات سياسية دُعيتُ إليها كطالب. وكان ذلك في مقرّ الإتحاد العام لطلبة فلسطين في شارع جواد حسني، لكنني شعرتُ أنني لا أنتمي لتلك الأجواء مطلقاً وأنني لا أصلح لها ولا تصلح لي. لم أكرّر التجربة.

وبعد ذلك بسنوات، ومع تطوّر الأحداث ووقوع الهزيمة وبزوغ فصائل المقاومة المتعددة، أدركتُ أنّ سنوات دراستي في القاهرة بين 1963 و 1967 كانت هي ذاتها سنوات التكوين السري لمنظمات الكفاح الفلسطيني المسلّح من فتح وحركة القوميين العرب وغيرها، وأن ذلك كان يتم في إطار اتحاد الطلاب. وان أولئك الطلبة الذين كانوا يدعونني إلى أنشطتهم السياسية بحذر وحصافة، كانوا يقومون بأمورٍ عظيمة الأهمية. ولا بدّ أنني كنتُ

إنما ساذجا جداً في نظرهم أو جباناً. وأسفتُ كثيراً على صورتي
تلك.

وحتى لو كنتُ أدركتُ طبيعة ما يقومون به هل كنت ياترى
سألتني توقعاتهم وأنخرط معهم؟ لا أدري.

من العيوب التي يمكن لوم والدتي عليها هي أنها علمتنا الحذر
المبالغ به من التعرض لأيّة مخاطر مهما كان نوعها. لدرجة أننا لا
نعرف إلى اليوم ركوب البسكليت. كانت تخشى سقوط أحدنا عنه
والتسبب في كسر يد أو رجل.

بعد ذلك كنت أنظر لأولئك الزملاء والأقرباء الذين أصبحوا
فدائيين أنهم خُلِقوا بحيث يصلحون للبطولة بينما لا تتوفر لديّ
مُقوماتها. لا بدّ أنهم نوع أفضل من البشر.

ساجي واصلَ عمله السياسي؛ وأصبح عضواً في المكتب
السياسي في الجبهة الديمقراطية بعد ذلك. والدته الخالة ام خليل
سمع بها العالم عندما رشّحت نفسها لرئاسة السلطة الفلسطينية
منافسةً وحيدةً للرئيس عرفات.

اتفقنا أن أزور في الصباح مقرّ جمعية انعاش الأسيرة التي
ترأسها. واتفقتُ مع ساجي ووليد أن نخرج معاً في جولة مسائية
في رام الله في اليوم نفسه.

في المساء ذهبنا للعشاء في بيت بشير البرغوثي.

- طريق اوسلو قد تقودنا الى الإستقلال وقد تقودنا الى
الجحيم. وعلينا أن نطوّر أداءنا في كل شيء اذا أردنا تجنب المصير
الثاني.

يقول بشير.

إنه يملك معرفة جيدة بالأوضاع الجديدة. فهو مقيم في البلاد

ورئيس تحرير مجلة الطليعة والأمين العام لحزب الشعب الفلسطيني وأصبح قبل أيام وزير الصناعة في السلطة الفلسطينية الوليدة. لبشير وجه متأمل هادئ وهو في العادة قليل الكلام ولكن لا مفر في مثل هذه السهرات من استعراض شريط فكاهات ظرفاء دير غسانة. وكان في السهرة زوجته وابنها نبيل وأختها نهى زميلة أيام المدرسة في رام الله وأبنائها وأنيس وحسام وأبو حازم. لم أر نهى منذ الـ 67. لكنني كنت أسمع عن نشاطاتها التطوعية من فنلنديات وأوروبيات من جنسيات عديدة شاركنها بعض النشاطات التطوعية في البلاد.

في صباح اليوم التالي جاءت مليحة النابلسية التي كانت جارة لنا في عمارة الحاجّة ام اسماعيل مع اثنين من أولادها الثمانية. قلت لها:

- ارتحتِ من جرجرة اليهود للأولاد الى المعتقلات يا حجة مليحة.

- الحمد لله يا إبني. والله زهقت. يفرجو عن واحد ويحبسو اثنين. وروحي يا مليحة أسألي في أي معتقل وأي بلد حظّوهم ومسموح بالزيارة ولاّ مش مسموح بالزيارة. الروماتزم أهلكني بعيد عنك. بس بيني وبينك أيام الانتفاضة كانت الدنيا أحسن. شو رأيك؟

- بالفعل الدنيا كانت أحسن..

- بالك بدهم ينسحبو عن جد؟ والله هذا نتنياهو لا بتعرف تاخذ منه حق ولا باطل. هَذَا ملعون والدين اترو بتعرفوهوش. ولما سالتها اذا كان يبريز أحسن منه أشاحت بيدها:
- الاثنين أنحسن من بعض.
ثم أضافت بعد تردد راجع لحياتها مما ستقول:

- كلهم اولاد حرام.

لمليحة ثمانية أولاد استشهد أبوهم في ثاني سنة من سنين
الإنفاضة، وهي في عزّها.

- نشكر الله انه استشهد في أولها. كنا متحمسين. معنوياتنا في
السما. فوق الريح. تحملت موته. قلت زيه زي غيره. لو مات
في أواخرها كان فقعت وطقيت. مسخوها في الآخر يا بنتي. والله
العظيم لعبوا فيها عن قصد ولغوصوها من شان الناس تنبسط على
توقيفها. شو رأيك؟

ولما قلت لها إن المنظمة تدفع مساعدات مالية لأسر الشهداء
سارعت بالقول:

- المنظمة مش مِنتَظِمة. شهر بيدفعو وعشرة لأ. يقولوا الدول
لا تساعدهم. الله مع الجميع. كانوا بيعطوا خمسين دولار في
الشهر لما يكون معهم مصاري. مستورة والحمد لله.

* * *

من أكثر ما يسبب الخرج أن يزدحم بيت المضيف بضيوف
الضيف، الذين يأتون للسلام عليه. البعض بدافع الواجب والبعض
بدافع المحبة. «على قلبي مثل العسل» كان يقول أبو حازم وتثني
على كلامه فدوى. بعض الأصدقاء كان يأتي للسلام علي قرب
منتصف الليل أحياناً، وكنت أخرج من اضطارهما للسهر الى أبعاد
مما اعتادا.

كان لا بد من مناسبة لطرق موضوع الفنادق أصلاً دون أن
تسبب في جرح إحساس أبو حازم.

حانت الفرصة عندما أردت أن أطلب تاكسي لأذهب الى «فندق
رام الله» للقاء محمود درويش الذي وصل من عمان في اليوم
السابق.

قلت له:

- لو وجدت غرفة في الفندق يا «أبو حازم» فسيكون ذلك أفضل لي ولبرامجي الملخبطة والمرجلة التي يصعب تنظيمها بشكل يريح الجميع.

أنهيت جملتي فجئ جنون فدوى وأبو حازم معاً وتأتى علي أن أعذر لهما عن مجرد التفكير في ذلك.

ذهبت بالتاكسي والتقيت بمحمود وتحديثنا في أمور كثيرة بينها احتمال عودة مجلة «الكرمل» للصدور من رام الله. بعد ذلك ذهبت الى موعدي مع ام خليل في جمعية إتعاش الأسرة.

أنهيتُ جولتي في اقسام الجمعية، تفصيل، تطوير يدوي، جِرف، تعليب وتغليف وإعداد الأطعمة. بنات وأبناء الشهداء والمعتقلين والأسرى يتعلمون هنا أن يعملوا ويعيلوا أسرهم. السنارتان في اليد تتحركان برأسيهما الفضيين بالإيقاع ذاته وبالسرية ذاتها التي تتبادل بها عصفورتا الحُب قبلاّت مستعجلة وفرحة.

سنارتان تسحبان خلفهما خيطاً رائع اللون، تريدان الفرار منه أو كأنهما تريدان الفرار منه ولا تفرّان إلا إلى رقعة الكنزة البديعة التكوين أو المفروش الصوفي البهيج الألوان أو الشال الذي يحمل دفء الجسد وزينة الأكتاف.

أصابع الفتيات، في جهة أخرى، تتنقل بالإبرة التي تمزج اللون باللون والغرزة بالغرزة لأسابيع متصلة حتى تتخذ شكلاً يتكامل كل يوم وينمو ويتكاثر على القماش الذي يطالب بالمزيد، الى أن يخرج في نهاية العمل ثوباً فلسطينياً مطرّزاً بعشرات الآلاف من الوحدات الملونة بألوان هي الدهشة ذاتها.

منحوتات من خشب الزيتون، من الفضة، من الشمع، من الزجاج، مرايا بإطارات مطرّزة، ملابس للأطفال والرجال والنساء، مطبخ ضخم ينتج مئات الوجبات من كل الأصناف لتوفير جهد

الأسر التي يعمل طرفاها خارج البيت. بيانو. عود. ناي. دبكة. أناشيد. فرق رقص تعبيرى. أغاني ريفية وشعبية. وأنشطة تربية عديدة أخرى.

منذ أكثر من ثلاثين سنة والجمعية تساعد من يحتاجها وتحصل على ميزانيتها من التبرعات التي يقدمها الأثرياء ورجال الأعمال الفلسطينيين والعرب وبعض المساعدات من بعض الدول العربية. كانت أم خليل قد أسست الجمعية قبل سقوط رام الله في يد الاحتلال الإسرائيلي عام 67 بعامين أو ثلاثة.

كانت جولتي قد بدأت بمشاهدة متحف التراث الشعبي الفلسطيني الذي تستعد الجمعية لافتتاحه بعد أيام وانتهت في مكتب ام خليل.

ثم كانت المفاجأة اللطيفة قبل مغادرتي مقر الجمعية. فرقة كورال الأطفال في الجمعية الذين خصصت لهم قاعة للتدريب والعروض، رقصوا وغنوا تحية لي، ترافقهم السيدة طرزي على البيانو. كان المشهد مؤثراً وجميلاً.

استقطب هذا الجهد الأهلي العريق اهتمام المجتمع الفلسطيني في البلاد كلها وليس في رام الله والبيرة فحسب.

نجحت الجمعية في خلق فرص عمل كريم للمئات من المحتاجين. والسهر على تنمية المواهب الفنية والأدبية لمئات الأطفال. بدأت الجمعية صغيرة وأخذت تنمو على مهل وبالتدريج فانسعت مجالاتها وكبرت مبانيها وما تزال نموذجاً على جدوى النشاط الأهلي الذي يبادر به أبناء الواقع المحلي. فهم أدركوا الناس به وبظروفه وحاجاته المتغيرة باستمرار.

في المساء، خرجتُ الى الجولة المنتظرة مع وليد وساجي في ليل رام الله. قبلها خرجتُ مع أبو يعقوب ووسيم في جولة سابقة،

واصطحبني أنيس وحسام أكثر من مرة، كما تجولتُ وحدي مرتين. في كل الحالات، كان من يرانا ونحن نتجول في شوارع رام الله أو نتحدث على مائدة في أحد مقاهيها يظننا شلة سعيدة من الأصدقاء لكثرة ما نضحك بصوت عال. المسألة أكثر تعقيدا مما تبدو عليه.

هذه اذاً رام الله التسعينات وليست رام الله الستينات. لم أكن لأعرف تفاصيلها المستجدة بدون شروحات الأصدقاء. من الطبيعي أن يتغير شكل المدينة في عينٍ مَنْ فارَقَها طويلاً. الأصدقاء منزعجون من انتشار العمارات الاسمنتية الشاهقة في كل مكان.

رام الله بالنسبة لأهلها هي تلك البيوت المسقوفة بالقرميد المشمشي اللون والحدائق المحيطة بها، والمتزهات ذات النوافير، وشارع الإذاعة أو شارع العشاق كما كنا نسميه، بأشجاره الباذخة على الجانبين، والمطلّ على تلال خضراء تنتهي في الساحل الفلسطيني الذي يمكن مشاهدة أضوائه بالعين في الليالي الصافية. لم أشاركهم الإنزعاج. انها سنة التطور وثمر نمو المدينة.

بل إن نقمتنا على الإحتلال راجعة أساسا لكونه يوقف نمو مدننا ونمو مجتمعاتنا ونمو أناقة الحياة عن طريق إعاقه سياقتها الطبيعي.

في هذه الجولة والجولات السابقة رأيت معظم أماكني، مدرسة رام الله الثانوية، ملعبها، مكتبها التي قرأت فيها كتاب الأغاني، ممراتها بأقواسه المتجاورة. رام الله القديمة. بطن الهوا. كنيسة الله. طريق نابلس. جامع جمال عبد الناصر، المنارة. سألتهم عن منتزه نقوم قالوا راح. قامت في مكانه عمارة عالية ومحلات تجارية جديدة.

لم أستطع التعرف على بيت فؤاد طنوس وعادل النجار وباسم

خوري الذين تقاسمت معهم شقة واسعة في الدقي بالقاهرة في السنة الجامعية الثالثة ولكنني عرفت بيت رامي النشاشيبي زميلنا الرابع لأنه كان يسكن في نفس العمارة التي يسكنها عمر الصالح البرغوثي ومقابل دار خالي أبو فخري.

من الأمور الجميلة في رام الله انها مجتمعٌ رحبٌ وشفاف، نسيجه مسيحيّ إسلامي، تتمازج فيه طقوسُ أصحاب الديانتين، بشكلٍ تلقائيٍّ بديع. شوارعها ومحلاتها ومؤسساتها كلها تتزين بزينة الكريسماس ورأس السنة ورمضان وعيد الفطر والفصح والأضحى. رام الله لا تعرف اسئلة المذاهب والطوائف والمعتقدات. منتزه رام الله وبوظة ركب التي تحسّ بمذاقها الخاص بها بمجرد ذكر اسمها أو مشاهدة حروفها مكتوبة على لوحة إعلانيّة. الشرطة الفلسطينية تنظم المرور بكفاءة وتُفكِّفُ اختناقاته عند المئارة. قيل لي إنه منذ تعطيل الاحتلال للبلديات، أصبحت المدن شبيهة بالمزابل لكن النظافة عادت الآن كما عرفناها دائماً سمة من السمات المميزة لرام الله. لكن الخضرة شحّت لأن اسرائيل تسرق المياه منذ الـ 67. ورغم ذلك، الخضرة تُقاومُ.

حديث السياسة والتكهن بتطورات الأحداث لا ينتهي. وسيظل كذلك الى جُفَيّ طويلة. السياسة تسربت الى منمنمات النفس الجوانيّة عند رجالنا ونسائنا منذ وقف المشروع الصهيوني يدق على زجاج نوافذنا بأظافره الحادة ثم على الأبواب التي ركلها ليدخل الى غرف الدار كلها ويلقي بنا الى الصحراء.

كنت متفقاً مع مُحدِّثي في أن هذا الوضع ليس مبرراً كافياً للمباشرة السياسية والانكشاف الفكري في الشعر الفلسطيني لا في داخل الوطن ولا خارجه. ولاستغراب الجميع قلت ان الفكاهة والسخرية عنصران لا بد منهما للكتابة العربية والفلسطينية. إن واقعنا المأساوي لا يُنتِجُ كتابةً مأساوية بحته.

نحن في هزل تاريخي وجغرافي أصيل أيضا! أليس كذلك؟
الفنانون التشكيليون في الداخل تجاوزوا هذا المنزل وقدموا
نماذج ممتازة فنيا وجماليا دون التخلي عن املاءات الوضع العام
وخصوصيته. تكررت الشكوى من انعدام فرص الاطلاع على
الكتب والدواوين المطبوعة خارج البلاد. والعزلة عن الثقافة العربية
والعالمية وغياب فرص الاحتكاك بالكتاب العرب عموماً.
للفلسطيني مباهجه أيضا. له مَسْرَاتُهُ الى جانب أحزانه. له
نقائض الحياة المدهشة لأنه كائن حي، قبل أن يكون ابن نشرة أبناء
الساعة الثامنة!

في قصص الانتفاضة التي يتناقلها الناس هنا تلتقي هذه
النقائض. أحد الظرفاء من دير غسانة عرفناه منذ الطفولة محروق
الخد و كان يجادل حلاق القرية يوسف الجبين في دفع نصف
الأجرة لأنه يخلق له جانبا واحدا من وجهه فقط، سافر الى
الامارات لزيارة أقربائه هناك وأخذ يشرح لضيوفهم كيف ان وجهه
احترق (في الانتفاضة يا خال!). كانت تلك طريقته في السخرية
من القيادات التلفزيونية التي «فبركوها» لتفرغ الانتفاضة الشعبية من
محتواها.

أتذكر الآن الفيلم التسجيلي الذي أخرجه الصديق أنيس
البرغوثي (من قرية كوبر) عن فلاحه رائدة من بطلات الانتفاضة من
بلدهم اسمها فرحة.

يبدى لها الجندي الاسرائيلي دهشته من أمر يتكرر بالفعل على
امتداد سنوات الانتفاضة وهو انه عندما ترى النساء شاباً مقبوضا
عليه من قبل جنود إسرائيل يهاجمن الجندي وتصيح أكثر من
واحدة منهن:

- إبنى إبنى اتركو إبنى!

صرخ الجندي في وجهها وهو يجرجر الشاب:

- روخي كذابة، كم أم لولد واحد؟ مئة أم لولد واحد؟! إمشي من هون. يالله.

صرخت في وجهه:

- أبوة. احنا هيك. الولد عندنا له مئة أم، مش مثل اولادكم، كل ولد له مئة أب!!

ظاهرة المرأة الفلسطينية في الانتفاضة تستحق التمجيد بلا تردد. لكن قصتها الكاملة لم تُكتب بعد.

يتحدثون أيضاً عن تلك السيدة التي لجأ الى منزلها أحد المطاردين الفلسطينيين فخبأته في منزلها سبع سنوات دون أن يدري به أحد. وعن المطلوبين اللائذين في الجبال. عن الزراعة المنزلية والتكافل الاجتماعي والتضحيات اليومية الصغيرة التي تشكل العمود الفقري لما نسميه نحن المثقفين بالبطولة. والجراحات السرية التي يجريها الاطباء المتطوعون لمصابي الانتفاضة حتى لايعتقلوا من داخل المستشفيات.

والى جانب ذلك يتحدثون عن ظاهرة العملاء المتعاونين مع إسرائيل مقابل قروش زهيدة أو امتيازات تافهة. الآن هناك مشكلة إسرائيلية في تدبير مصير آمنٍ لهم ولعائلاتهم، وقد تعهدت لهم بذلك.

يتحدثون أيضاً عن محاكمات منتصف الليل الشفوية والمختزلة التي تقوم بها أجهزة الأمن الفلسطينية أحياناً. وعن العمولات التجارية والكسب المبالغ فيه. وعن مظاهر الفساد الاقتصادي المرافق لعمليات إعادة التعمير والبناء. لكن ضغط أملهم عليهم (والأمل يضغط على صاحبه كما يضغط الأكم) يجعلهم يضيفون في مناسبات كثيرة أثناء الحديث أن مثل هذه التجاوزات يعد طبيعياً ومتوقفاً في البداية. الأمل يقول لهم إن كل السلبات ستنتهي بعد اجتياز هذه المرحلة الصعبة.

الناس مع هذا الحل والناس ضد هذا الحل في الوقت نفسه .
الأغلبية التي مَنَحَتْ أصواتها لياسر عرفات أغلبيةً صحيحةً
وحقيقية .

لكنها أغلبية قُدِّمَتْ لها وعودٌ تاريخية ، وهي تنتظر تحقيقها .
الدقيق أن المجتمع الفلسطيني كله في حالة انتظار .
الفلسطينيون لم يغمضوا أعينهم بعد .

أدهشني ان وسائل الإعلام الفلسطيني لا تعكس هذا الواقع
على الاطلاق . إنها منهكة بتغطيته بالزهور . ولا أدري ان كانت
الزهور مرتبطة بطقوس الحياة فقط !!

* * *

كان وليد يرد على تحية هذا الشاب او تلك الفتاة من المارة
الذين نصادفهم حيثما توجهنا . انه يغني ويعزف على العود ويعمل
في المسرح وهو لم يغادر رام الله أبداً . هذه صبيّة في الفرقة
المسرحية . هذا شاب يتدرب في فريق الرقص . هذا جازنا السابق
الخ الخ . تحدثنا عن قيمة ذلك . قيمة ان يكون الكاتب أو الفنان ابن
محيطه أيضاً . ابن محيطه . . . أساساً .

في أيامنا العجيبة هذه ، أصبح الكاتب العربي يلهث وراء فُرَصِ
الترجمة (للغات الغربية تحديداً) لترفع قيمته المحلية ! كأنه يريد أن
يقراه الإنجليز ليعرفه العرب !

المضحك هو المحزن . هل يحدث ذلك يا ترى عند غيرنا من
الشعوب الآن ؟

دور السينما الثلاث معطلة ومغلقة الأبواب منذ سنوات طويلة .
يافطاتها منزوعة ، والمناطق المحيطة بها مظلمة . المكتبات لا تباع
الكتب . تحولت الى بيع النثریات والحلوى والأدوات المدرسية
البسيطة . لوحات الأرقام على السيارات مختلفة الأشكال والألوان
بعضها يحمل مختصراتٍ عبريةً وبعضها حروفاً عربية . وبالنسبة

لوفد غشيم مثلي كان من الصعب معرفة مغزى ذلك كله .
تَحَدَّثَ ولید عن محاولاته المسرحية . وأبو يعقوب عن عمله
في وكالة الغوث . وساجي عن اعتزاله العمل السياسي والتحاقه
بوظيفة في إحدى شركات التأمين ، بعد أن أنهى دورة تدريبية في
هذا المجال .

تَحَدَّثَ وسيم عن البيت الجميل ذي السقف القرميدي الذي
رسمته وزارة الثقافة وحَوَّلَتْهُ الى «مركز خليل السكاكيني الثقافي»
والذي سيكون مقرّاً لفرق مسرحية وفنية ، ومنتدى للكتاب ؛
وستشغل مجلة الكرمل طابقاً من طوابقه . وأخذوني لرؤية البيت .



شاهدتُ برامج التلفزيون الفلسطيني لأول مرة هنا .
كنا طوال السنوات الماضية نصوغ المسميات التي نفتقدها
كمشردين في بلاد الناس ، من باب الخيال :
الخطوط الجوية الفلسطينية ،
الشرطة الفلسطينية ،
التلفزيون الفلسطيني ،
الحكومة الفلسطينية ، الخ . الخ .
التلفزيون مبسوط من كل شيء ! ككل التلفزيونات العربية !
وكذلك الإذاعة .

سألني المذيع في مقابلة أجريت معي في مقر الإذاعة
الفلسطينية في رام الله :

- ألسنا شعباً معجزة؟ شعباً مختلفاً؟ وطناً مختلفاً؟

قلت له :

- مختلفون عن من بالضبط ! وعن ماذا ! كل الشعوب تحب
أوطانها وكل الشعوب تحارب في سبيلها إذا اقتضى الأمر . الشهداء

يسقطون من أجل قضاياهم العادلة في كل مكان. المعتقلات
والسجون مكتظة بمناضلي العالم الثالث والعالم العربي في
طليعتها. لقد عانينا وقدمنا تضحيات بلا حد. لكننا لسنا أفضل ولا
أسوأ من الآخرين. بلادنا جميلة وكذلك بلدان الآخرين. علاقة
الناس بأوطانهم هي التي تصنع الفروق فإذا كانت علاقات نهب
ورشوة وفساد تأثرت بذلك صورة الوطن.

ولما سألني عن شروط الاذاعة الناجحة قلت:

- إن عليها الإبتعاد عن السُّلطة.

في غرفتي، قبل النوم، تصفحتُ مسودات النصوص التي
أعدّها للنشر بعنوان «منطق الكائنات». استوقفني أنني أسرفتُ قليلاً
في اللجوء الى الفكاهة. لكنني قلت لا بأس. لِيَكُنْ. هي هكذا.
إنها مأساة. نعم. إنها مسخرة. نعم. أقصد في نفس الوقت.

في كل الحوارات، كان المضحك والمبكي يلتقيان في نفس
العبارة الواحدة.

لا أصدّق عيناَ تتجاهل إِبصار المسخرة الملازمة للمأساة .

من المريح دائما أن نصوّر المأساة فيما يقع علينا فقط لا فيما
نفعله بأيدينا أيضا.

الوضع مأساوي لكن المأساة مشوية دائما بالملهاة لأنها بلا
جلال. اننا نسقط على السكت. بدون ذلك الدويّ المصاحب
لسقوط البطل المأساوي في التراجيديا الإغريقية أو الشيكسبيرية.
الماكينة الإعلامية الجهنمية تطمس معنى السقوط، وتصوره لنا
انتصاراتٍ ونُهوراً.

هذا ما لم يكن متاحا في المآسي العتيقة حيث يقول هملت:
«ثمة شيءٌ عَفِئٌ في الدنمارك» وينتهي الأمر.

إنك لم تكن تجد برنامجاً إذاعياً أو تلفزيونياً في الصباح التالي، يقرر لك أنّ المدعو وليام شكسبير رجل تافه ومغرض ولا علاقة له بنضال الشعب وأن كل شيء في الدنمارك على ما يرام وخصوصاً قيادتها الرشيدة! ولن تجد مقالاً في صحف الصباح الشماليّ يضع يديه على خاصرته، ويدلق لسانه الى الأمام، صائحاً في وجه المسكين وليام ابن السيدة أم وليام:

- وما هو البديل يا سيد شكسبير؟

ألم يقل أنور السادات انه سيصفق لمن يستطيع ان يحقق أفضل مما حققه هو بمبادرته التاريخية؟

من أين للتعيس أوديب ببلاغة تنقذه من مأساه بهذه البساطة!

ليس في لغة أوديب حرف الضاد!

أوديب لا يستطيع تحويل الكارثة الى كرنفال أو عيداً

عندما أراد شكسبير أن يكتب التراجيديا على حقيقتها كتب التراجيديا على حقيقتها.

وعندما أراد أن يكتب الكوميديا كتب كتابة مختلفة تماماً عن هملت ولير وماكبث وعطيل. في لغتنا نحن المنفردين بنعمة الضاد (ماذا كنا سنفعل بدونها؟) أصبح مألوفاً أن نقرأ المأساة والملهاة في الصفحة ذاتها. في الواقعة ذاتها. في الإنفاقية ذاتها. في الخطبة ذاتها. في الهزيمة والنصر. في العرس والجنائز. في الوطن وفي المنفى. وفي ملامح وجهنا الواحد كل صباح.

بعد الخروج من بيروت إثر الاجتياح الاسرائيلي، رفع الرسميون الفلسطينيون من اللهجة الإنتصارية في خطابهم العام.

في المجلس الوطني التالي مباشرة، فعلوا الشيء ذاته، وصعدوا لغة المجد، والصمود، والنصر، الى أقصاها (واكتفوا بذلك).

في اجتماع اللجنة الثقافية في المجلس ظننتُ أن ما قلته كان

صادماً للبيروقراطية الثقافية والإعلامية الفلسطينية:

- علمنا التاريخ درسين اثنين: أولهما، أن تصوير الفواجع والخسارات بوصفها انتصاراً هو... أمر ممكن. والدرس الثاني، هو أن ذلك... لا يدوم.
وأضفت:

- التصفيق لأنفسنا ليس رداً كافياً على ما تعرّضنا له، ولا يساعدنا إطلاقاً على فهمه.

في «تلك» الأيام لم يكن مسموحاً بانتهاك الرضى والغبطة. ولم يكن مسموحاً بمراجعة المقدمات والسلوكات والنتائج. بل إنني حتى هذه اللحظة لست متأكداً إن كان مسموحاً به في «هذه» الأيام.

المسيء مُخَصَّن! لم يصدّمهم ما قلت.
ولكنه لم يعجبهم.

بعد أن انتهى المجلس واستعد كل المشاركون للعودة من حيث أتوا، صادفت سيدة تقيم في القاهرة وكنت راغباً في إرسال رسالة الى رضوى وتميم قبل عودتي الى بودابست وقدّرت أن بوسعها حمل الرسالة معها.

سألتها متى سترجع الى القاهرة قالت:

- أنا مش رايحة للقاهرة مباشرة. قلت بما إني قريبة من فرنسا خليني أروح كام يوم لباريس. تغيير يعني. الواحد روحه طالعة. بدني اشترى شوية فضيات من هناك. انت بتعرف أنا بحب الفضة كثير. ويمكن أتأخر في باريس. حسب الجو. تغيير يعني.

الجسم الأعظم من المثقفين الفلسطينيين تماهى مع السلطة. اقترب منها أكثر مما ينبغي له. ارتاح على مقاعدها. ولذّ له أن يقلدها ويتماثل مع صفاتها. كثير من المؤيدين والمعارضين تشابهوا

عند هذه النقطة. ما زلنا نتصرف كقبيلة. والذي زاد من ذلك ويسّره وجعله يستمر بلا مساءلة حقيقية، أن طبيعة القضية وضعت الجميع مهما كانت خياراتهم هم في الصف الوطني. وهذا صحيح.

فحتى المخطئ منهم يمكن النظر إليه كضحية أيضاً. الكل مهتّد، والكل عرضة للموت أو الإصابة، أو الإهانة على الحدود، أو فقدان من يحب وما يحب.

كان هناك إحساس دائم بأن اقتراب المثقف من القيادة، يختلف عن الإقتراب من حكومة تقليدية. فالفلسطيني وسلطته التي تقرر الأمور، يعيشان الوضع الاستثنائي ذاته، سواء في المنفى أو تحت الاحتلال.

بل ربما ارتأى البعض أن المكان الطبيعي للمثقف الفلسطيني هو بقرب القيادة. لكنّ عواقب هذا الخيار لم تكن دائماً عواقب محمودة، بالإضافة الى الاستعداد الشخصي للفساد لدى عدد من الأفراد في هذا المجال أو ذاك.

أما عيبي الشخصي فكان أنني استسهل الانسحاب عندما أرى ما لا يسرّ. أدير ظهري. وقد أثبتت لي الأيام أنه كان من الأفضل لو تحمّلت قليلاً وحاولت كثيراً. وضعت نفسي على الهامش هرباً من أي ملمح من ملامح استبداد السياسة أو الثقافة.

والاستبداد عند المثقفين هو نفس الاستبداد عند السياسيين من الجانبين، جانب السلطة وجانب المعارضة. والقيادات لدى الطرفين تتقاسم الصفات ذاتها: الخلود في الموقع. الضيق بالنقد، وتحريم المسألة أياً كان مصدرها، والتيقن المطلق من أنهم دائماً على حق، مُبدعون، عُلماء، ظرفاء، مناسبون وجديرون كما هم، وحيث هم!

* * *

كانت الصورة قبل عودة منظمة التحرير هي صورة الفدائي .
صورة البطل/ الضحية التي تستحق التعاطف والتمجيد .

الآن ها هو الفدائي ذاته (مكبلاً باشتراطات أعدائه) يمارس سلطته المباشرة على المواطن العادي، على الأعمام والأخوال والطلاب والدكاكين والمرور والجمارك والفنون والآداب والضرائب والمحاكم والاستثمارات ووسائل الإعلام كلها . انه هو الذي يهيم للناس الوظيفة وفرص العمل، من الساعي والفراش الى الوزير والوكيل والمدير والعميد والعقيد . وهو الذي يمنح المكانة الاجتماعية والنفوذ، هو الذي يصلح المكسور ويُعمر المهذوم ويختار من هذا الزحام الشعبي العريض أنصاراً وخصوماً . بل انه يعتقل المواطنين أحياناً وسجنهم ويقاضيههم و... يعذبهم؟
هذه الصورة جديدة تماماً على أهلنا .

كان من الممكن ان يشكّل هذا الإنتقال في مهمات الفلسطيني تطوراً مفهوماً بل ومطلوباً أيضاً، لو كان عنواناً على سيادة فعلية على المصير الفلسطيني؛ فلا أحد يناضل للأبد ولا أحد يُقنّي للأبد . لكن السيادة الكاريكاتيرية المسموح بها لنا في أوضاعنا المستجدة والقيود التي تكبل قرارات السلطة الوطنية كان لها وقع مختلف .

الأغنية تتراجع . والواقع يتقدم باستحقاقاته الشديدة القسوة .
هنا في المجال الثقافي كما في المجالات الأخرى تجد من يتقن عمله ويؤديه مقتنعا به جهداً وشرفاً وجدوى . هنا من يعترض على رداءة الاتفاقية لكنه يضع بإخلاص كل امكاناته تحت تصرف المجتمع الفلسطيني الجديد، ليصنع ما هو أقل سوءاً من السيئ المتاح .

ولكنك، الى جانب مثل هذا المناضل الحقيقي، تجد من يتنطط بين المواقف والأيدولوجيات كالشمبانزي، ليصل الى الفرع

العالي من شجر «الغابة». لكنه شمبانزي يتقن اختيار العطور الفرنسية وتحديد العملة التي لا يرضى بأقل منها. يحب أولاده حبا حقيقيا وأمه وأباه و(ربما) زوجته. ولا... أحد... غيرهم...!

إنه شمبانزي يؤيد. ثم يعارض!
ثم يؤيد لكنه يريد أن يبدو معارضا!
ثم يَنْشَقُّ عن تنظيمه ويشكّل فصيلا أو حزبا، يضاف الى الزحمة التي لا مبرر لها ويلقي على الناس مواعظه البليغة حول روعة الوحدة!

قد يرضى وقد يحرد. قد يتذلل أمام هذا ويستأسد أمام ذاك.
لكنه في الحالات كلها، موهوبٌ جداً وبارعٌ جداً في تقديم خدماتٍ جليّة... لنفسه!
الحياة تستعصي على التبسيط. كما ترون!

قلت «لأبو حازم» مداعبا ومستأذنا:
- اليوم هو يوم التليفونات العالمي! سأتصل بالوالدة في-عمان وبرضوى وتميم في القاهرة.
تلقيت منهم مكالمات يومية تقريبا وأردت أن أبادر أنا هذه المرة خصوصا وإنّ لديّ أخباراً أقولها.
الفلسطيني أصبح إنساناً تليفونيا. يعيش على الأصوات المنقولة إليه عبر المسافات.
قبل أن يصبح التليفون في متناول معظم الناس لجأوا الى الاذاعات:

«اطمئنوا وطمّنونا»

ثم جاء الهاتف الرائع المخيف.
فلان نجح في امتحان آخر السنة،

فلانة أخذناها الى المستشفى ولكن لا تقلق المسألة بسيطة،
فلان أعطاك عمره، البقية في حياتك.

في الواحدة والنصف ليلاً أخبرني منيف من قطر بوفاة والدي في
عمان وأنا مقيم في بودابست. في الثانية والربع ظهراً، بعد سبع
سنوات، أخبرني علاء من قطر بوفاة منيف في باريس وأنا مقيم في
القاهرة.

تفاصيل حياة كل من نحب وتقلب حظوظهم من هذه الدنيا
كانت كلها تبدأ برنين الهاتف. رنة للفرح. رنة للحزن. ورنه
للسوق. حتى المشاجرات والعتب واللوم والاعتذار بين
الفلسطينيين يفتتحها رنين الهاتف الذي لم نعتق رنيناً مثله أبداً ولم
يرعبنا رنينٌ مثله أبداً. أقصد في نفس الوقت.

قد تحميك الحراسة من الإرهاب، وقد يحميك حظك أو
ذكاؤك، ولكن الغريب لن تحميه أية قوة في العالم من «إرهاب
التليفون»!

الآن لدي أخبار لطيفة: حضر أبو ساجي بنفسه الى بيت أبو
حازم وأحضر لي الهوية. هوية لم الشمل.
- امهلني كام يوم عشان تصريح تميم

* * *

كان علينا ان نتدبر أمر حياتنا في تلك الأيام العجيبة، أنا في
بودابست ورضوى وتميم في القاهرة.

حصلت رضوى على إجازة لمرافقة الزوج من عملها في
الجامعة وأقامت معي في المجر. ألحقنا تميم في دار حضانة
خاصة، عند ماني نيني ثم في حضانة تابعة لمصنع للجوارب. في
بداية أيلول/ سبتمبر/ 1981 وصلت الى بودابست صديقتنا عواطف
عبد الرحمن، لزيارتنا قادمة من برلين بعد اشتراكها في أحد
المؤتمرات هناك.

قضت معنا يومين ثم أوصلتنا الى مطار بودابست لتسافر إلى برلين فالقاهرة .

علمنا من الاذاعات والصحف أن السادات اعتقل 1536 رجلا وامرأة من جميع الاتجاهات السياسية التي لم تبد إعجابها بـ «مبادرته التاريخية» .

قرأنا الأسماء . كان طبعياً أن يكون بين المعتقلين كل أصدقائنا في مصر . ومن بينهم اسم عواطف .

حاولنا الإتصال بها لتحذيرها من السفر الى مصر ودعوتها للإقامة معنا بعض الوقت الى أن تتضح تطورات الأمور ، لأنهم سيعتقلونها من مطار القاهرة لو عادت في موعدها . كان الأمر متأخراً .

جاء صوت الصديق فتحي عبد الفتاح الذي طلبناه على الهاتف :

- عواطف سافرت . إنها الآن في الطائرة المتجهة للقاهرة فعلاً .

بعد يومين وصلنا المزيد من الأخبار : عواطف تم اقتيادها من المطار الى السجن فور وصولها .

هذا الحدث لم يخلُ من طرافة ، فقد كانت مشترواتها من السوق الحرة وخصوصاً علب الشوكولاته السويسرية نعمة على زميلات العنبر مثل لطيفة الزيات وأمينة رشيد وصافي ناز كاظم وفريدة النقاش وشاهنده الخ .

بعد ذلك تابعت الأخبار من مصر .

السادات يَفْصِلُ أكثر من ستين صحفياً من عملهم ، وينقل عدداً مماثلاً من أساتذة الجامعات الى وظائف خارج سلك التعليم ، من بينهم رضوى .

قرأنا في بودابست خبر نقلها الى وزارة السياحة .

قلت لها:

- سيكون البقشيش بالشيكال يا مدام!

بعد شهر تلقينا خبر اغتيال السادات من الإذاعة.

الأحداث تتوالى. يتم الإفراج عن المعتقلين. يعاد الأساتذة والصحفيون الى أعمالهم الأصلية.

جاء وقت القرار الصعب عند مناقشة موضوع مدرسة تميم.

اتخذناه.

كان قرارا صعبا وصائباً.. قلت لرضوى ان تميم يجب ان يلتحق بالطرف الثابت في الأسرة. رضوى لها وطن ثابت وعمل ثابت وجواز سفر ثابت ولنا في القاهرة بيت مستأجر لكنه بيتنا.

وأهم من ذلك أننا نريد لتميم أن يتلقى تعليمه في بلد عربي لا في المجر.

أنا وضعي هنا مؤقت. وضعي مؤقت في كل بلد. وكذلك عملي وجوازات سفري.

تميم مكانه مع رضوى ورضوى مكانها جامعتها وبلدها وبيتنا. منذ ذلك القرار كان شمل أسرتنا الصغيرة يلتزم لثلاثة أسابيع شتاء وثلاثة أشهر صيفاً منذ ترحيلي في 1977 حتى أصبح شابا في الثانوية العامة.

في صيف 1984 أي بعد سبع سنوات كاملة من إبعادي من مصر، حصلت على إذن بزيارة القاهرة لمدة اسبوعين.

بعد ذلك وجهت لي دعوة لاقامة أمسية شعرية في إطار ندوات معرض القاهرة الدولي للكتاب.

تكررت دعوتي لأمسيات المعرض. وجدت نفسي، بعد ذلك، ألقي قصائدي في مقر نادي أعضاء هيئة التدريس في جامعة القاهرة وفي الأتيليه وفي نقابة الصحفيين وفي حزب التجمع.

لكن الطريف أنهم في إحدى زياراتي للقاهرة احتجزوني في المطار وألقوا بي طوال ليلة كاملة في غرفة الحجز البيطري! لا ليس في الأمر خطأ مطبعي. إنها غرفة الحجز البيطري فعلاً .

في المرات التالية أصبحوا يسمحون باحتجازي في نعيم صالة المطار(!) لفتراتٍ لم تقلّ عن خمس ساعات ولم تزد عن نصف يوم قبل السماح لي بالدخول فعلاً.

لم يتضح لي سبب تلك المعاملة الخاصة الا بعد سنوات : الجهات الثقافية ترخّب والجهات الأمنية ترفض . والى أن يتفقوا على دخولي كان لا بد أن يمرّ كل ذلك الوقت . طبعاً . كان عليّ أن أنتظر الى مطلع 1995 حتى يسأموا من توقيفي ويصبح دخولي من مطار القاهرة طبيعياً كدخول الألماني والياباني والطياني مثلاً .

* * *

كنت أوجه لنفسي أسئلة وأجيب عليها دون ثقة في أهمية السؤال أو الجواب .

- هل يقيم تميم كما أقمت ، ضيفا عند ابو حازم؟

- يجب ان أكون معه ساعتها .

- لكننا سنصبح ضيفين .

- وما معنى مجيئه بمفرده؟

نظرياً يمكن للاتّم أن يلومنا على هذا الوضع الذي لم يوفّر لنا شقة في رام الله . إملاءات الحياة ، مقرونة بعشرات التفاصيل الصغيرة المهمة في حينها والتي نذكرها وننساها ، جعلت الأمر على ما هو عليه الآن . قرارات كل الأسر المبعثرة تُتخذ ، عادة ، بناء على احتياجات أطرافٍ متعددة ، وبناء على قراءات مختلفة للواقع وتكهّنات مختلفة بالمستقبل ، وتحكمها أولويات متغيرة قد لا يكون ترتيبها حكيماً دائماً .

هذا الذي ولد على نهر النيل في مستشفى الدكتور شريف
جوهر في القاهرة لأب فلسطيني بجواز سفر أردني وأم مصرية، لم
ير من فلسطين إلا غيابها الكامل وقصتها الكاملة.
عندما تم ترحيلي من مصر كان عمره خمسة أشهر.
وعندما أحضرته رضوى معها للقاء بي في شقة مفروشة في
بودابست كان عمره ثلاثة عشر شهراً. وصار يناديني:

- عمّو

أضحك وأحاول أن أصحح له الأمر:

- أنا مش عمّو يا تميم. أنا بابا.

فينادينني:

- عمّو بابا.

غُربَات

الغربة لا تكون واحدة. انها دائما غُربَات.

غُربَات تجتمع على صاحبها وتغلق عليه الدائرة. يركض والدائرة تطوّقه. عند الوقوع فيها يغترب المرء «في» أماكنه و«عن» أماكنه. أقصد في نفس الوقت.

يغترب عن ذكرياته فيحاول التثبيت بها. فيتعالى على الراهن والعاير. انه يتعالى دون أن ينتبه إلى هشاشته الأكيدة. فيبدو أمام الناس هشاً ومتعالياً. أقصد في الوقت نفسه.

يكفي أن يواجه المرء تجربة الاقتلاع الأولى حتى يصبح مقتلماً من هنا الى الأبدية. الأمر يشبه ان تزلّ قَدُمُكَ عن دَرَجَةٍ واحدة من السلم العالي حتى يُكْمِلَ النزولَ الى منتهاه. الأمر أيضا يشبه أن يَنْكَبِرَ في يد السائق مقوَدُ السيارة: كُلُّ سَنِيَرِها بعد ذلك يصبح ارتجالاً وعلى غير هُدًى.

لكن المفارقة تكمن في أن المدن الغريبة لا تعود غريبة تماماً. تملّي الحياة على الغريب تكيفاً يومياً. قد يكون عسيراً في بداياته لكنه يقل عُسراً مع مرور الأيام والسنوات. الحياة لا يعجبها تذرُّمُ الأحياء. إنها ترشوهم بأشكال مختلفة

ومتفاوتة من الرضى ومن القبول بالظروف الإستثنائية.

يحدث هذا للمنفق، والغريب، والسجين، ويحدث شيء مثله للخاسر والمهزوم والمهجور. وكما تتعود العين شيئاً فشيئاً على العتمة المفاجئة يتعود هؤلاء على السياق الإستثنائي الذي فرضته عليهم الظروف. وإذا تعود الواحد منهم على الإستثناء فإنه يراه طبيعياً بشكل من الأشكال.

الغريب لا يستطيع التخطيط لمستقبله البعيد أو القريب. حتى وضع خطة ليوم واحد يتعذر لسبب ما. لكنه شيئاً فشيئاً يتعود على ارتجال حياته.

شعوره بمستقبله ومستقبل أهله شعور عمال التراحيل وموظفي المياومة.

كل عشرة بينه وبين المحبوب قصيرة مهما طالت.

يعرف كيف يكون مُحِبّاً آمناً ومحبباً خائفاً. إنه يدنو كلما نأى وينأى كلما دنا. ويشتهي حالتيه وموضعيه. أقصد في نفس الوقت. كل بيت له هو لغيره أيضاً. كأن إرادته معلقة على إرادات.

وإذا كان شاعراً كان غريباً عن «هنا». غريباً عن «أي هنا» في العالم.

إنه يجاهد لينجو بلؤلؤه الشخصي رغم معرفته المؤكدة بأن لؤلؤه الشخصي قد لا يساوي شيئاً في السوق.

الكتابة غريبة، غربة عن الصفقة الاجتماعية المعتادة. غربة عن المؤلف والنمط والقالب الجاهز، غربة عن طرق الحب الشائع وعن طرق الخصومة الشائعة. غربة عن الطبيعة الإيمانية للحزب السياسي. وغربة عن فكرة المبايعه.

الشاعر يجاهد ليفلت من اللغة السائدة المستعملة الى لغة تقول

نفسها للمرة الأولى . ويجاهد ليفلت من أظلاف القبيلة . من تحبيذاتها ومحرماتها، فإذا نجح في الإفلات وصار حُرّاً، صار غريباً . أقصد في نفس الوقت .

كأنّ الشاعر يكون غريباً بمقدار ما يكون حُرّاً .
والممسوس بالشعر أو بالفن والأدب عموماً إذ تحتشد في روحه هذه الغربات، لن يداويه منها أحد . حتى الوطن .

إنه يتشبث بطريقته الخاصة في استقبال العالم وطريقته الخاصة في إرساله . فمن الحتمي أن يستخف به أصحاب الوصفات الجاهزة، وأهل العادة والمألوف، يقولون إنه «هوائي»، «متقلب»، و «لا يُعتمدُ عليه»، الى آخر هذه النعوت المرسوسة كالمخلّلات على رفوفهم: أولئك الذين لا يعرفون القلق، أولئك الذين يتعاملون مع الحياة بسهولة لا تليق .

كان عَلَيّ ان أسلم بأن التليفون سيكون وسيلتي الدائمة لخلق علاقة مع طفلٍ عمره شهور . لكنني لم أعتبر إبعادي عن مصر حدثاً يستحق الشعور بالمرارة . فمن السفاهة ان أشكو من مجرد شتات عائلي أصابني، بينما لم تنجُ عائلة فلسطينية في فلسطين او في الشتات من مصائب أشد وأقسى .

كانت مجزرة تل الزعتر ما تزال في مقدمة الذاكرة، كما يتكرر كل حين نسف البيوت في الضفة وغزة . والمعتقلات الاسرائيلية تنكس بالشباب والشيوخ . والجرحى لا يجدون دواءهم اذا كانوا محظوظين في الوصول الى أي مستشفى .

كان مناخ تجارز المتاعب وتقبّلها كشمٍ بسيطٍ يمكن تحمّله، هو المناخ الذي أشعناه، رضوى وأنا، كلما تحدثنا الى تميم معاً او فرادى . وهو المناخ الذي ساعده على التخلص بسرعة، من الشعور بأنه طفل سيئ الحظ .

أما حكمة رضوى، ورعايتها لميم في القاهرة، وميلي الدائم

للفكاهة والسخرية والتعليقات المضحكة، التي كان يقابلها بقهقهة طفولية مجلجلة عبر التليفون، فقد ساعدته على أن يعيش طفولة مريحة ومريحة.

وكان المنفى المجري نعيماً لتميم.

كان البيت الذي سكناه بيتاً صغيراً في الطابق الثالث والأخير من عمارة لطيفة وسط عمارات صغيرة متشابهة يحيط بها سور بحيث يجعلها وحدة واحدة. مساحته لا تتجاوز ثمانين متراً مربعاً. وهو يقع على تلة ذات جمال ساحر، تطل على نهر الدانوب اسمها «تلة الزهور». للبيت شرفة صغيرة علقت على سورها المعدني أصصاً مستطيلة تتجاوز فيها شتلات الجيرانيوم ذات الورود الحمراء المكتنزة. كنت أمنحها الكثير من الوقت والعناية الى حد أن تميم قال لي مرة:

- إنت بتقعد مع الموشكاتلي بتاعك أكثر ما بتقعد معي ومع ماما! (الموشكاتلي هو التسمية المجرية للجيرانيوم).

وللبيت حديقة واسعة جداً تنحدر مع انحدار التل، تتوسطها أراجيح، ومربعان رمليان مسيجان أعدا خصيصاً لأطفال الحي.

في وسط الحديقة شجرتان شاهقتان من أشجار الحور. متلاصقتان تقريباً. واحدة منهما أقصر قليلاً من أختها. أول ما يهتم به تميم عند وصوله الى البيت أن يطمنن على وجودهما في مكانهما المألوف. كان يسرع الى شباك غرفته الصغيرة ليتأملهما.

في أقصى الحديقة شجرة تفاح يتكدس الأطفال فوقها وعلى فروعها وعلى العشب الفستقي اللون تحتها وكأنها تثمر تفاحاً وأطفالاً هذا يقطف، وذاك يلتقط، وثالث يأكل، ورابع يملأ جيوبه أو أكياس النايلون التي يحملها، ويركض الى أهله، فخوراً بمحصوله اللذيذ.

كان بوسع تميم أن يقود دراجته ذات العجلات الثلاث كما

يحلوه له دون مخاطرة. ما دام داخل البوابة الكبيرة وفي نطاق
الحديقة. ورغم ذلك، كنا نطل عليه من نافذة المطبخ فنطمئن عليه
بين الحين والآخر.

أما إذا تساقط الثلج أثناء وجوده في إجازة نصف السنة في
بودابست فكل دقيقة عنده عيد الأعياد.

كنت أرى ما تتيحه له بودابست فأقول لنفسي إن من حق
المنافي علينا أن نذكر لها بعض محاسنها إذا كنا نكره الكذب.

في هذا البيت الجميل، في هذا المشهد الطبيعي المبهج،
وأنت تطلّ يومياً على هذه الخضرة الفستقية الفائضة بالحياة، يرُنْ
هاتفك ذات ليلة ليقول لك الصوت المتلعثم إن فلان توفي «قبل
نُص ساعة». تكتشف أنك لا تستطيع المشاركة في تشييعه إلى
القبر. لأنك بلا جواز سفر أو بلا فيزا أو بلا إقامة. أو لأنك
ممنوع من الدخول. الخ الخ.

في الواحدة والنصف ليلاً جاءني صوت منيف عبر الهاتف.
مات أبي.

علمت بعد ذلك أنه كان تناول عشاء وذهب للنوم. استيقظت
أمي على صرخة رهية وانتهى الأمر.
لم أعرف ما الذي أفعله بنفسني.

نسيت تماماً ما هي عادة الصباح في بودابست. هل يطلع حقاً
كل يوم؟

والليلُ حولي لا يمر،
وليس حولي من يُواجفني ويكذب (صادقاً)
من أنجلي روجي،

أو يلوّم هشاّشتي حتّى الوّمّة!
أما المسافّة بين أحبابي وبينّي،
فهي أقبّح من حُكومة!

* * *

في المدرسة تجلّت شخصيّة تميم كولد سريع البديهة خفيف
الظل وابن نكتة. قبل ان يبلغ الثانية من عمره فاجأنا أنه يخطّب
مقلّدا الرئيس أنور السادات مرددا بعض مفرداته المأثورة: (حافرمة)
و (بسم اللاّاه) وغيرها مما نسيته الآن.

كان يعود كل يوم من «مدرسة الحرية» بالجيزة بحصيلة معتبرة
من النكت التي يحفظها من زملائه المصريين.
- لحظة لحظة! اعطوني ورقة وقلم أحسن انساهم لما أرجع
على الناصرة.

استغاثت نائلة في سهرة ضمنتنا سويا معها ومع توفيق زيّاد في
القاهرة قبل سنوات وأخذت تكتب ملخصا للنكت المتتابعة.
يحفظ كل نوادر دير غسانة وقصص المضافة وأخبار العجائز
من رجالها ونسائها. يحكي بلهجتهم الفلاحية تماما كأنه ولد في
«دار رعد».

غضبه الحزين على قطع شجرة التين الخضاري فاق غضب
الاسرة كلها. انه لن يغفر لامرأة عمي المسكينة ما فعلته بشجرة لم
يرها بعينيه ولم يأكل من ثمارها أبداً لكنه لا يتخيل دار رعد
بدونها.

- انه يعرف برندتك يا «أبو حازم» غيايبا بكل ما فيها. ويستطيع
أن يعرف مكان صورة عمّه منيف فيها.

هذا الولد الذي رأى النور لأول مرة في حيّ المنيل بالقاهرة
عاصمة جمهورية مصر العربية والذي يخاطبنا في البيت باللهجة

المصرية، والذي لم ير من فلسطين شيئاً طوال سنواته العشرين،
يتحرق لرؤيتها كأنه لاجئ اكتهل في مخيم بعيد.

يكتب أبياتا من الميجانا والعتابا فيرمي كتابه المقرر في العلوم
السياسية ويأثني في غرفة مكتبي منشرح العينين ويمسك بالعود
الذي اشترته له رضوى من الشام بارشادات من نزيه ابو عفش ويبدأ
بالغناء كأنه «الحزرق» مغني دير غسانة العجوز.

كنت أشارك بألمسية شعرية في قرطاج عام 1980 واشترينا له أنا
ومارسيل خليفة أول عود في حياته. كان عمره ثلاث سنوات وكان
العود بحجم دمية صغيرة لكن مارسيل جربه في محل الصناعات
التقليدية التونسية وقال إنه عود بالفعل رغم حجمه المضحك.

في القاهرة أحضرت له رضوى مدرّسا لآلة العود، الأستاذ
محمود فصل له عوداً أكبر قليلا. ثم واصل دروسه على يد الأستاذ
تيمور ثم الأستاذ أديب. وما زال يتلقى الدروس على يديه.

كان إميل حبيبي يقول له مداعباً:

- ليش ما طلعتش إرهابي زي أبوك!

عاودت سؤال «أبو ساجي» عن الفترة المتوقعة ان تمر قبل ان
نحظى بتصريح لتميم. فقال انهم يتلکاون في الموافقة على دخول
الشبان. وقد يتساهلون مع كبار السن. مع من تجاوزوا الخمسين.
كلمة «الخمسين» رنت في أذني رنين فئجان قهوة ينكسر على
الرخام قبل ان تلمسه أصابع الضيف.

أشعر انني عشت طويلا وعشت قليلا. انني طفل وكهل.
أقصد في الوقت نفسه.

تأخرنا سبع سنوات قبل ان نأتي بتميم الى الدنيا.

تزوجنا في عام 1970 وقررنا منذ البداية تأجيل مسألة الانجاب (حتى تتضح الأمور!) ولم نكن ندري ما هي الأمور التي ننتظر أن تتضح! وضعنا العام أو وضعنا الاقتصادي أو السياسي أو الأدبي والدراسي؟

أكملت رضوى رسالتها للماجستير في جامعة القاهرة بعد زواجنا بسنتين. ثم سافرت في بعثة حكومية الى أمهرست، ماساتشوستس لدراسة الأدب الأفروأمريكي كجزء من مسيرتها في سلك التعليم الجامعي.

كم ضحكنا رضوى وأنا من القفشة اللينة التي عممها الأستاذ محمد عودة عندما سأله صديق مشترك التقاه مرة خارج مصر عن أخبارنا وهل أصبح عندنا أولاد أم لا؟ فأجابه عودة:

- رضوى ومريد قرروا أن يؤجلوا الخلفة إلى ما بعد حل مشكلة انشق الأوسط!

شعرنا بعد عودتها بالذكورة عام 1975 أن الوقت قد حان لنوع من الاستقرار الأسري. حملت وأجهضت في عام 76. ثم حملت وورزقنا بتيميم في 13/6/1977 أي قبل ترحيلي من مصر بخمسة أشهر.

كانت الولادة متمصرة. رأيت بعيني وجع الولادة فشعرت أن من الظلم أن لا يُنسب الأطفال الى الأم. لا أدري كيف اغتصب الرجل حق نسبة المولود لنفسه؟

ولم يكن شعوري مجرد رد فعل مؤقت على رؤية أم تتعذب في ساعات الوضع. ما زلت أومن الى الآن أن كل «مولود» هو ابن «والدته». وهذا هو العدل.

قلت لرضوى عندما خطونا الخطوات الأولى مغادرين باب المستشفى وهي تحمل تيميم على ذراعيها وعمره يومان فقط:

- تيميم كله لك. أشعر بخجل شخصي من حقيقة أنه سيحمل

اسمي وحده دون اسمك في شهادة ميلاده .

ثم كان للرئيس المصري أنور السادات دورٌ حاسمٌ في تحديد
حجمنا كأسرة!

فقراره بترحيلي من مصر، ترتّب عليه ان أظّل أباً لولد واحد لا
ثاني له . وأن لا يكون لرضوى ولي بنتٌ، مثل، ا الى جانب تميم .
أو أن لا يكون لي عشرة أولاد وبنات بالتمام والكمال! أصبحت
أقيم في قازة، ورضوى في قازة أخرى . لم يكن من الممكن إن
تعتني بأكثر من طفل واحد وهي بمفردها .

هذه هي الهوية إذاً . هوية لمّ الشمل . غلاف من البلاستيك
الأخضر اللون يضم اسمي واسم رام الله، وكلمة متزوج، وكلمة
تميم، وختم فلسطيني .

عندما انتقل منيف من قطر للإقامة في فرنسا تعددت زياراتي له
لسهولة التأشيرات ولقربه من بودابست حيث أقيم . ذات صيف
كنت أشارك في ندوة دولية للمنظمات غير الحكومية في جنيف
بشأن فلسطين فاصطحبتُ رضوى وتميم وأقمنا في ضيافة منيف في
منزله في «فيجي فونسونو» وهي قريةٌ على مسافة عشر دقائق
بالسيارة من جنيف .

لكنّ الذهاب الى جنيف (وهو أمر قد يتكرر عدة مرات في
اليوم الواحد) يعني المرور بنقطة الحدود بين فرنسا وسويسرا . في
كثير من الأحيان يكتفي الشرطي بإشارة من يده لسائق السيارة بأن
يواصل طريقه . وأحياناً يعنّ له ان يلقي نظرة عابرة على جواز
السفر قبل ان يتسم محياً الركّاب، ويمضي كلّ في سبيله .

في ذلك الصيف لم نكن وحدنا ضيوفاً عند منيف بل اجتمع عنده أيضاً أقرباء زوجته وأولادهم، واثنان من شقيقاتها.

مررنا من نقطة الحدود في سيارتين. تقدم الشرطي وطلب جوازات السفر. جمعناها وقدمناها له فرأى العجب العجيب:

وجد بين يديه جوازات سفر من كل حذب وصوب: أردنية وسورية وأمريكية وجزائرية وبريطانية ومن «دولة بيليز» أيضاً وبأسماء تدل على أن أصحابها من عائلة واحدة؛ فالكل «برغوثي»، بالإضافة لجواز سفر رضوى المصري وجواز سفر إميل حبيبي الاسرائيلي؛ وقد كان وقتها قادماً من الناصرة، ليشترك في الندوة الفلسطينية ذاتها في جنيف، فدعوته الى بيت منيف، ليأكل «القطايف» في بلاد الفرنجة. فهمتُ من الذين يفهمون اللغة الفرنسية ممن معنا، أن الرجل طَلَبَ أن يشرح له أحدنا هذا الكوكيتل من وثائق السفر. وعندما بدأ أحدهم يشرح الأمر قاطعه ضاحكاً:

- لا أريد أي شرح! لا أريد ان أفهم!

وتمنى لنا مشواراً سعيداً في جنيف. واصلنا طريقنا وقد انتقلت لنا دهشة الفرنسي من وضعنا. قال أحدهم:

- والله احنا فضيحة عن جدّ يا جماعة!

لا هذه الهوية ولا حتى جواز السفر الفلسطيني الجديد الذي بدأت السلطة الفلسطينية في إصداره بعد اتفاقية أوسلو سيحلّ مشاكلنا على الحدود.

الدول تعترف على الورق بالهوية الفلسطينية ويجواز السفر الفلسطيني.

ولكن على الورق فقط.

أما على الحدود، في المطارات، فيقولون لحاملها يجب أن تحصل على موافقة مسبقة من الجهات الأمنية. وهذه الموافقة المسبقة لن تحصل عليها أبداً!

ورغم ذلك فملايين اللاجئين في مخيمات الشتات غير مسموح لهم بحمل وثائق سلطة الحكم الذاتي. غير مسموح لهم بالعودة غير مسموح لهم بالانتخاب ولا الترشيح ولا ابداء الرأي ولا المشاركة السياسية.

في لبنان هناك قرار حكومي الآن بمنع الفلسطينيين المقيمين في المخيمات من العمل في 87 مهنة! أي ان بوسعهم جمع القمامة وتلميع الأحذية فقط. ومن يُسمح له بالسفر من لبنان لا يسمح له بالعودة اليه.

هل يُعقل أن ينطبق هذا على أكثر من ربع مليون لاجئ فلسطيني الأصل، منهم آلاف وُلدوا في لبنان؟ وهناك غيرهم من المقيمين فيه منذ ثلاثينات القرن وأربعيناته، أي قبل النكبة أصلاً، ولكنْ جذورهم الفلسطينية تحرمهم من عُفْران الذنب الفلسطيني الذي، وحده، لا يُغفّر.

لقد أخطأ بعضُ الفلسطينيين بحق لبنان، وهامهم أبناء المخيمات المعدّمون يسدّدون الثمن يومياً. وليت كل من أخطأ بحق فلسطين يسدّد الثمن أيضاً!

يقولون إن مواضيع اللاجئين والنازحين، أي اربعة ملايين إنسان، والمستوطنات والقدس وتقرير المصير، مؤجلة الى مفاوضات الحل النهائي. ما هو العاجل إذاً يا جماعة؟ ناقشتُ هذا السؤال مع معظم من التقيتُ بهم. وتركني عدد آخر ألتقط اجابته من كلامه العابر، دون أن أوجّه له السؤال.

المؤكد أن الكلّ ينتظر. وأن ابتعاد جندي الاحتلال عن

بيوتهم، ولو لمئات الأمتار، يعطيهم أملاً مبالغاً بابتعاده أكثر في المستقبل.

كان العيون في هذه الأيام تحديق في الجغرافيا أكثر من تحديقها في التاريخ.

الأشواق والصبوات والأحلام، ترجى الإعلان عن وجودها مؤقتاً. لقد تحولت الى ورشة يومية يعنى المشتغلون فيها بكل ساعة عمل هنا والآن. ولكن الملفت، برغم عزوفهم عن التحليلات الشاملة والمستفيضة وضيقهم بها، أن المرء يلمس لديهم باستمرار، ظللاً من الإرتياب بنوايا إسرائيل وجيلاً ومفاجئتها المقبلة.

إنه أمل مشوبٌ بالهواجس.

قليل جداً منهم يستخدم تعبير «النصر». وأكثرهم ينتظر بتوتر ويتكيف مع الواقع المملئ بصعوبة.

المستفيدون استفادة مادية مباشرة وفورية من الوضع الجديد هم وحدهم الذين يرون فيه انتصاراً يستحق الرقص والاحتفال، ويدافعون عنه بلا تحفظ.

سمعت تعبيرات ملفتة على السنة المثقفين الذين وجدوا في شوارع الانتفاضة وفي الأداء المبهر للناس خلال سنواتها الأولى بالتحديد، تحقناً نادراً للذات الوطنية التي كانت تشكل يوماً بصورة تلقائية رغم كل التضحيات.

هناك شعور بارتباك المعنى واختفاء الرعدة.

قال لي أبو محمد أحد جيرانا القدامى:

- كان رَفَعَ عَلم فلسطيني صغير على سطوح مدرسة أو بيت أو حتى على أسلاك الكهرباء في الشوارع، يُكَلِّف الشاب حياته. كان جيش رابين يطلق النار ويقتل من يحاول رفع علم واحد. ورغم

ذلك قدمنا الشهدا طول الانتفاضة من أجل رفع العلم. الآن العلم في كل مكان ورا طاولة كل موظف مهما صغرت وظيفته.

- يزعجك غياب الرومانسية من الأمر؟

- بل غياب السيادة الفعلية التي يعينها العلم المرفوع. إسرائيل تحرمنا من السيادة حتى على وسائل المواصلات. وما تزال هي المرجع لنا في الأمور السيادية. شفتهم على الجسر؟ ماذا يفعل الطرف الفلسطيني على الجسر؟ مش شفت وسمعت؟
- شفت وسمعت.

تحدث عن الإغلاقات المستمرة للضفة وغزة بجرة قلم من حكومة إسرائيل:

- يمنعون حتى القيادات من السفر إن أرادوا. تظن انه بإمكانك الذهاب الى القدس؟ أو حتى الى غزة؟ أعلنوها منطقة مغلقة وحجّتهم في هذه المرة الانتخابات. يمنعون المصلين من الوصول الى الحرم حتى يوم الجمعة. حواجز وفتيش وأجهزة كمبيوتر. لا يتوقفون عن توجيه رسالة واحدة لنا وبكل السبل: نحن الأسياد هنا.

- هل كان مجيني غلطة أذاً يا ابو محمد؟

- بالعكس. كل من يستطيع أن يرجع وأن يقيم فليرجع على الفور. يعني نتركها للفلاشا واليهود الروس وزعران بروكلين؟ هل نتركها للمستوطنين؟ ليعد من يستطع العودة من الخارج. بتصريح، بلم شمل، بوظيفة، بالجنّ الأزرق. ابنوا في قراكم اذا قدرتم. ابنوا مستوطنات فلسطينية في فلسطين يا أخي! قال غلطة قال! يا عمي تعالوا.

أشعل سيجارة من أخرى واستأنف مرافقته المتحمسة:

- بس من قال لك ان اولاد الحرام مغمّضين؟ وافقوا على

دخول بضعة آلاف غصباً عنهم أمام العالم . بس وحياتك يا أبو
تميم حاسبينها بالورقة والقلم . مليح إنك عرفت . بس
ياريتك جيت بعد الإغلاق أو قبله . حرام أن لا ترى القدس

- هل هو مستحيل فعلاً؟

- يعتبرون القدس إسرائيل . الإغلاق يعني منع التنقل بين
مناطق الحكم الذاتي وإسرائيل . إلا لأصحاب التصاريح
الإسرائيلية . أو اذا كان معك ما يثبت أنك V.I.P .

- وغير هيك؟

- تهريب . في ناس بيروحوا تهريب . وانت وحظك .

سكت برهة ثم قال كأنه يقرع لي جرساً:

- بس بعد هالعمر تزور القدس تهريب!

لا يعرف العالم من القدس الا قوة الرمز . قبة الصخرة تحديدا
هي التي تراها العين فترى القدس وتكتفي .

القدس الديانات ، القدس السياسة ، القدس الصراع هي قدس
العالم .

لكن العالم ليس معنياً بقدسنا ، قدس الناس .

قدس البيوت والشوارع المبلمطة والأسواق الشعبية حيث التوابل
والمخللات ، قدس الكلية العربية ، والمدرسة الرشيدية ، والمدرسة
العمرية ،

قدس العتالين و مترجمي السياح ، الذين يعرفون من كل لغة ما
يكفل لهم ثلاث وجبات معقولة في اليوم .

خان الزيت وباعة التحف والصدف والكعك بالسهم .

المكتبة والطبيب والمحامي والمهندس وفساتين العرائس
الغاليات المهور .

مواقف الباصات القادمة كل صباح من كل القرى بفلاحين
بيعون ويشترون.

قدس الجينة البيضاء، والزيت والزيتون والزعتر، و سلال التين
والقلائد والجلود، وشارع صلاح الدين.

جارتنا الراهبة وجارها المؤذن المستعجل دائما.

السعف الماشي على الطرقات في أحد السَّعَف. قدس النباتات
المنزلية والأزقة المبلطة والممرات المسقوفة .

قدس حبال الغسيل... هذه القدس هي قدس حواسنا
وأجسامنا وطفولتنا.

هي القدس التي نسير فيها غافلين عن «قداسها» لأننا فيها.
لأنها نحن.

نتجول فيها بطيئين أو مسرعين بصنادلنا أو بأحذيتنا البتية أو
السوداء نساوم الباعة ونشتري ملابس العيد.

نتحوّج لرمضان ونُدعي الصيام، ونشعر بتلك اللذاعة الغامضة
عندما تلامس أجسامنا المراهقة أجسام السانحات الأوروبيات في
سبت الثور. نشاركهن ظلام كنيسة القيامة ونرفع معهن الشموع
البيضاء التي تُنيرها.

هذه القدس العادية، قدس أوقاتنا الصغيرة التي ننساها بسرعة
لأننا لن نحتاج الى تذكرها، ولأنها عادية كما أن الماء ماء والبرق
برق، كلما ضاعت من أيدينا صعدت الى الرمز. الى السماء.

كل الصراعات تفضّل الرموز.

القدس الآن هي الآن قدس اللاهوت.

العالم معني ب «وضع» القدس، بفكرتها وأسطورتها.

أما حياتنا في القدس و قدس حياتنا، فلا تعنيه. إن قدس
السماء ستحيا دائما. أما حياتنا فيها فمهدة بالزوال.

إنهم يحدّدون عدد الفلسطينيين فيها، وعدد البيوت الفلسطينية، والنوافذ والشرفات والمدارس والحضانات، وعدد المُصلّين في يوم الجمعة والأحد. إنهم يحدّدون للسائح من أين يشتري هداياه، وأي الأرزقة يسلك، وأي البازارات يدخل.

الآن، نحن لا نستطيع دخولها سائحين ولا طلاباً ولا عجائز.

الآن لا نقيم فيها ولا نرحل.

الآن لا يستبد بنا السأم فيها فنهاجر منها الى نابلس، أو الشام، أو بغداد، أو القاهرة، أو امريكا.

الآن لا نستطيع ان نكرها بسبب غلاء الإيجارات مثلاً.

الآن لا نستطيع أن نتذمّر منها كما يتذمّر الناس من مدنها وعواصمهم المملّة المرهقة.

أسوأ ما في المدن المحتلة أن أبناءها لا يستطيعون السخرية منها. من يستطيع أن يسخر من مدينة القدس؟

الآن لا تصلنا المكاتيب على عناويننا فيها.

أخذوا عناوين بيوتنا وغُبارَ أدراننا.

أخذوا ازدحامها وأبوابها وحاراتها.

أخذوا حتى ذلك المبعى السري الذي كان يشير خيالنا المراهقة في حارة باب حُطّة، بغانياته البديئات كتمائيل الهند.

أخذوا مستشفى المُطَّلَع، وجبل الطور الذي سكن فيه خالي عطا وحيّ الشيخ جراح الذي سكنا فيه ذات يوم.

أخذوا تذاوب التلاميذ فوق مكاتبهم ومَلَلَهُم من الحصّة الأخيرة يوم الثلاثاء.

أخذوا خطي جدتي في طريقها لزيارة الحجة حفيظة وابنتها الحجة رشيدة. أخذوا صَلَاتَهُمَا وغرفتَهُمَا الفقيرة في «البلد

القديمة». أخذوا الحصيرة التي كانتا تلعبان عليها البرجيس والباصرة.

أخذوا ذلك البدكان الذي كنت أسافر اليه خصيصاً من رام الله لشراء حذاء من الجلد الممتاز، وأعود للعائلة بقطائر من حلويات «زلاطيمو»، وكناقة من حلويات «جعفر». وبعد ستة عشر كيلومتراً في باص بامية، وبأجرة خمسة قروش، أعود الى بيتنا في رام الله مزهواً متباهياً. فأنا عائد منها، من القدس.

الآن لن أرى قدس السماء ولن أرى قدس جبال الغسيل. لأن إسرائيل منذرعةً بالسماء احتلت الأرض.

* * *

- صديق لك اسمه أبو نائل على التلفون.

ناداني أبو حازم. أسرع للرد. اتفقنا أن نتقابل في منزله رام الله. ذهبت مع حسام فوجدناه قد سبقنا واختار طاولة رغم ازدحام المكان.

سأله حسام:

- كيف شايف الأوضاع يا أخ «أبو نائل»؟

قال:

- أنا حسمتها بسرعة وبلا أي تردد ونحن في تونس. قالوا حسب أوصلو سيسمح بعودة بعض الناس. وسألوني عن موقعي. قلت لهم:

- اسمعوا، الموافق مكانه هناك (يقصد هنا). والمنافق مكانه هناك. والمدرّض مكانه هناك. احسبوني في أي خانة تشاؤون فانا سأذهب. ولا فرق عندي أن أذهب لأكون في السلطة أو في انسرع أو في انسجن. أنا سأذهب. وجئت بالنعل.

قدمت له سيجارة فردّها معتذراً:

- تركت التدخين .

- وكيف نجحت؟

- أنا أتعجب جدا من تغيير سجائري . تعرف اني أدخن
الروثمان . في السنين الأخيرة صار سعر الروثمان في تونس غالي
جدا . فوق طاقتي . تركت التدخين كله .

سأله حسام عن عمله الآن .

أبو نائل عمل لسنوات طويلة سفيراً لفلسطين لدى الصين
واثيوبيا وإيطاليا .

قال :

- في وزارة الشؤون الاجتماعية ، هنا في رام الله .

بعد ذلك انتقلنا الى حديث الأدب . أبدى إعجابه برواية غرناطة
لرضوى وبالضرورة عرّجنا على قضايا الشعر . فهو صاحب ذائقة
تميزة . وقارئ مدمن .

- الله يكون في عون اهلنا يا رجل . لا كتب ولا مكتبات ولا
جرايد ولا مجلات كله ممنوع . أدخلت معك شيء من دواوينك؟
- أحضرت ثلاث نسخ من الدواوين الأخيرة .

فجأة قفزت «مكتبة» صندوقة الى مخيلتي .

كانت قريبة من عمارة الفتاوي . كنت أدخلها يوميا وأندس بين
أرففها للفرجة على الكتب . أحب رائحتها وألوانها وملمسها . في
سنوات الدراسة الابتدائية والاعدادية ، كنت آخذ كتابا عن أحد
الأرّف ، أتصفحه ، فاذا شدّني قرأت منه جلسةً بضع صفحات
وأعدته الى مكانه لأعود اليه في اليوم التالي .

هكذا قرأت أول مختارات من الشعر العربي الحديث . وفيه
قصائد لبدر شاكر السيّاب فاندعشت لاختلاف أجوائها وشكلها
وموسيقاها عن القصائد العمودية التي كنت أحاول كتابتها في تلك
الأيام .

وهناك قرأت صفحات من مجلات وكتب تتحدث عن الجنس والزواج وبدأت أتلمس ذكورتني من خلال أجوائها التي لا ترد في القاموس العائلي أو الاجتماعي الذي يحيط بي. كنت أرى روايات لنجيب محفوظ ومحمد عبد الحليم عبد الله ويوسف السباعي وروايات ضخمة الحجم لإحسان عبد القدوس. وكتب ارنست همنجواي وجان بول سارتر وسيمون دي بوفوار وألبرتو مورافيا وكولن ولسون. ومجلة الآداب.

كنت أترك رأسي يغوص في الكتاب كراس خروف في العشب الأخضر. إلى أن جاءني صاحب المكتبة ذات يوم وجرتني من يدي إلى طاولة.

حذق برهة في وجهي ثم قال:

- يا أخي ارحمني. والله العظيم انك بتداوم في المكتبة أكثر مني أنا. وبعدين معك؟

بعد أيام طويلة عدت إليه واشتريت «البؤساء» لفكتور هوجو. لا شيء إلا لأظهر له أنني قارئ متين وخطير وأنني لا «أداوم» في مكتبته للتسلية والفرجة على الصور العارية (مع أن هذا الأمر كان أيضاً من بين أغراض الخفية طبعاً).

في تلك الليلة والنهار الذي تلاها قرأت كتاب البؤساء كله. دفعة واحدة، ولكن في بيتنا هذه المرة.

كان هذا أول كتاب أشتريه من مصروفي الشخصي. وقد حرمني ذلك من سندويشات الشاورمة العجيبة التي تنبعث رائحتها من مطعم «أبو إسكندر» الذي كنا من زواره كل مساء، لتجنب العشاء العائلي المتكرر، ونشعر أننا في نزهة مستقلة في مساءات رام الله البديعة. كم موهبة أنكسرت منذ النكبة في هذه البلاد؟

كم مدينة ذبلت؟

كم داراً لم يصنّها أحد؟

كم مكتبةً كان يمكن ان تتأسس في رام الله؟ كم مسرحاً؟
الاحتلال أبقي القرية الفلسطينية على حالها وخَسَفَ مُدُنُنَا الى
قُرى .

إننا لا نبكي على طابون القرية بل على مكتبة المدينة . ولا نريد
استرداد الماضي بل استردادَ المستقبل ودَفَعَ الغَدَ الى بعدِ غَدِهِ .
اندفاع فلسطين في طرقات مستقبلها الطبيعي أَعَيَّنَ بفعل فاعل ،
كأن اسرائيل تريد أن تجعل الجماعة الفلسطينية كلها ريفاً لمدينة
اسرائيل . بل إنها تخطط لردّ المدن العربية كلها الى ريفٍ مؤبّد
للدولة العبرية .

هل يُعقل ان أذهب الى الجَنَبة ، سوق الخضار في رام الله ،
بعد غياب ثلاثين سنة فأجدها على حالها الذي كان رثاً منذ ثلاثين
سنة وكان الباعة لم يغيّروا صناديقهم ولا ملابسهم ولا يافطات
أسعارهم؟ وما يعقل أن أجد أرضيتها كما كانت تماماً ، كسطح
المستنقع ، لزجةً ، غامقة اللون ، مغطاة بالبقايا والقشور والعفن
الملوّن؟

وهل يُعقل أن أتأمل واجهات المباني المطلة على الشارع
الرئيسي ، فأجدها تكاد تشبه أرضية الحسبة؟
لم أذهب الى القدس ولا إلى تل أبيب والمدن الساحلية لكنّ
الجميع يتحدثون عنها كقطعةٍ من أوروبا في تنسيقها وخُضرتها
ومصانعها ومتجعاتها .

ركضوا بكل ما لديهم الى الأمام واتخذوا كل التدابير اللازمة
ليطمئنوا أننا سنظلّ نركض إلى الخلف .

كنت أتأمل الحال مع كل مشهد تراه العين وكل كلمة تسمعها
الأذن . هنا ، من هنا يمكن ان تكون الحقائق تجسيدا لا تجريداً ،
إنها تبني ذاتها على تراب الواقع ، لا على سراب الأفكار المسبقة .

هنا تعود الفكرة الى جسدها .

غادرنا متزّه رام الله و وافترقنا .

عدت بصحبة حسام إلى البيت مشياً على الأقدام .

رام الله الموزعة على هذه الـريوات والتلال الخضراء لها نكهة قرية . اتصالها المباشر بالبيرة قد يعطي انطباعاً بأنهما معا يشكلان مدينة . لكنّ جوّ الحياة في رام الله والبيرة معاً يظلّ جوّاً ريفياً .

علاقاتُ الناس ببعضهم هنا هي علاقات الريف . العائلات تعرف بعضها فرداً فرداً . معظم المارة في طرقاتها ينادون على بعضهم بالأسماء . بعد أن تجتمع فيها عدد كبير من العائدين من الشتات مع السلطة الفلسطينية الجديدة، بدأت بالتدرّج تتخذ لها صفةً من صفات المدن، التي هي بطبيعتها ملتقى للغرباء .

الملفت في حالة رام الله أو البيرة ان الغرباء هنا ليسوا غرباء على الإطلاق . انهم الأبناء الغائبون وقد أصابتهم الغربة، وأبناء القرى المحيطة، وأبناء المدن الضائعة منذ النكبة في 1948، الذين اختاروا العودة إليها والإقامة هنا تحديداً وفي الضواحي الآخذة في التمدد التدريجي، توخياً لملاصّ ليبرالية في الأفق الاجتماعي ولطراوة المناخ وجمال الطبيعة . ثم إنها تكاد تلتصق بالقدس جغرافياً . والقرب من القدس بديل مؤقت لاحتمال حرمان الفلسطينيين منها في نهاية المطاف .

قال حسام إنه قد يسافر الى عمان بعد أسبوعين .

- خير؟

- عرس سليمان . قررّوا يعملوا العرس في عمان .

- أي سليمان؟

- ولوا ابن أخت سهى يا رجل . ابن سامة

- لكن سليمان وعروسته عايشين هون في الضفة .

- خالاته وقرايبه وقرايب العروس برة . وأهل والده في القدس . لا تصاريح ولا إذن زيارة . اللقاء في عمان أسهل لمعظم الناس .

- أما حالة !

عندما تزوّجت «اعتقال» من «روبرت» في بودابست كنت أظن أن زواج الغرباء هو الذي يتم في المنافي البعيدة، كنت أظن أن الوطن هو الدواء الوحيد للكدر المكتوم الذي كنت أقرأ محاولاتها لإخفائه عني وعن العريس والمدعوين .

هل الوطن هو الدواء حقاً لكل الأحزان؟ وهل المقيمون فيه أقل حزناً؟

تعرفت على اعتقال في بودابست ضمن من تعرفت عليهم من المهاجرين العراقيين . قالت لي في لقائنا الثاني :

- انت الوحيد اللي ما تندرت على اسمي . كل من يسمعه يسألني عن هذا الاسم العجيب . إلا انت . كملت حديثك دون ان تضطرني للشرح والتفسير .

قلت لها مداعباً :

- «ولكن يبدو أنك راغبة في الشرح رغم ذلك !

تصادقنا .

أنا أتجنب السلوكات الجاهزة والمفروغ منها عادةً . بالإضافة الى ذلك فأنني فيما يتعلق بالمرأة لا أعلق اطلاقاً على مظهرها الخارجي . ولا أقول لها كلما قابلتها، «أنت مشرقة اليوم» أو «ما هذا الجمال والسحرا» وبقية الكليشيهات الأخرى .

طال مكوئنا في المجر وتخرجت اعتقال وحصلت على

الدكتوراه في مجال السينما وكانت تترجم لبعض المجلات الأدبية في بودابست .

كانت تجلس بالساعات تحكي لرضوى ولي عن أمها في العراق وعن أشقائها وعن غربتها في بودابست .

جاءتني ذات يوم بعد تعرفنا بسنوات لتبلغني بأنها ستتزوج من محام مجري اسمه روبرت ، وأنها تريدني وكيلاً عنها في مراسم الزواج . ولم أضطرها لشرح الظروف التي دفعتها لتجاوز كل زملائها العراقيين في المجر ، لتلجأ لي بالذات لتزويجها ، ولتختارني من بين كل من تعرفهم في هذه الغربة ، ولياً لأمرها .

وهكذا وجدتي في أعجب أوضاع الغريب !

اصطحبها في سيارتي التي زينتها بالورود ، الى مكتب عقود الزواج في الحي الحادي عشر في بودابست . ووجدتني أهتم بارتداء بدلة رسمية كحلية اللون وأهين نفسي لحدث لا يتكرر كثيراً بل ومن النادر أن يحدث لشاب ما زال في الثلاثينات من عمره . هي ارتدت فستان العرس الذي استأجرته من محل متخصص ، واحتضنت في جحرها باقة صغيرة من الزهور البيضاء والصفراء .

عندما انطلقنا بالسيارة كان الرذاذ المسائي الخفيف يلمع قطرة قطرة على أضوائها الأمامية . وكنا ، أنا الذي لا شقيقة لي ، واعتقال ، التي تصطحبني لأزواجها في الغربة ، نتبادل نظرات اعتراف كل منا بالجميل الذي يسديه للآخر .

أمام مكتب العقود كان المطر ينهمر بشدة فوق رؤوسنا ونحن نقطع الرصيف العريض إلى القاعة .

كان روبرت بالغ السعادة في ذلك المساء ولم يتبه للدموع التي لمعت في عيني اعتقال بشكل مباغت .
التفتت إلي فأنضحت دموعها أكثر .

- أُمِّي كانت تقول لِي لا تخَلِّي المَيَّ تغور من القِدَر أحسن
تتزوَّجين بالمطر. شفت يا مريد، دا تشتي.

جلسنا أمام موثَّقة العقود التي كانت ترتدي العلم المجري
وشاحاً على صدرها. كنت أرغب في الضحك من كل هذا المشهد
الذي وُضعتُ فيه! لكن الرعشة في صوت اعتقال وهي تقول باللغة
المجرية «إيجان» أي «نعم» نقلتني فوراً الى حالة لا ينفع معها
الضحك. وُضعتُ توقيمي على العقد.

غادرنا القاعة الى عشاء في أحد المطاعم. كان موكب العرس
قليل العدد.

سألتي اعتقال على العشاء:

- مريد، انت شفت عرس عراقي بالعراق؟

* * *

في زيارة لاحقة قمت بها إلى بودابست، بعد ان ارتحلْتُ منها
نهائياً، سألتُ عن اعتقال وروبرت وزرتهما.

عرَّفاني على طفليتهما الوحيدة «هانا» التي تقول عن القطة
«بزونة» وتتحدث معي باللهجة العراقية الأصيلة وتسالني إن كنت
أحب «كارمينا بورانا» لكارل أورف!

أعرف جيِّداً أنَّ أعراس المنفيين ليست كلها كذلك.

بعض أعراس المنافي تكون باذخة واستعراضية الى درجة
الابتذال، لكنَّ عرس اعتقال كان درساً في الوَحشة والشعور بأنك
«قليل»، بلا عزوة وبلا تقاليد وبلا تاريخ يسبق وجودك هنا والآن.

كان المسكوت عنه الذي يدور في الأذهان قاسياً، المكتوم
يمعن في التوازي ليفسح المجال للفرح المعلن. وكانت اللحظة في
النهاية لحظة فرح لا بسبب حاتنا بل بالرغم منها. لكنني لم أقل لها
شيئاً من هذا. وهل كنْتُ أو كانت هي بحاجة للقول؟

الغرباء يلتقون بالغرباء . وتجربة الموجوعين العرب علمتني أن
وجعي كفلسطيني هو جزء من كلّ . وتعلمت أن لا أبالغ فيه .
كل من كُتب عليهم المنفى يتقاسمون الصفات ذاتها . ففي
المنافي تختلّ المكانة الممهودة للشخص .
المعروف يصبح مجهولاً ونكرة .
الكريم ييخل .
خفيف الظل ينظر ساهماً .

الشكوك التي تحوم حول حظوظ المحظوظين منهم تتحول إلى
مهنة من لا مهنة له إلا مراقبة الآخرين .
كانت أوروبا التي أقمت في وسطها سنوات وتنقلت فيها شرقاً
وغرباً تغصّ بهم ، من كل بلدان العرب . لكل منهم قصة لا
أستطيع كتابتها . وقد لا يستطيع كتابتها أحد . هدوء المنافي وأمانها
المنشود لا يتحقق كاملاً للمنفي . الأوطان لا تغادر أجسادهم .
حتى اللحظة الأخيرة ، لحظة الموت .

«السَّمَكَة»

حتى وهي في شِبَالِكِ الصُّيَاذِينَ ،
تَظَلُّ تَحْمَلُ
رَائِحَةَ الْبَحْرِ !

إن قصص الأوطان المجروحة كقصص المنافي الآمنة ؛ لا شيء
في الجهتين يتم على هوى الضحايا .

أتذكر فيلم ميشيل خليفي «عرس الجليل» الذي صوّر مناظره
وأحداثه في «دير غسانة» والذي يدور حول عرسٍ يُرادُ له أن يتم
على أروع وأكمل وجه ، ولكن الأحداث تتطور في اتجاهات
معاكسة للأمال المرجوة باستمرار . لنكتشف أن لا شيء يتم على ما

يرام في واقع كالواقع الذي ينسجه الفيلم، الواقع المجروح، واقع الاحتلال.

في المنفى لا تنتهي القصة. إنها تُستأنف.

في المنفى لا نتخلص من الذعر. إنه يتحول الى خوف من الذعر.

ولأن الملفوظ من بلده محبط والهارب من بلده محبط، فإن المجموعات المنفية لا تستطيع أن تتجنب التوتر و«النرفزة» في التعامل اليومي فيما بين أفرادها.

عيونهم يقظة دائماً لتقييم بعضهم البعض. مشاعرهم وهواجسهم الساخنة إزاء ذويهم المتروكين في الوطن لا تجد لها أملاً ممكناً إلا محاولاتهم الواعية لتبريدها عمداً، فيبدو الشخص منهم قاسياً رغم رقة طبعه ورهافته. وعندما تستيقظ العاطفة لسبب ما، أو حتى بلا سبب، خذ ما تشاء من الحزن!

وكما أنهم تخلّصوا من وضع لم تكن الأمور فيه على ما يرام، فإنهم يكتشفون أن الأمور في المنفى أيضاً لا تتم على ما يرام.

لَمَ الشَّمْل

عدنا إلى البيت لنجده مكتظا بالضيوف وأبو حازم يقول:
- وينك يا رجل؟ قلقنا عليك. وين أخذته يا حسام؟ رضوى
وتميم اتصلوا من مصر وام منيف من عمان والبيت مليان. وسأل
عنك أكثر من واحد بالتليفون.

كنت طلبت من رضوى ان ترسل لي بالفاكس صورة عن شهادة
ميلاد تميم لاستكمال طلب التصريح الخاص به. وأعطيتها رقم
فاكس وزارة الثقافة. أَكْذَبْتُ أنها أرسلته.

في صباح اليوم التالي ذهبت للحصول عليه.
التقيت بالأصدقاء يحيي يخلف ومحمود شقير وعلي الخليلي
ووليد وقيل لي إن الوزير موجود فدخلت للسلام عليه، وكان في
اجتماع مع عدة اشخاص، عرفت من بينهم الدكتور حنا ناصر
رئيس جامعة بير زيت الذي حياني وقال مداعبا «أهلا
بالمعارضين».

في الوزارة دار نقاش مستفيض حول موقف المثقفين المصريين
من التطبيع ومن العلاقة مع إسرائيل.

قلت فيما قلت إن من أجمل مواقف المثقفين المصريين

موقفهم من هذه المسألة. وان من مصلحة القضية الفلسطينية ان نؤيد جهودهم في هذا الإتجاه. وان نكون سعداء باستمرارهم في هذا الموقف. هم بذلك يخوضون معركتهم الثقافية المصرية والعربية ومعركتهم ضد تبعات كامب ديفيد وضد سياسات إسرائيل التي تتجبر فينا هنا.

يجب أن لا ننسى أن الحركة الطلابية المصرية العظيمة التي بلغت أوجها عام 1972 في اعتصام جامعة القاهرة ولدت من رحم «جماعة أنصار الثورة الفلسطينية» بكلية الهندسة في تلك الجامعة. وان القضية الفلسطينية كانت محور نضالات الشباب المصريين وسبباً في تشكيل مصائر العديدين منهم وتكوينهم الفكري والثقافي.

قلت أيضاً إن العالم كله يمارس ضغوطاً ضد الفلسطينيين في الحرب وفي السلام، بينما لا أحد يضغط على إسرائيل. نذهب للتفاوض، نطلب خطوة من رئيس وزرائهم فيرفض. «نحرد» ونغادر الجلسة ونشكو أمرنا لزوجاتنا ولبعض الصحفيين الذين لا يملكون من أمرهم شيئاً. بينما السيد رئيس وزراء إسرائيل يغادر مائدة التفاوض لينام في... القدس!

مَن مِنّا في الوضع الأصعب هنا؟ ألا يستحق العدو شيئاً من الصعوبة؟

طلب مني الأصدقاء أن أقدم لهم مخطوطة من أشعاري لطباعتها. فضلت أن يضم أول كتاب لي يصدر في الوطن مختارات من شعري وليس ديواناً واحداً.

القطيعة بين شاعر الغربة وأهل بلده تكون كاملة أو شبه كاملة، فهي لا تعتمد على الكتب. إسرائيل كانت تمنع إدخال معظم المؤلفات الفلسطينية والعربية نثراً وشعراً. قصاصات الصحف

وبرامج الإذاعات والتلفزيونات العربية والكتب القليلة المهرّبة كانت تشكل نوعاً من الحل.

وعدت الصديق محمود شقير أن أترك له قبل مغادرتي مجموعة من القصائد المختارة وقد طبعوها بعد شهور بالفعل وصدرت عن وزارة الثقافة بالتعاون مع دار الفاروق بنابلس. أخيراً عاد مني الصوت أو بعضه إلى أصحابه ومكانه.

توجهت الى المركز وكررت شكري «لأبو ساجي» على عنايته واهتمامه وأعطيته شهادة ميلاد تميم.

- اطمئن. ان شا الله خير. اترك لي تليفونك وعنوانك في عمان او في مصر وانا اول ما تصل الموافقة بخبرك بنفسي.
- بإمكانك أن تتصل بأنيس أيضاً. هو عارف طريقي. ولكن متى تتوقع صدور الموافقة؟

- يمكن تأخر. انت مستعجل جدا؟

- تميم جاي لعمان بعد أسبوعين أو ثلاثة. أنا راجع الى عمان بكرة. اذا وصل التصريح بسرعة سأرجع الى رام الله ومعني تميم. المهم يوصلنا التصريح قبل بداية العام الدراسي لأن تميم وراه الجامعة زي ما انت عارف. ودّعته وخرجت.

تميم سيعيش هنا ذات يوم.

ذات يوم كنت أشارك في ندوة في فينا. غادرت مقعدي لاجراء مقابلة صحفية سريعة وعدت لأجد سيدة تجلس مكاني فاذا بها المحامية الإسرائيلية فيليسيا لانجر المتخصصة في الدفاع عن المعتقلين الفلسطينيين.

أدارت رأسها الى الخلف، رأني واقفا، فقالت:

- يا الهي! نحن متخصصون في احتلال أماكن الفلسطينيين حتى ولو في النمسا!

كنا في أسوأ فترة من الثمانينات حيث وصلت حرب المخيمات الفلسطينية في لبنان إلى أقذر مراحلها. المنظمة متشرذمة تتحارب فيها الفصائل بهمجية. شهداء صبرا وشاتيلا يموتون للمرة الثانية ببنادق الطرفين الفلسطينيين ومن يناصرهما. وأضيف لهم أيضا شهداء جدد من المخيمين ومن برج البراجنة. الأبرياء يُقتلون بلا هدف معلن.

كنا في استراحة بين جلستين على مائدة واحدة في بهو فندق المؤتمر، قياديان من الحركة الوطنية اللبنانية والسيدة لانغز ويفجيني بريماكوف خبير الشؤون العربية في الاتحاد السوفيتي وصديقان من السويد.

جاء من يخبرنا بأن مفتي لبنان حُلّل لأهالي المخيمات في بيروت أكل الققط والكلاب. لم أكن متأكدا مما إذا كان الخبر حقيقياً أو مجرد استغاثة أخرى عبر وسائل الإعلام، لوضع حدٍ للجهيم الذي بدا بلا نهاية. لكن تراكم التوتر مما وقع في المخيمات طوال الأيام الغائقة وعشية الاقتال والقتل، استحضرت ذلك الشعور باختلاط المأساة بالمسخرة مرة أخرى. قلت لفيليسيا :

- أين نذهب يا ناس؟ هل تقبليني لاجئا في «بلدكم»؟
تعلمت استخدام هذا التعبير كأنني أريد أن أعرف كيف تنظر هي إلى «بلدنا». كنت أشير متهمكاً إلى مسؤولية إسرائيل عن وجودنا في صبرا وشاتيلا وبرج البراجنة. عن وجودنا في مخيمات أصلاً. وعن وجودنا دون إرادتنا في بلاد الآخرين. وعن شكل مصيرنا كله. في فلسطين وفي الشتات.

توقعت منها (نتيجة لمواقفها المعروفة والمساندة لنا) أن تلطم

خديها مثلاً، أن تتأمل عبارتي قليلاً فتعتذر عن جرائم دولتها
ضدنا. فإذا بها تفشل في التقاط المرارة المدوية والنيرة الهستيرية
في عبارتي ويأتيني ردها مذهلاً كصفعة على وجه كهل نائم:
- يا ريت! لكن قوانين حكومتنا لا تسمح بذلك!!

الاسرائيلي قد يتعاطف معنا، غير أنه يجد صعوبة عظيمة في
التعاطف مع «قضيتنا» ومع روايتنا. إنه قد يمارس رأفة الغالب
بالمغلوب، وقد يشبه العدو من يعاديه؛ وفي فلسطين تطابق الشبه
واكتمل: المكان للعدو. المكان لنا. الرواية روايته والرواية
روايتنا. أقصد في نفس الوقت.

لكنني لا أقبل الحديث عن حقين متساويين في الأرض، لأنني
لا أقبل أن يدير اللاهوت في الأعالي الحياة السياسية على هذه
الأرض.

ورغم ذلك كله فلم أكن ذات يوم مغرماً بالجدال النظري حول
من له الحق في فلسطين. فنحن لم نخسر فلسطين في مباراة
للمنطق! لقد خسرناها بالإكراه وبالقوة.

عندما كنا نحن فلسطين، لم نجفل من اليهودي. لم نكرهه
ولم نعاديه. كرهته أوروبا العصور الوسطى، ولم نكرهه نحن.
كرهه فرديناند وإيزابيلا، ولم نكرهه نحن. كرهه أدولف هتلر،
ولم نكرهه نحن. عندما طلب مكاننا كله ونفانا منه، أخرجنا
وأخرج نفسه من قانون التساوي، صار عدواً. وصار قويا. صرنا
غرباء وضعفاء.

أخذ المكان بقوة المقدس وبقداسة القوة. بالخيال
وبالجغرافيا.

هل أستطيع ان أحفظ حق تميم في هذا المكان؟
فليدخل هذا الصيف، ليدخل بعد صيفين أو ثلاثة، ليدخل بعد
عشرين صيفاً. المهم ان يكون من حقه أن يعيش هنا ذات يوم.

حتى لو اختار الغربة بعد ذلك . فالغريب الذي يستطيع العودة الى مكانه الأول يختلف عن ذلك الذي تلهو به غربته لهواً دون أن يكون مستشار نفسه .

أَنْظُرْ الى أَبُوتِي لتميم وأتذكّرُ أبُوّةَ أبي لنا . لعلّه كان أكثر حناناً علينا؟ أم أننا ببساطة جيلٌ يتجنّب، عن قصد، إظهارَ كل عاطفته أمام الآخر، حتى أمام الإبن؟

لعلّه تَهَرَّبُ ناجمٌ عن حساسية من نوع آخر . كأننا، بكتمان العاطفة الصاخبة، نريد أن نقترح نموذجَ التحمّل والقدرة على مواجهة مفاجآت الأيام . نقترح ذلك على الأبناء وعلى أنفُسنا قَبْلَهُمْ . كأننا نختار الجانب العمليّ في التعبير عما بداخلنا ونتجنّب عمداً تشجيع أبنائنا على الوضوح العاطفي .

عندما كنت أودّع رضوى وتميم في مطار بودابست لم أكن أكفّ عن المداعبة والحديث بصوت مرتفع نسبياً في كل الأمور إلا في الموضوع الذي يشغل بالنا جميعاً، وهو رحيلهم الوشيك . كان وداعُ أبي أو امي لأي وليدٍ منا مشهداً شديداً الوطأة على الجميع . عندما ودّعنا منيف المسافر للعمل في قطر، فوجئنا بالوالدة تسقط من بين أيدينا على بلاط مطار قلندية وقد أغمى عليها، وفقدت الوعي والنطق لدقائق، مما سبّب لنا، نحن الأولاد الصغار، هلعاً وارتباكاً وفوضى .

وكان أبي يكتب لي رسائل مؤثرة لا أعرف كيف أتجنب الاضطراب بعد قراءتها .

أعامل تميم معاملةً زميلٍ أو ند؛ ولا أتبين مدى تعلّقي به الا عندما أتحدّث عنه أمام أصدقائنا الآخرين، وفي غيابه .

وحتى في التخاطب اليومي مع رضوى، يغلب الطابع الذي يُواري، والذي لا يُفصّح بالمفردات اللغوية، عن العاطفة . إنها «مزيجٌ من الجمالات»، أقول ذلك للأصدقاء والصدقات، ولا

أظنني قلته لها مباشرة ذات يوم. عندما أرسم صورة شعرية لها فإن القصيدة تصبح إصغاء للذات، وليست قولاً لمخاطبتها.

في الخطاب اليومي معها ومع تميم أكثر من المزاح والمداعبات والإجابات غير المتوقعة التي تصل الى حد المناكفة، والاستفزاز اللطيف، لكنه استفزاز.

أعجب للذين يحتفظون بصورة من يحبون في جيوبهم أو محافظهم الجلدية وحقائب سفرهم. إن فعلت ذلك فلسبب عملي بحث. هذه المرة مثلاً أحضرتُ عدَّةَ صورٍ صغيرةٍ لتميم من أجل إرفاقها بطلب الهزينة.

عندما زارتُ لطيفة الزيات قواعد الفنانين في الأردن في أواخر الستينات عادت الى القاهرة تصفهم بوصفٍ لم أجد أعذب منه. قلت لها كيف وجدتِ الناس هناك؟ قالت وهي تضحك: إنهم «أجلاف طيبون».



هل سرق اللصوص رقننا؟

من سرقها إذا؟

الآن، الأجلاف الطيبون هم أطفال الإنتفاضة. من أين أتوا بكل هذه الصراحة المشوبة بالخشونة؟

الذين خالطتهم منهم في نطاق العائلة والأصدقاء، وجذتهم أقل خوفاً وأقل تحفظاً وارتباكاً منا ونحن في مثل سنهم. مهاراتهم البدوية مبهرة لشخص مثلي. قدزتهم على المحاجة والنقاش وسوق البراهين ورواية القصص، تفوق قدرة الأطفال من أمثالهم في البلدان التي تحيا في ظروف طبيعية.

هل لأنهم رأوا الكثير؟ هل لأنهم تحمّلوا مسؤوليت مَبَكْرَة؟ هل هم كذلك لأن أهاليهم انشغلوا بأمورٍ أخطر من تدريبهم على

الحياء والخزيلة؟ يتحدثون في الفصائل والأحزاب ويقولون لك هذا فتح، وذلك حماس، وذلك شيوعي، أو جبهة، الخ. يحفظون الأغاني والأنشيد الوطنية ويتقنون الدُبُكَة أو يتدربون عليها. ولا يترددون في ان يغتوا لك أغنية، أو يرقصوا رقصة يعرفونها، عند أول طلب أو رجاء يُوجّه لهم. لا أريد أن أقول إنهم أفذاذ أو عابرة، ولكنني أريد أن أشير الى حساسية مختلفة اختلافاً بيناً عن مألوف الطفولة كما عشناه نحن.

كان أبي يستدعيني أحياناً أمام ضيوفه لأسمع نشيداً مدرسياً مثلاً او حتى جدول الضرب أو قصيدة مقررة من نوع «عصفورتان في الحجاز حَلَّتَا على قَنْزٍ»، فأشعر برغبة في الهرب من الدار كلها! وأخترع كل الأعذار الممكنة لتجنب ذلك الموقف.

أما «حَبّوب» فقد جلس ملتصقاً بي على الكنب في برنّدة جدّه «أبو حازم» وقال لي مباشرة وبدون مقدمات:

- أغنيّ لك أغنية يا عمّو؟

وفي يوم آخر قال لي:

- أنا رايح للكدكان أشترى بسكوت. شو بتحبّ أشترى لك؟ معي مصاري.

وأخرج «أمواله» من جيب بنطلونه القصير، ليبرهن لي على صحة تصريحاته وأضاف بعد أن قَبَلته شاكرأ:

- أنا باحكي كلام جد.

- أنا اللي بدي أشترى لك هديّة. قل لي شو اللي بتكون سعيد لو أهديتك إياه؟

فإذا به يجيبني بسرعة:

- تعال نام عندنا. ليش انت دايماً عند بيت جدو أبو حازم؟

قلت «لأبو يعقوب» ان ابنه لطيف جدا، وحكيّت له عن دعوته

لاستضافتي، وحماسه لشراء شيء لي من الدكان. فقال لي وهو ينظر إلى الولد نظرةً تمزج بين الإعجاب المستتر والتلميح التربوي:

- هذا ولد أزعر! كل يوم بيرجع من مدرسته بمشكلة، إما ضارب ولد أو مجتّن الأستاذ!
نعم.

لعلّ هذا ما أردتُ أن ألُخصّه حول طفل الإحتلال:
الشخصية المركّبة التي تتجمّع شفافيةً المشاعر واقتحاميةً السلوك.

الفرع والجرة،
الهشاشة والغلظة.
تساءلتُ مُجدّداً عن ذلك الرُكام المُسمّى «شعر الحجارة»
والقصائد التضامنية مع «أطفال الحجارة».

إنه التسطيع الذي يأخذ القريب والسهل من كل حالة إنسانية فيطمسها بدلاً من أن يُظهرها؛ ويُسئّ إليها في نفس اللحظة التي يزعم فيها أنّه يُمجّدها.

إنّ الفرقَ الأبدي بين العمق والضحالة. انه الفارق بين الفنّ وجُصصِ الإنشاء السياسي. واللافت للنظر أن الكُتّاب الذين عاشوا تحت الإحتلال وعاشوا الإنتفاضة، وقّعوا في نفس الخطأ الذي وقع فيه كُتّاب الخارج؛ ففشلوا، مثلهم، في النفاذ إلى جوهر ماذنهم الشعرية حتى وهم يكتبون تجاربهم الحية.

قلت لنفسي إن المسألة في جوهرها تكمن في شرط المعرفة الأكثر دقة بالحياة، وفي النضج الإنساني الذي هو أساس كل نضج فني. وهي سمات لا يقوم عملٌ فنيٌّ مُذهشٌ بدونها، بغضّ النظر عن التجربة المعاشة.

المهمّ هو تلك البصيرة النافذة والحساسية الخاصة التي تتلقى
بها التجارب وليس التواجد في موقع الأحداث فقط. فهذا، على
أهميته، لا يكفي للفن. قلت لنفسي إن الفن مُتَطَلَّب. الفن طماع.
لقد عشنا غربتنا في بلاد الآخرين، وعاشنا غرباء يشبهوننا،
فهل كتبنا غربتنا؟ ما الذي يجعل قصّتنا، نحن بالذات، جديدة بأن
يصغي لها العالم؟

ومن يصغي لقصص أولئك الرجال والنساء والأطفال الذين
أخذتهم الغربة إلى الضفة الأخرى التي لا يعود منها أحد، ضفة
الموت «الأشهب المُبْتَل»؟ لقد تبعثر موتانا في كل أرض. وفي
أحيان لم نكن ندري أين نذهب بجثثهم والعواصم ترفض استقبالنا
جثّاً كما ترفض استقبالنا أحياء.

وإذا كان موتى الغربة وموتى السلاح وموتى الإشتياق وموتى
الموت البسيط شهداء، ولو كانت الأشعار صادقةً وكان كل شهيد
وردةً، فيمكن لنا أن ندعي أننا صَنَعْنَا مِنَ الْعَالَمِ حديقَةً.



هذه ليلتي الأخيرة في رام الله.
قدمت الطلب بتصريح لِمَ الشمل لتميم وشعرت ان هذه
الخطوة تعد وحدها إنجازاً وهي كذلك بالفعل.
مَرُّ اليوم مزدحماً بالضيوف من الأهل والأصدقاء والجيران
والزملاء تختلط فيه الأحاديث وأنا أحاول أن أكون الطرف الذي
يسمع، لا الذي يتكلّم.

أخرجت أوراق «منطق الكائنات» ودخلت الى سريري.
في الغرفة، الصمت كامل كأنه دائرة مرسومة في كتاب.
منذ فترة وأنا أُمَيِّلُ للإصغاء.
«منطق الكائنات» كلّه قائم على أن الكائنات من جماد ونبات

وحیوان وإنسان هي التي «تقول». ودوري هو الإكتفاء بالإصغاء الى أقوالها.

في ديواني الأول كنت أقترح على البشرية أمراً لا أقل من «الطوفان وإعادة التكوين». كنت في العشرينات من عمري. إنه السن المناسب تماماً للتأكد من الحكمة!

كنت أكتب الشعر في الجامعة ثم في الكويت التي اضطرني خالي عطا الى الذهاب اليها عندما التقيته في الـ 67 في مصر لرعاية أسرته. كنت أتملص من البقاء هناك.

كنت أريد أن أواصل اهتمامي بالشعر والأدب. نشرت في مجلات «الأدب» و«مواقف» و«الكاتب».

لرؤى يعود الفضل الأكبر في اتخاذنا قرار ترك الكويت نهائياً والسفر الى القاهرة. كنا تزوجنا سنة 1970 وبعد أقل من عام واحد غادرنا الكويت نهائياً. قررنا السفر الى بيروت والبقاء فيها بضعة أيام، قبل أن نركب الباخرة الى الإسكندرية فالقاهرة.

في بيروت نزلنا في فندق الحمراء.

من غلاف أحد الدواوين أخذت رقم تليفون «دار العودة».

- ألو، الأستاذ أحمد سعيد محمديّة؟

- نعم

- أنا اسمي مريد البرغوثي و..

- يا أهلاً بالشاعر. إنت بتحكي من بيروت؟

كانت رؤى بجاني في الغرفة وضعت يدي على سماعة الهاتف وقلت لها مندهشاً:

- يقول لي أهلاً بالشاعر!

كنت أظن أنني بحاجة لمقدمة ذكية وطويلة لطلب موعدٍ للقائه وطرح فكرة نشر ديواني الأول في الدار المرموقة التي هو صاحبها

ومديرها . وكنت وأنا المقيم في الكويت أظن أن أحدا لم يسمع بي
في بيروت ، عاصمة النشر العربي . ثم واصلت حديثي :
- أنا في فندق الحمرا .

- شَرَفَ اشرب فنجان قهوة . أكيد عندك ديوان . هاته معك .

في دقائق وافق على نشره وصدر بالفعل في يناير 1972 كنت
أعطيت نسخة أخرى من المخطوطة لمنى السعودي لتصميم لي
غلاف الديوان . رَسَمْتُ بالفعل . لكنها وضعت عليه اسم منيف
البرغوثي بدلا من مريد البرغوثي !

بالطبع لم يكلف صاحب الدار نفسه إعادة تصميم الغلاف
فظهر الديوان وقد أُخْفِيَ اسم منيف بمستطيل من الحبر الفضي
وكتب اسمي فوقه .

ما يزال بوسع المدقق أن يقرأ الإسمين متمزجين مع بعضهما
الى يومنا هذا .

كل ما في الأمر أن منى كانت تعرف منيف ولا تعرفني قبل
لقائي بها ويبدو أنها سهت أو اختلط عليها الأمر .

المهم أن امتزاج اسمي واسم منيف بهذه الصدفة العجيبة
اكتسب عندي وعنده بعداً رمزياً محبباً ، مما خفف من قبح
الغلاف .

* * *

أحاول أن أنام

لا أنام .

أكتب شذرة من هنا وشذرة من هناك .

ملاحظات عابرة ، تلخيصات سريعة لمناقشة ما . عندما أطفئ
النور وأغمض عيني تبدأ ثرثرة العمر تعلق في هذه الغرفة الهادئة
المعتمة .

هواجس وأسئلة وصور عن الحياة التي مرّت والحياة التي
تنتظرني وتنتظرنا.

انهماك النهار يتحوّل في الليل الى وطأة وثقل.
هناك شيء يطالب بأن يكتمل ولكنه لا يكتمل.
أحاول قياس المسافة التي خلفها البُعد بين الأحياء هناك
والأحياء هنا. وبين الأحياء والموتى هنا وهناك.
أمسك بمخطوطة «منطق الكائنات» وأقرأ:

السعيد، هو السعيد لَيْلاً،
والشقي، هو الشقي لَيْلاً،
أما النهار،
فيشغل أمله!

أحاول أن أضع الغربة بين قوسين. وأن أضع نقطة أخيرة في
سطرٍ طويلٍ من حزنٍ التاريخ، التاريخ الشخصي والعام.
ولكنني لا أرى إلا الفواصل.
أريدُ رتقَ الأزمنةِ معاً. أريدُ وَضَلَ لحظةٍ بلحظة.
وصلَ الطفولة بالكهولة.

وصل الحاضرين بالغائبين والحضور كلّه بالغياب كلّه. وَضَلَ
المنفى بالوطن. ووضَلَ ما تخيلته بالذي أراه الآن.
اننا لم نعيش معاً على أرضنا ولم نمت معاً.

هناك، في محطة قطارات الشمال في باريس في الحادية عشر
ليلاً كان منيف يترنّح قبل أن يسقط على حافة الرصيف في صقيع
نوفمبر ليعود لأمته ولنا في صندوق.

هذا الذي عاش بالأصدقاء وللأصدقاء وكان يحب أن يحيط
حياته بالناس، يزورهم، يستقبلهم، يدعوهم، يسأل عن أحوالهم

بالهاتف، هل كان يهتئ نفسه لمثل هذا اليوم الأخير، مات موتاً وحيداً مستوحشاً غامضاً في «محطة الشمال». لم يكن معه أحد على الإطلاق! لا أحد.

8 نوفمبر 1993 كنا ثلاثنا رضوى وتميم وأنا على مائدة الغداء في بيتنا في القاهرة. رن الهاتف. قمت للرد. صوت أخي الأصغر علاء يتحدث من الدوحة. قال وهو يبكي كلمات قليلة جداً لا أذكرها.

سرت البرودة في أكتافي.

قلت كلاماً لا أذكره.

كل ما أذكره بوضوح أن رضوى قفزت من مقعدها تسأل وهي مخطوفة الوجه عما حدث. قلت لها كأنني أكتب كلماتي على ورقة وأضع تحتها خطاً لتأكيدهما:

- منيف مات. مات.

كان أحد أصدقائه قد اتصل من جنيف وقال انه تعرض لحادث في محطة «الجار دي نور» في باريس. اتصلت ببيته وبجنيف أحاول فهم أي شيء فقيل لي انه ما زال على قيد الحياة وهناك محاولة لإنقاذه. ثم قالوا لي إنه مات. عشت في هذا التضارب قبل أن أتصل بالوالدة في عمان. أدركت أنهم أبلغوها بأنه مصاب فقط بعد حادث تعرض له.

قلت لرضوى إن أمي لن تعيش بعده.

اتصلت بمجيد وعلاء في الدوحة. طلبت منهم أن لا يؤكدوا للوالدة نبأ الوفاة.

أردت أن أكون بجانبها عندما تتيقن من الكارثة.

قلت لرضوى إن مهمتي الآن هي أن أحمي أمي من الموت المفاجئ. قلت لها لو نجحنا في جعلها تعيش بعده يومين فإنها ستعيش.

المهم أن نتجاوز لحظة تلقّيها الخبر.
كنت أتعامل مع المأساة تعاملاً غريباً.
كأنّي رُميت في زلزال وخرجتُ منه أبحت عن مصير أُمّي فيه.
كأنّي تمكّنتُ من تنحية الخبر نفسه بعيداً عني بما يتيح لي
القدرة على السيطرة على زمام الأمور.
لا بد لأحدٍ ما أن يسيطر على زمام الأمور.
كنت كمن هوجم فجأة. فحوّل نفسه، فجأة، الى غرفة
عمليات يدير منها الرد المناسب على الهجوم.
فكرت بنفس الهلع في الجميع، في أولاد منيف، غسان وغادة
وغدير، وزوجته واخوتي وكان لابد من التركيز على الدور الممكن
القيام به واقعياً.
طلبت أولاً من مجيد وعلاء في الدوحة أن يحصلوا على تأشيرة
إلى فرنسا والسفر فوراً ليكونا بجانب أسرته. كان مستحيلاً أن
أحصل أنا على تأشيرة من مصر. سافروا إلى باريس بالفعل.
سافرتُ في اليوم التالي مع رضوى وتميم إلى عمان. استقبلنا
حسام في المطار. حكى لنا التفاصيل:
منيف سافر بالقطار من بيته في «فيجي فونسونو» إلى باريس.
قضى فيها بعض الأشغال ثم توجه إلى محطة قطارات الشمال
ليلحق بقطار الرابعة والنصف بعد الظهر ليحمله إلى اجتماع في
مدينة «ليل». وصل متأخراً عن موعد قطاره. انتظر في المحطة
ليستقل القطار التالي بعد نصف ساعة. قطار الخامسة.
في الحادية عشرة قبل منتصف الليل، يعثر عليه البوليس
الفرنسي ملقى على رصيف المحطة يتزف دماً (١٩)
ما الذي منعه من أن يأخذ قطار الخامسة؟
ما الذي أبقاه في المحطة سبع ساعات دون أن يغادرها؟

هل اختطف؟

هل هاجمه لصوص او نازيون جدد من حليقي الروس؟

هل هو اغتيال سياسي؟

هل تعرض لغيوبة مفاجئة وهو المصاب بمرض في الكبد
يعالجه منذ سنوات فطمع به بعض المارة بهدف السرقة؟

جاءت سيارة إسعاف فوجدت فيه رمقا خافتاً.

حاولوا إنقاذه دون جدوى . مات بعد دقائق .

قال صاحب مقهى في المحطة إنه شوهد وهو يدخل المقهى
مترنحاً نازفاً . ظنه الجرسون مخموراً . منعه من الدخول . دفعه الى
الخارج .

عاد يحاول الدخول مرة أخرى .

يبدو أنه أراد الإستغاثة . ربما أراد أيضاً الوصول الى التليفون .
مشى خطوتين أو ثلاث . سقط على مائدة يجلس عليها شابان
برتغاليان . قام الشابان ودفعاه بقوة الى الخارج . سقط للمرة
الأخيرة بعد أربع خطوات من باب المقهى .

حسام يشرح كل هذه التفاصيل باكيا وبشكل متقطع ، بطيء ،
متعدد التبرات .

قال إنهم لم يخبروا أمي بشيء .

قالوا لها إنه تعرض لحادث بالسيارة ولكنه بخير حتى الآن .
قال إن الدكتور جهاد والدكتور محمد بركات يلاحظانها باستمرار .
قال إن بيتنا ملئ بكل نساء العائلة المقيمين في عمان وإنه
منعهم من استخدام عبارات التعزية :

- كلهن يعرفن . الوالدة وحدها لا تعرف . قلبها حاسس
بالكارثة أكيد . لكنها متعلقة بخبر منك يعطيها أي أمل . لم نخبرها
بناءً على طلبك .

دخلنا من باب بيتنا الذي كان مفتوحاً على مصراعيه .

نظرت الى الصالون . وجدت المشهد الذي وصفه حسام .
بعض السيدات يرتدين ثياباً سوداء . أمي جالسة في شبه غيبوبة
ترتدي ثوباً أقرب إلى الأزرق الفاتح . بمجرد دخولنا رضى وتميم
وأنا انفجر جميع من في البيت بالنحيب . لا أدري كيف تجنبت
الإنهيار في تلك الدقائق . ولأنني نجحت في تجنبه في تلك اللحظة
تحديداً فأنني لم أعد معرضاً للإنهيار بعدها . خوفي على أمي
وانشغالي بحماية حياتها صانتي أنا أيضاً .

أمي لم ترزق بنت أبداً . وليس لها أخت . كان وجود رضى
في عمان مهماً . أمي عاملت رضى معاملة الابنة منذ رأتها للمرة
الأولى بعد زواجنا . كنت أعرف أن وجود رضى الى جوارها في
هذه اللحظات تحديداً سيعني لها الكثير .

اقتربت منها معانقاً وأنا مرتاب في قدرتي على التماسك حتى
النهاية .

- قل لي يمة شو اللي صار لأخوك؟ لابسات اسود ويقولن انه
فيه نَفْس . انه عايش في المستشفى ويمكن يطيب . شو بتقول لي
يمة . لا تكذب علي يا حبيبي .

كنت أريد أن أصرخ عمري كله حتى أموت هنا ، عند هذه
اللحظة .

لم أعرف كيف أجيها .

وجدتني أقول لها وأنا أضع رأسها على صدري ويداي تطوقانها
بشدة :

- بدنا اياك تظلي عايشة . اوعديني تظلي عايشة . البسي أسود
يمة .



وهناك في ضاحية سري قرب لندن يرقد تحت التراب البعيد،
ولَّد من قرية الشجرة ومن مخيم عين الحلوة معاً هو ناجي العلي.
قال لي شقيق وداد وهو يجلس بجواري في السيارة التي حملتنا من
ويمبلدون الى طرق طويلة متعرجة عبر الغابات الإنجليزية ونحن
نتابع الخريطة حتى نعثر على منطقة المقبرة:

- ما الذي أتى بنا الى هنا يا مريد!

قلت له مصححاً:

- قل ما الذي أتى (به) الى هنا!

وعندما وصلنا لم يكن أي واحد منا يعرف الهم الذي هو
حامله، هم الصغار من أولاده أم هم وداد أم همنا الذي لا صاحب
له، هم تاريخنا كله وحكايتنا كلها!

وهناك في جوف تلك البئر المهجورة في غابة على جبل
«فيشجراد» على الحدود بين المجر وتشيكوسلوفاكيا يرقد «لوي»،
الشاب الوسيم، المرح، الذي رمته الغربة الى المجر فتدبر أمره.
استطاع أن يعمل مديراً لمخيم سياحي وبار ملحق به، هناك في
أعلى نقطة في الجبل المكسو من أدنى نقطة في سفوحه الى قمته
الشاهقة بالأشجار .

تزوج من فتاة مجرية لطيفة الشكل والمعشر.

رزق منها بطفلين جميلين.

كنا نذهب تحت الثلوج الى مخيمه الذي يبعد أربعين كيلو متراً
عن بودابست. فيعلّق على باب البار يافطة «مغلق» ونصنع معا
شورية السمك في قِدر على نار الحطب المجلوب من الغابة.
نلعب الورق أو ندعو عدداً من أصدقائنا وصديقاتنا الى عشاء عربي
عنده. نلعب بكرات الثلج، نجمع الفطر من السفح الهائل

الإنحدار، ونعود لنعدّ منه أشهى الوجبات على أنغام الموسيقى
وأغاني فيروز، تساعدنا في ذلك زوجته اللطيفة التي تعلّمت بعض
الكلمات العربية.

وعندما فكّر باللحاق بشقيق له يعمل في الولايات المتحدة
الأمريكية ذات يوم، اختفى لؤي ولم يعثر له على أي أثر.
غافلته زوجته اللطيفة، الودودة، أثناء مشاهدته التلفزيون في
وقت متأخر من الليل، وأطلقت عليه الرصاص.

سحبت جثته الى ظلام الغابة بمساعدة شقي روماني ودفته في
تلك البئر المهجورة. غطت جثته بكميات من الاسمنت (١) الى ان
اكتشفها البوليس وأودعها السجن.

كان أصحابنا الذين يرون حياة لؤي يرون فيه الفلسطيني
المرتاح، السعيد، الحريص على أناقة علاقاته وأناقة طعامه وأناقة
ملابسه، الفلسطيني الذي استطاع أن «يدبّر حاله» ويكون أسرة
ويؤثّر بعض المال بعرقه وجهده اليومي.

لن يستطيع لؤي في بشره الشديد السواد الآن أن ينظر إلى
اطمئنانهم ليخبرهم أن السعادة تكذب. أن الأمان يكذب. أن
الوسامة تكذب. أن الحب يكذب. وأن الهواء المحيط بالفلسطيني
هواء مُهدّد!

الغربة حملت له بالضبط ما هرب منه عندما جاء من جنوب
لبنان: الموت!

وهناك على سلالم طائرة الميدل إيست في مطار بيروت، سقط
أبو العبد درويش، والد زوجة منيف، ميتاً، وهو في طريقه لزيارة
بناته في قَطَر فاحتفظوا بجثته أسبوعاً كاملاً في الشلاجة حتى تم
الإنصال بأهله.

ورنين الهاتف لا يتوقف في ليالي البلاد البعيدة.

يلتقط أحدهم السماعه متوجساً يغالب النعاس، يسمع صوتاً متلعثماً ومكسوراً على الطرف الآخر يخبره بموت أحد الأحباب أو الأهل أو الأصدقاء أو الرفاق في البلد أو في البلاد. روما وفي أثينا وفي تونس وفي قبرص وفي لندن وفي باريس وفي أمريكا وفي كل بقعة أوصلنا إليها زماننا. حتى أصبح الموت «كالخس» في السوق كدسه البائعون». نعم، في تفاهة الخس وبلا مهابة وبلا نهاية.

قلت لناجي وأنا أرى أولاده وبناته يستحمون في بركة الفندق،
- «ليتهم ينتظرون عليك حتى يكبر الأولاد قليلاً ويصبح بوسعك تركهم وحدهم في هذا العالم».

كانت رائحة قتيله تتصاعد يوماً بعد يوم، وخملة الكراهية ضده تغري أي كاتم صوت بالاستفادة من أجوائها المرعبة وكنت خائفاً عليه.

زارني في بودابست مع أسرته لعلاج ابنته الصغيرة «جودي» علاجاً طبيعياً من إصابة في ساقها تعرضت لها أثناء الغارات الإسرائيلية على صيدا. قضينا شهراً معاً ولم أره بعدها إلا عندما ذهبنا إلى لندن بعد شهر، لزيارة... قبره!

كان يرتدي الشورت ويجلس بجواري على خافة البركة وعظام قفصه الصدري بارزة لفرط نحوله وفي يده سيجارته:

- تعرف يا مريد، فكرت بهذي المسألة، لكنني حليتّها بسرعة مرة وإلى الأبد، سألت نفسي شو ترك لي أبوي لما مات؟ لا شيء. ورغم ذلك قدرت أعيش وأدبر حالي. بيدبرو حالهم. طز!

عرفت ناجي للمرة الأولى عام 1970 في الكويت.

كان يعمل في جريدة الشياصة وكنت أقضي بعض المساءات في مكتبه الصغير. كنت أعمل مدرّساً في الكلية الصناعية وأعد أول مجموعة من قصائدي للنشر. عرفته عن قرب ورأيت كيف يمكن ان يلمس المرء الموهبة بالأصابع. عرفت أيضاً كيف تكون

الشجاعة واضحة كالتابوت!

نجلس معظم الليل نتحدث في كل الشؤون ثم أتركه ليرسم
كاريكاتير اليوم التالي وأقول لنفسى ما الذي سيرسمه يا ترى غدا؟
أشتري الجريدة صباحاً فأندعش من أن ذلك الشاب المحتر،
البسيط، الضاحك، الحزين، قد لخص الدنيا في مرتبه اليومي كما
لا يستطيع أفصح المحللين السياسيين أن يفعل. واستمرت الصداقة
من سنة لأخرى ومن بلد لآخر.

في العام 1980 أُلقيت ضمن مهرجان شعري في جامعة بيروت
العربية قصيدة عنوانها «حنظلة طفل ناجي العلى» ونشرتها جريدة
السفير على صفحة كاملة بعد ذلك مزينة برسوم بريشة ناجي.

هنا كل شيء مُعدّ كما تشتهي
فلنكلّ مقام مقال:
مُكبَّرة الصوت في ليلة المهرجان
وكابينة الصوت في ليلة الإغتيال!

وبعد سبع سنوات من هذه الليلة جاءت ليلة الإغتيال فعلاً.
كنت مع رضوى وتميم في فندق على بحيرة البالاطون في
المجر نقضي أجازتنا الصيفية. استيقظنا مبكراً وفتحت الراديو على
اذاعة لندن باللغة الإنجليزية فإذا بي ألتقط شبه جملة تتحدث عن
«رسام فلسطيني مرموق».

قبل أن نكمل الإستماع الى الخبر أدركنا أن ناجي راح.
استيقظ تميم ونحن نحاول تنقية المحطة حتى نسمع المزيد من
التفاصيل عن الخبر. سأل:

- ماما، بابا، مالكم؟

- قتلوا عمّ ناجي.



أطلق الرصاص على ناجي يوم 22/ 7 / 1987 وهو بالصدفة ذكرى زواجنا أيضاً. وكانَ أماننا الخاصة تفقد مغزاها واحداً بعد الآخر وكان الأحداث تتمدّ أصابعها الغليظة، لثَمَزَقَ الرزنامة الخصوصية لكل منا وترمي أوراقها الصغيرة في الهواء.

قبل ذلك بسنوات كثيرة، في ظهيرة السبت 8 / 7 / 1972 وهو عيد ميلادي، كنت أجلس في مبنى إذاعة القاهرة في ماسبيرو بعد تسجيل لقاء أدبيّ معي، عندما رأيت شفيع شلبي ينزل عن الدرج مسرعاً ليبلغني باغتيال غسان كنفاني في بيروت.

ذهبت مع سليمان فياض الى يوسف إدريس في «الأهرام». قلنا له اننا نريد ان نعدّ لجنازة رمزية لغسان كنفاني في القاهرة تتزامن مع ساعة تشيع جنازته في بيروت.

اجتمعنا بعد الظهر في مقهى ريش. يوسف إدريس ونجيب سرور والدكتور عبد المحسن طه بدر ويحي الطاهر عبدالله وسليمان فياض وسعيد الكفراوي وإبراهيم منصور وغالي شكري ورضوى وكُتّاب آخرون لا أنذكرهم بشكل شامل ودقيق، فقد مر على اغتيال غسان ربع قرن كامل الآن!

وصل عددنا جميعاً في ذلك اليوم الى ما يقارب الخمسين. خطط يحي الطاهر عبدالله اليا فطاط بخطة المتقن البديع. مشينا صامتين على هيئة جنازة، من ريش في شارع سليمان باشا إلى نقابة الصحفيين في شارع عبد الخالق ثروت وهناك... كان رجال الأمن بانتظارنا. أخذوا يوسف إدريس إلى الداخل وبقينا جميعاً في حديقة النقابة ننتظر خروجه. وجّه الضابط ليوسف إدريس سؤالاً محدداً:

- هل كان معكم فلسطينيون في المسيرة؟

قال له يوسف:

- انا حاقول لك أسامي الخمسين شخص كلهم. اكتب عندك:

يوسف إدريس، يوسف إدريس، يوسف إدريس، يوسف إدريس،
يوسف إدريس، يوسف،

وهنا أوقفه الضابط عن الكلام. أنهى اللقاء ومضى في سبيله.
عاد يوسف لينضمّ لنا في الحديقة. روي لنا ما حصل. وتفرّقا بعد ذلك.

ورغم المناسبة الحزينة لم نستطع إلا الضحك على واحدة من
اليافطات التي أصرّ يحي الطاهر عبد الله على كتابتها وهي:
(إنهم يقتلون الجياد. أليس كذلك؟)

عندما عدت الى البيت وأخبرت الدكتورة لطيفة بما فعلناه
وحدثها عن تلك اليافطة أطلقت ضحكها العريضة وقالت:

- خيبة تخبّكم. تلاقي الناس في الشارع ضحكوك عليكم لما
قالوا يا بس. مش تكتبو حاجة تفهمها الناس؟

وعندما حدثها عن موقف يوسف إدريس قالت:

- هو يوسف كده. يتخذ موقف بطولي ثم يظل متلخبط ومتوتر
وخايف لغاية ما يعمل عكسه. لكن كويس انها جت كده.

أي عيد زواج بعد اليوم يا ناجي؟ وأي عيد ميلاد بعد اليوم يا
غسان؟ ما الذي نذكر وما الذي ننسى!

والمسألة لا تخصّ فرداً مثلي من دون الآخرين. فواجهنا
ومواجهنا تتكرر وتتكاثر يومياً، حتى أصبح كل يوم يمزق يوماً
غيره. تهبط المناسبة على نقيضها، فتهدم فينا كل المناسبات.

أصبحت رزنامتنا بالعطّب ويتراكم الأوجاع طبقة فوق طبقة،
حتى أصبح الزمان الفلسطيني نفسه أضغاثاً من النقائص،
والفكاهات التي لها طعم العلقم، ورائحة الإنقراض. هناك أرقام
معينة انسلخت عن معناها المحايد والموضوعي وأصبحت تعني
شيئاً واحداً لا يتغير في الوجدان.

منذ الهزيمة في حزيران 1967 لم يعد ممكناً لي أن أرى رقم الـ 67 هذا إلا مرتبطاً بالهزيمة.

أراه في جزءٍ من أرقام هاتف أحد الأقرباء أو الأصدقاء، على باب غرفة في فندق، على اللوحة المعدنية لسيارة مارة في الشارع في أي بلد من بلدان العالم، على تذكرة سينما أو مسرح، على صفحة في كتاب أو مجلة، على عنوان مكتب أو مؤسسة أو منزل في أية مدينة، على مقدمة قطار، أو رقم رحلة جوية على اللوحة الالكترونية في أي مطارٍ من مطارات الدنيا.

إنه لم يعد يعني، بالنسبة لي، ما يعنيه في سياقه الجديد والمتغير، كأنَّ الرقم 67 شاخ منذ ولد في ذلك الإثنين الخامس من حزيران، الإثنين الغابر، المقيم، الذاهب، العائد، الميت، الحي. رقمٌ تجمّد عند شكله الصحراوي الأول. شكله الرهيب.

كأنه ليس رقماً بل تمثال من الشمع لرقم. تمثال من الجرانيت. من الرصاص. من الطباشير التي لا تُمحى عن اللوح الأسود، في قاعة سوداء.

لا أنظُر منه ولا أتشاءم حين أراه في صوره المتنوعة. لكنني ألاحظه بشكل خاص. أسجّل ذلك لنفسِي فقط.

أنقله من اللاوعي الى الوعي للحظة عابرة، ثم يغطس ثانية كالذلافين التي تقفز ثم تغطس في المحيط.

لا أذهب الى أية خُلاصات ولا الى أية استنتاجات. لا ارتعش. لا أحزن. لا أشعر بأي توقّر. إنني فقط أتعرّف عليه بحواسي الخمس. كأنه وجهٌ أعرفُهُ، يعنيني ولا يعنيني، لكنه دائماً هناك. موجود. كما نعرف أن الدلافين في مكانٍ ما هناك، في أعماق المحيط، حتى لو لم نرها.

هل هزيمة حزيران عقدةٌ نفسيةٌ عندي؟ عند جيلي؟ عند العرب المعاصرين؟

لقد وَقَعَتْ بعدها أَحْكَامٌ وَخِيَّاتٌ لَا تَقْلُ خطورة، ونشبت حروبٌ، ونُقِدَّت مجازرٌ، وتغيّرت اللهجات السياسية والفكرية، غير أن الـ 67 تختلف عن كل ذلك.

نحن ما زلنا ندفع فواتيرها الى يومنا هذا. ولم يقع في تاريخنا المعاصر حدثٌ لا علاقة له بالـ 67.

كنت عائداً الى منزلي في حي المهندسين بالقاهرة عندما قابلت بالصدفة واحداً من أعزّ أصدقائي في تلك الفترة هو يحيى الطاهر عبدالله، وكانت حرب أكتوبر 1973 في يومها الرابع أو الخامس وكان يسير بجوارى في نشوة ملحوظة. لكنه يراني واجماً، مضطرباً ولا أشاركه نشوته تلك.

وقف في الشارع بشكل مفاجئ وقال لي:

- مالك عامل كده زي الغراب وشكلك مش مبسوط؟

- نعم أنا غراب لأنني شايف ما يستحق أن أنعق عليه. هذه

الحرب يا يحيى لن تنتهي على خير.

يوم الثلاثاء 16 أكتوبر، أي بعد عشرة أيام من بداية الحرب فقط، جلستُ الى جهاز التلفزيون في بيت الدكتورة لطيفة الزيات نستمع سوياً الى خطاب الرئيس السادات في مجلس الأمة المصري، فإذا به يقدّم وهو يرتدي بزّة العسكرية المؤنّثة بالأوسمة التي تصل الى جِزامه، ما أسماه «مشروعى للسلام مع إسرائيل»! في اليوم التالي تصاعَدَ الحديثُ عن الثغرة في الدفوسوار بشكلٍ مُلْفِتٍ.

بعد أيام، ظهر هنري كيسنجر في المنطقة؛ واتَّخَذَت الأحداثُ مسارها المعروف، الذي أدّى الى زيارة رئيس جمهورية مصر العربية إلى إسرائيل، ثم إلى اتفاقية كامب ديفيد.

وارتفع العلم الإسرائيلي، على بُعد مائة متر من تمثال نهضة مصر، الذي خُلِدَ فيه النحات العظيم «مختار» ثورة 1919 ولا تزال

تجري تحت رفيفه اليوميّ عند كوبري الجامعة، مياه نهر النيل غامضة ثم واضحة، واضحة ثم غامضة، لا يدري أحد ما الذي يجول في وقارها الأزرق، من أفكار.

ارتفع العلم الاسرائيلي على بعد ثلاثمائة متر فقط من قبة جامعة القاهرة، قبة المعتصمين ذاتها. القبة التي ذات يوم بعيد، وأنا مجرد طالب في الجامعة، شاهدت بعيني مواكب السيارات تتجه إليها ليترجل منها جواهر لال نهرو و جوزيب بروس تيتو وشواين لاي وكوامي نكروما وجمال عبد الناصر، يصعدون درجها الرخامي ويجلسون على كراسيها وأمامهم أوراق وملفات لم أراها، ولكن كلمات لا تُنسى تسربت منها الى وعي تلميذ قادم من جبال دير غسانة. كلمات حول الاستقلال والتنمية والحرية.

«كلمات كلمات كلمات» يا أمير الدنمارك!

كنت لا أطيع السادات، صوتاً وصورةً وسياسةً. وفي قاعة جمال عبد الناصر، تحت قبة جامعة القاهرة، في شتاء سنة 1972، كنت ورضوى مع المعتصمين. نشاركهم اعتصامهم جزءاً من النهار، أو النهار بطوله، ولو امتد بنا النقاش نقضي ليلتنا نائمين على الكراسي في القاعة حتى مطلع النهار التالي. ولم أكن أدرك خطورة فعلتي تلك. فالحكومة تُعايل كل من ليس مصرياً في نشاط من هذا النوع «كعنصر مُندس». وكانت هذه الكلمة تثير اشتمزازي كلما سمعتها الى يومنا هذا.

صباح الاثنين 24 يناير، فوجئت برضوى تعود إلى البيت بعد خروجها بأقل من ساعة. كانت قد سبقتني إلى الاعتصام ومعها سندويشات قامت بإعدادها ليلاً لتحملها إلى الطلبة. وكان آخرون يفعلون الشيء نفسه باستمرار. قالت إن الجامعة مطوّقة بجنود الأمن، يمنعون دخول أي شخص إلى الحرم الجامعي. بعدها

عرفنا أن الشرطة اعتقلت كل المعتصمين، وساقَتْهُمْ في العَرَبَات إلى السجن.

كان الطلاب والطالبات ينظرون من نوافذ الناقلات بأعينهم، التي أعيها السهر اليومي المتواصل، وإرهاق النوم على كراسي القاعة، إلى شوارع القاهرة النائمة في ذلك الفجر الخاسر والحزين، ينثرون من النوافذ قصاصات من الورق، كتبوا عليها ثلاث كلمات: «إصحي يا مصر»!

منذ الـ 67 والنقلة الأخيرة في الشطرنج العربي نقلة خاسرة! نقلة إلى وراء. نقلة سلبية تنتكس بالمقدمات مهما كانت تلك المقدمات إيجابية.

بعد معركة الكرامة التي خاضها الفلسطينيون والأردنيون معاً ضد العدو ذهبنا إلى أيلول ضد أنفسنا.

بعد حرب الـ 73 وعبور القناة ذهبنا إلى كامب ديفيد.

بعد مناهضتنا لكامب ديفيد عزبناها وعممناها وقبلنا ما هو أقل منها فائدة وأكثر منها فضيحة.

بعد الإجتياح الاسرائيلي للبنان خرجت منظمة التحرير من الصمود البطولي إلى الإقتتال والاعتدال والتكيف مع شروط أعدائها.

بعد الإنتفاضة الشعبية على أرض فلسطين ذهبنا إلى أوصلو.

دائماً نتكيف مع شروط الأعداء. منذ الـ 67 ونحن نتأقلم ونتكيف!

وها هو بنيامين نتانياهو، رئيس وزراء إسرائيل، يهدئ من مخاوف أمريكا على التسوية الراهنة بقوله إن العرب في النهاية سيتأقلمون مع تشدده، لأنهم تعودوا على التأقلم مع ما يفرض عليهم!

هل أنا معقد من الـ 67 ؟ نعم أنا معقد. الكمال لله ! هزيمة
حزيران لم تنته.

في ثاني أيام الحرب، ومع ارتفاع وتيرة الأناشيد الوطنية
والبيانات المظفرة من الإذاعة، تدفق طلاب الجامعة على مراكز
التطوع للذهاب الى الجبهة. وقفت في طابور المتطوعين وسجلت
اسمي.

أعطوني بطاقة صغيرة خضراء وعليها اسمي وتحت عبارة واحدة
تقول:

«يُستدعى للخدمة يوم 12 يونية 1967»

ويوم 9 يونية جلست الى التلفزيون في شقتي بالزمالك أشاهد
خطاب جمال عبد الناصر. والأمة كلها معلقة بشفتيه في تلك الليلة
لعلنا نفهم شيئاً مما دار ويدور على جبهة القتال منذ بداية الحرب.
جلست بجوار ي صاحبة الشقة التي كنت أسميها مدام
سيوزستريس (وهو اسم استعمرته من قصيدة إليوت «الأرض
الخراب») وكانت امرأة شقراء صفراء ملونة وبدينة بشكل متطرف.
فإذا بنا نسمعه يقول:

- اننا تعرضنا لنكسة.

ثم يضيف انه سيتنحى تماماً ونهائياً (قالها بفتح النون وما تزال
ترن في أذني هكذا: نهائياً) عن كل مناصبه الرسمية الخ.

قفزت فوراً من الصالة إلى الباب إلى الشارع.

وجدت نفسي واحداً من ملايين البشر الذين قفزوا في نفس
اللحظة الى عتمة الشوارع وعتمة المستقبل.

متى خرجت هذه الملايين؟ أنا خرجت بعد انتهاء الخطاب
مباشرة وربما قبل انتهائه، لقد خرج الجميع في نفس اللحظة إذاً.
في لحظة تكون المعرفة بما حدث لهم.

لم تكن هناك فجوة من الدقائق ولا حتى من الثواني بين الفعل

ورد الفعل . بين الأذن والخطوة . رأيت مجتمعاً كاملاً ينتشر في الشوارع في لمح البصر .

قضينا الليل بطوله في الشوارع وعلى الجسور فوق نهر النيل كأننا نظوف بلا هدف محدد أو كأننا نظوف جميعاً لنفس الهدف .

عشنا في الشوارع حتى مساء اليوم التالي .

وعندما مرت الأيام والسنوات عرفنا أننا كنا نشارك فيما سماه المؤرخون بعد ذلك «مظاهرات 9 و10 يونيو» التي أعادت عبد الناصر الى الحكم .

المهم أن أحداً لم يطلبنا بعد ذلك للخدمة التطوعية الموعودة .

انتهت حرب الأيام الستة بخطاب عبد الناصر .

ظل مستقبل الناس غامضاً . وكلما بشرونا باتضاحه ازداد غموضاً .

ازداد غموضاً بوفاة عبد الناصر ، ثم ازداد غموضاً بتولي أنور السادات ، ثم ازداد غموضاً بحرب رمضان ، وباتفاقية كامب ديفيد التي أعلنت «بوضوح» أن حرب رمضان هي آخر الحروب !

وازداد غموضاً عند الإجتياح الإسرائيلي للبنان ثم بعد الإجتياح ثم بعد حرب المخيمات ثم بعد أوسلو وهو ما يزال غامضاً الآن ! حتى هذه اللحظة !

ومنذ الخامس من حزيران 1967 تركنا لتدبير أمورنا الحياتية في ظل الهزيمة الممتدة . الهزيمة التي لم تنته بعد .

إنها العلامة المحددة لما تلاها ويتلوها الى الآن .

نعم . ان الـ 67 هي الانطباع المستمر في البال منذ أن عشتها في مقتبل العمر . أعلم أنني لا أصلح للعمل السياسي المحترف ، ربما لهذا السبب ، إنني أستقبل العالم بالمشاعر وبالحدس ؛ وهذا لا يتماشى مع تدابير الضرورة السياسية .

أنا لا أستطيع، إذا سرْتُ في مظاهرة، أن أمتف.
قد أشارك فيها إعلاناً لموقفي، لكنني لا أرفع صوتي لأصيح
بأي شعار أو مطلب، مهما كنت مقتنعاً بمضمونه.

بل إن الصور التي تترسب في ذهني من المظاهرات، هي تلك
الصور الفكاهية للمحمولين على الأكتاف، هاتفين بشعاراتهم ذات
الإيقاع المتظم.

وكما يحدث في أفلام إيزنشتين يتحوّل هؤلاء الهشافون
المُخلصون، إلى مجرد أفواه ضخمة الإتساع، مفتوحة على
آخرها، وإلى أسنان بيضاء، غير منتظمة في الغالب، تملأ المشهد
الوارد على الذاكرة كلّ.

أما حركة الأذرع، وقبضات الأيدي المضمومة، التي تضرب
هراء المظاهرة، فتثير في ضحكاً أستحي أن يلاحظه من هم
حولي، لئلا يظنّوا أنني أتهمّ عليهم، أو أسخر منهم، ومن جدية
تلك الحركات ومعناها.

نعم. أضحك حتى داخل المظاهرة ولا أستطيع كتمان أسبابي.
أبوح بها لأقرب شخص يجاورني، ولي من الحظّ بعد ذلك ما
لي، فلما أن يتفهّم موقفي الغريب أو أن يراه موقفاً غريباً، أستجقّ
عليه اللعنة.

عندما كان «أبو توفيق» يركب سيارة الجيب التابعة للإعلام
الجماهيري، ويطوف بها شوارع الفاكهاني، مُردّداً عبارته التي لا
يغيّرها أبداً:

«يا شهيدنا الجميل»

ويبدأ في تعداد مناقب الشهيد الذي خسره لئولنا، كان المشهد
مؤثراً في البداية. لكنّ تكرار سقوط الشهداء، تكرار الجنازات،
وتكرار «أبو توفيق» لعبارته الأثيرة، «يا شهيدنا الجميل»، كان يجرّ
تداعيات تُسبّغ على المأساة طابع الروتين والتعود وأحياناً يساعد

على اختلاط الذهول بنوع هريب من أنواع الفكاهة.

نعم أقصد ذلك النوع النادر من فكاهة الموت، فكاهة الجنازات! من المعروف أن النضال الطويل الذي يستهلك عشرات السنين وأعمار الناس يترك ظلالاً من الشجاعة والتحمل ولكنه يترك أيضاً ظلالاً من العدمية والسخرية من المصائر المتاحة التي لا راد لها. ويزيد من ذلك التراجع المتواصل بعد كل محاولة للتقدم إلى الأمام. هنا تصبح السخرية جزءاً من سايكولوجيا الإستمرار في المسعى رغم تعرّئه المتكرر.

تعوّد هو نفسه على الفقد كما تعوّد الشهداء على تكرار تضحيّتهم، وكما تعوّدنا، نحن المشيخين، على تشييعهم بالصخب نفسه إلى موطنهم المجازي: فلسطين، وموطنهم الواقعي: القبر.

كانت الملتصقات التي تُصوّر وجوههم وتحمل التحية لهم، تملأ جدران الفاكهاني. لكنّها، لتتابع الشهداء واحداً بعد الآخر، أخذت تهجم على بعضها البعض. أصبحت زاوية المُلصق الأحدث، تحجب جانباً من ملامح المُلصق القديم، وهكذا إلى أن اتخذت الملتصقات العديدة المتجاورة والمتراكمة فوق بعضها، شكلاً يبعث على الارتعاش كلّما تأملتته:

إنه شكل لملصق واحد واسع الأرجاء شكل لشهيد واحد متوزّع في وجوه عديدة. وكأن كل الموت موت واحد كثيف.

كان حياة الأحياء، بعد أن غاب عنها كل هؤلاء، أصبحت أمراً يُعلّمنا الخجل والإعتذار، وتفضيل الصمت على الشيد.

من هنا كانت الإذاعة الجماهيرية المتقلّبة التي يتفانى أبو توفيق في القيام بواجبه من خلالها عند كل جنازة جديدة، تقول ولا تقول. وكنا نسمعها ولا نسمعها. وكانت تثير تداخلاً من النفاض في صمتنا.

كانت الجنازات جزءاً لا يتجزأ من حياة الفلسطينيين في كل

تجتمع بشرتي ضمتهم في الوطن أوفي المنافي، في أيام هدوئهم،
وفي أيام انتفاضاتهم، وفي أيام حروبهم، وفي أيام سلامهم
المشوب بالمذابح.

ولذلك عندما تحدّث اسحق رايبين بكل بلاغة، عن مأساة
الإسرائيليين بصفتهم الضحية المطلقة، وسط رغبة عيون
المستمعين والمشاهدين في حديقة البيت الأبيض، وفي العالم
كله، أدركت أنني لن أنسى، إلى وقتٍ طويل، كلمته في ذلك
اليوم:

- نحن ضحايا الحرب والعنف،
لم نعرف عاماً واحداً أو شهراً واحداً لم تبتك فيه أمهاتنا
أبناءهن.

وسرّث في بدّني تلك القشعريرة التي أعرّفها جيداً، والتي
أجسّ بها كلّما قصّرت في جهد أو فشل في مهمة: رايبين سلّبتنا
كلّ شيء، حتى روايتنا لموتنا!

هذا الزعيم يعرف كيف يطالب الدنيا بأن تحترم الدم
الإسرائيلي. دم كل فرد إسرائيلي بدون استثناء.

يعرف كيف يطالب الدنيا بأن تحترم الدمع الإسرائيلي.
واستطاع أن يصوّر إسرائيل كلها كضحية لجريمة نحن نقترفها.
يقلب الحقائق.

يغيّر الترتيب.

يصورنا وكأننا البادئون للعنف في الشرق الأوسط. ويقول ما
يقول ببلاغة، وبشكل يمكن تصديقه وتبنيه.

ما زلت أتذكر كل كلمة قالها اسحق رايبين في ذلك اليوم:

- نحن الجنود العائدين من الحرب، ملطخين بالدماء،
رأينا إخواننا وأصدقاءنا يُقتلون أمامنا، وحضرنا جنازاتهم
عاجزين عن النظر في عيون أمهاتهم. اليوم نتذكر كل
واحد منهم بحبٍ أبدي.

من السهل طمس الحقيقة بحيلة لغوية بسيطة: إبدأ حكايتك من
«ثانياً»!

نعم. هذا ما فعله رابين بكل بساطة. لقد أهمل الحديث عما
جرى «أولاً».

يكفي أن تبدأ حكايتك من «ثانياً» حتى يتقلب العالم.
إبدأ حكايتك من «ثانياً» تصبح سهامُ الهنود الحمر هي الجريمة
الأصلية، وينادقُ البيض هي الضحية الكاملة!
يكفي أن تبدأ حكايتك من «ثانياً» حتى يصبح غضب السود
على الرجل الأبيض هو الفعل الوحشي!
يكفي أن تبدأ حكايتك من «ثانياً» حتى يصبح غاندي هو
المسؤول عن مآسي البريطانيين! يكفي أن تبدأ حكايتك من ثانياً
حتى يصبح الفيتنامي المحروق هو الذي أساء إلى إنسانية النابالم!
وتصبح أغاني «فكتور هارا» هي العار وليس رصاص
«بينوشيت» الذي حصد الآلاف في استاد ستياغوا!
يكفي أن تبدأ حكايتك من ثانياً حتى تصبح ستي أم عطا هي
المجربة واريل شارون هو ضحيتها!
قل لي يا عزيزي «أبو توفيق»، ما الذي بوسع سيارتك الجيب
الصغيرة أن تفعله إزاء هذا اللامعقول؟
ها هم الإسرائيليون يحتلون دورنا كضحية! ويقدموننا بصفتنا
قَتْلَةً! إسرائيل تبهر العالم بكرمها معنا:
قال رابين:

- إن توقيع إعلان المبادئ ليس سهلاً بالنسبة لي
كمحارب في جيش إسرائيل، وفي حروبها، ولا لشعب
إسرائيل، ولا لليهود في الدياسبور.

مَنَازِلُهُم المَبْنِيَّةُ فوق منازلنا تعلن، بشهامةٍ نادرة، استعدادَها
«لتفهُم» هوابتنا الغربية في سكنى المخيمات المبعثرة في شتات
الآلهة والذُّباب!

كأننا كنا نرجوهم أن يطردونا من منازلنا ونتوسل اليهم أن
يرسلوا بولدوزراتهم لهدمها أمام أعيننا!

بنادقهم الكريمة في دير ياسين «تغفر» لنا أنها كَوِّمت أجسادنا
في ساعةٍ غروبٍ هناك ذات يوم! .

طائراتهم الحربية «تسامح» مقابر شهدائنا في بيروت .
جنودهم يسامحون قابليَّةَ عِظَامِ مُراهقينَا للكُسْرِ إذا ما دَقَّها
أحدهم بِحَجَرٍ ضخم!

إسرائيل الضحية، تُضفي على سَكِينِها الساخن الملون، وميضَ
الصفح! وحتى يكتملَ الوجع، قالت ذلك وصَوَّرْته، ببيان مبهر .
وإن من البيان لسحرا .

في احتفال الدنيا، المصغية والمفتوحة العينين، لم يتذكر أحدُ
«شهيدنا الجميل» يا عزيزي «أبو توفيق»!

حتى نحن، أهْلُهُ الناطقين باسمِهِ، لم نتذكرْهُ!

يوم القيامة اليومي

المخدة سيجلُ حياتنا. المسودة الأولية لروايتنا التي، كل مساء جديد، نكتبها بلا جبر ونحكيها بلا صوت. ولا يسمع بها أحدٌ إلا نحن.

هي حقل الذاكرة، وقد تم نبشه وحرثه وتثنيته وعزقه وتخصيبه وريّه، في الظلام الذي يخصنا. ولكل امرئٍ ظلامه.

لكل امرئٍ حقّه في الظلام.

هي الخريشات التي تأتي على البال بلا ترتيب ولا تركيب. المخدة هي محكمتنا القُطنيّة البيضاء، الناعمة الملمس، الفاسية الأحكام.

المخدة هي مساء المسعى.

سؤال الصواب الذي لم نهتدِ إليه في حينه، والغلط الذي ارتكبناه وحسبناه صواباً.

وعندما تستقبل رؤوسنا التي تزدحم فيها الخلائط، مشاعرُ النشوة والرضى، أو الخسران والحياء من أنفسنا، تصبح المخدة ضميراً وأجراساً عسيرة.

إنها أجراس تقرع دائماً لنا، ولكن ليس من أجلنا ولا لصالحنا دائماً.

المخدة هي «يوم القيامة» اليومي.

يوم القيامة الشخصي لكل من لا يزال حياً. يوم القيامة المبكر الذي لا ينتظر موعد دخولنا الأخير إلى راحتنا الأبدية.

خطايانا الصغيرة التي لا يحاسب عليها القانون والتي لا يعرفها إلا الكتمان المعتنى به جيداً، تنتشر في ظلام الليل على ضوء المخدات التي تعرف، المخدات التي لا تكتم الأسرار ولا يهمها الدفاع عن النائم.

جمالنا الخفي عن العيون التي أفسدها التعمّد والاستعجال، جدارتنا التي يتهكمها القساة والظالمون كل يوم، لا نستردها إلا هنا ولولا أننا نستردها هنا كل ليلة لما استطعنا الاستمرار في اللعبة. في الحياة.

المخدة لا تدّعي شيئاً.

الميكروفون قد يكذب. الغزل الرقيق، المنابر، الأرقام، الرسائل، التقارير، الواعظ، القائد، الطبيب، الأم قد تكذب. المخدة منسوجة من نسيج الحقيقة، الحقيقة بصفتها سرّاً قد توارى حسابات النهار.

كم ادّعى المهزوم نصراً وصدّقه. لكنه يضع رأسه على مخدته الصغيرة فتأتي له بالخبر اليقين حتى وإن أنكره. «لَمْ أَنْتَصِرْ». يقولها لنفسه دون أن ينطق بها. وإن لم يجرؤ هو على قولها تجرؤ هي: «لَمْ تَنْتَصِرْ يا هذا». قد يعاود الظهور بمظهر المنتصر أمام الملأ. قد يؤيده البعض. لكن هذا البعض أيضاً سيرتعش تلك الرُعشة الباردة عندما يختلي بالنفس، في مساءٍ مَوَاقِفِهِ المحسوبة، ومساءٍ تأييده الملقق.

جِدَارَةُ العمر، إقْرَارُ الذات، الشعورُ بالزهو واعتناقُ روايةٍ من

الروايات دون غيرها، كلّ هذه التيقّينات الأكيدة نهائياً، وفي غبار
الإزدحام الإنساني، وفي حمّى المنافسة والصراعات، تُحوّلها
مخدّاتنا إلى مجرد قُرَصِيّات.

المخدّة هواجس تطالبنا بأن تُمتَحَن جيّداً وبلا رافة.

مستلقياً على ظهري في السرير، أصابع يديّ تتشابك تحت
رأسي على المخدّة، لم أعرف ما الذي أبقي عينيّ مفتوحتين باتجاه
السقف. والسقف لم يعد له وجود في هذه العتمة التامة. كأن
النوم لا يخصّني. كأنه اختراعٌ قُصِد به سواي.

هذه ليلتي الأخيرة في رام الله.

ليليتي الأخيرة في هذه الغرفة الصغيرة وتحت نافذتها المطلّة
على أسئلة لا حصر لها والمطلّة أيضاً على مستوطنة.

كأنني بتجاوز ذلك الجسر الخشبي الصغير تمكّنتُ من المُثول
أمام أيّامي. وجعلت أيّامي تُمثّل أمامي. ألمس تفاصيلٍ منها بلا
سبب. وأهمّل تفاصيلٍ منها بلا سبب. تُزوّرتُ لنفسي عُمرّاً كاملاً
وزوّاري يحسبونني صامتاً.

عبرتُ الجسر المحرّم علينا، وفجأة، انحنيتُ أَلَمِلِمُ شتاتي،
كما أَلَمَ جهتي معطفي إلى بعضهما في يوم من الصقيع والتلهّف.
أو كما يللملم تلميذٌ أوراقه التي بعثها هواءُ الحقل وهو عائذٌ من
بعيد.

على المخدّة لملمتُ النهارات والليالي ذات الضحك، ذات
الغضب، ذات الدموع، ذات العبث، وذات الشواهد الرخامية التي
لا يكفي عمرٌ واحدٌ لزيارتها جميعاً، من أجل تقديم الصمت
والاحترام.

أهين حقيبتني الصغيرة استعداداً للعودة الى الجسر، الى عمان
فالقاهرة، ثم الى المغرب حيث سأقرأ شعرا في أمسية بالرباط.
أقضي في الرباط أقل من اسبوع. ثم الى القاهرة لأعود وبصحبتي
رضوى وتميم لقضاء الصيف مع أمي وعلاء في عمان.
في عمان سأنتظر تصريح تميم.
سأعود معه الى هنا. سيراه. سيراني فيها. وسنسال كل
الأسئلة بعد ذلك.

الليلة، وكل من في البيت نائم، والصبح وشيك، أسأل سؤالا
لم تجد لي الأيام جواباً عليه حتى هذا المساء.

ما الذي يسلب الروح ألوانها ؟
ما الذي، غير قَصْفِ الغُرَاةِ، أَصَابَ الجَسَدَ ؟

انتهى

المحتويات

1 - الجِسر	5
2 - هنا رام الله	43
3 - دير غَسَّانة	63
4 - الساحة	85
5 - الإقامة في الوقت	109
6 - عمّو بابا	125
7 - غُرَبات	157
8 - لَمَ الشمل	183
9 - يوم القيامة اليومي	217

مقتطفات نقدية

● كتاب مريد «رأيت رام الله» يصدر عن روح فريدة حقاً. فريدة في النظرة السمحة التي ينظر بها إلى الناس والأحداث... الكتاب ليس مجرد كتاب. إنه ذوب قلب وعصارة حياة قضاها الشاعر المرموق متقللاً بين المهاجر والمنافي والمنابذ.

د. علي الراعي

● عمل يحكي رحلة عذاب الفلسطيني ليحوّل هذه التجربة إلى عمل إنساني فذ. مريد البرغوثي يستدعي ذكرياته بحميمية، لكن دون رومانسية، ويستحضر الوطن بعاطفة مشبوبة، لكن دون مرارة.

د. فريال غزول

● أقام مريد البرغوثي بنية ضمت باقتدار جمالي معجب عناصر السيرة الذاتية وعناصر القصص.

د. عبد المنعم تليمة

● بدیع . عظیم . رائد .

خيري شلبي

● يمكن أن اعتبره أهم كتاب صدر في الـ 49 سنة الأخيرة منذ سرقة فلسطين عام 1947.

صافي ناز كاظم

● الكاتب هنا قد امتلك اللغة العربية الجميلة والتي ورثها عن أجداده الشعراء وجعلها قادرة على أن تجسّد صدقه الإنساني المعذب والجميل... هذه الشعرية القصبة والدرامية هي شعرية الصدق.

د. سيد البحراوي

● أبلغ إفصاح باللغة الإنكليزية عما يعنيه أن يكون المرء فلسطينياً اليوم... ليس هناك كتاب آخر يُبين بهذا الاقتدار خلفية الأحداث الراهنة في فلسطين/إسرائيل. بيتر كلاوك، ملحق التايمز الأدبي، لندن.

● ليس الموضوع مجرد العنف المادي للاحتلال، بل قدرة الاحتلال على تجريد الفلسطينيين من أبسط صلة تربطه بنفسه وبمكانه...

مجلة الجديد - الولايات المتحدة الأمريكية

● «رأيت رام الله» رفض قائم على التحدي، من خلال تسجيل التجربة والمشاعر، لجهود «صناع السياسة» لنزع إنسانية المضطهد.

ذي إيجيشيان ريبورتر - القاهرة

● أهمية كتاب «رأيت رام الله» تتجلى في حقيقة أنه بينما يتحدث الكثيرون عن «مشكلة اللاجئين» يظل اللاجئون أنفسهم صامتين عموماً وغير مسموعين. البرغوثي يبذّر هذا الصمت بسردة القوي، الغنائي، الشعري المؤثر.

واشنطن ريبورت، واشنطن

رأيت رام الله

إن الاهتمام الذي يحظى به هذا الكتاب، هو أحسن تعريف له، ولأهميته وجمالته. ويظهر هذا الاهتمام من خلال الترجمات والطبعات التي صدرت منه.

الطبعات العربية:

1. دار الهلال، القاهرة، الطبعة الأولى 1997،

الطبعة الثانية، 2006

2. المركز الثقافي العربي، بيروت - الدار البيضاء

الطبعة أولى، 1998، الطبعة ثانية، 2003

3. دار الشروق، رام الله، 2000

4. الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، 2002

ترجم هذا الكتاب إلى لغات عديدة منها الإنجليزية حيث طبعته A.U.C Press (القاهرة) في عدة طبعات، وكذلك طبع في Random House - New York و Bloomsbury - London كما ترجم وطُبع بالفرنسية والأسبانية والهولندية والنرويجية، والبرتغالية والإندونيسية والتركية والصينية.

ويعيد المركز الثقافي العربي طبعه في طبعة ثالثة أضيفت إليها مقدمة إدوارد سعيد.

الناشر

ISBN 978-9953-68-341-7



9 789953 683416

المركز الثقافي العربي



الدار البيضاء: ص.ب 4006 (سيدنا)

بيروت: ص.ب: 113/5158